Exp 600

تزكية النفوس

من نفحات العارف

السيد علي بن طاوس قدس سره

السيد حسين نجيب محمد

دار المحجة البيضاء

تزكية النفوس

من نفحات العارف

السيد علي بن طاووس

تزكية النفوس

من نفحات العارف

السيد علي بن طاوس قدس سره

السيد حسين نجيب محمد

دار المحجة البيضاء

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

الهدف من الكتاب

هدفي من الكتاب التدبر... والتأمل... والتمعن في كلمات جمال السالكين العارفين الكامل السيد «علي بن طاووس» رَحِمَهُ اللهُ.

ففيها أرقى معاني «التوحيد» والارتباط بالله تعالى... فسنجد في مطاوي الكلام أنه دائماً ما يربط العبد بالله، ويقوده إلى الله تعالى، حتى يصل إلى درجة لا يرى إلا الله..

فاقرأ... وتدبر... وتأمّل... وتمعن...

وسأتركك - عزيزي القارىء - في البداية لتتعرف على تلك الشخصية العظيمة... ثم تعيش في رحاب كلماته قدّس الله نفسه الطاهرة.

وإنَّ خرجت بفائدة من هذا الكتاب فترّحم على السيد ابن طاووس واهده شيئاً من حسناتك وسترى نتيجة ذلك إنشاء الله تعالى.

المقدمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خلق الإنسان، علّمه البيان، والصلاة والسلام على سادة الأنام محمد وآله الكرام.

وبعد..

لماذا هذا الكتاب

يوجد في الأحياء من تموت القلوب برؤيتهم وذكرهم، وفي الأموات من تحيا القلوب بذكرهم والحديث عنهم...

والعلماء أحياء وإن رحلوا عن عالم الدنيا... فسيرتهم ومؤلفاتهم وآثارهم حية ما بقى الدهر... وهي تحيي القلوب وتزكّى النفوس... ومن أولئك جمال السالكين وقدوة العارفين وسيد المراقبين العارف الكامل السيد «علي بن طاووس» رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فقد مضى أكثر من سبعة قرون على رحيله وما يزال حاضراً فيما كتب، فاستفادت الأجيال من مؤلفاته، فتعلم من تعلّم، وسلك إلى الله تعالى من سلك...

وقد رأيت في مؤلفات السيد رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كثيراً ما يذكر في طوايا الكتب مواعظ وتوجيهات أخلاقية وعرفانية فرأيت أن أجمع ذلك في كتاب مستقل سميته «تزكية النفوس من نفحات السيد علي بن طاووس».

سائلاً الله تعالى أن يتقبل عملي وأن يرفع بذلك درجات السيد ابن طاووس رَحِمَهُ اللَّهُ أنه تعالى أرحم الراحمين.

اسمه ونسبه

هو السيد علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن عبد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد الطاووس ابن اسحاق بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى ابن الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ ابن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وإنما لقّب محمد بالطاووس؛ لأنه كان مليح الصورة، وقدماه غير مناسبة لحسن صورته[١].

أسرته

والده:

هو السيد الشريف أبو إبراهيم موسى بن جعفر بن محمد بن أحمد بن محمد بن الطاووس، من الرواة المحدثين، روى عنه ولده السيد أبو القاسم علي، وعلي بن محمد المدائني، والحسين بن رطبة. وتوفي رَحِمَهُ اللَّهُ في المائة السابعة، ودفن بالغري[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ج١٠٧، ص٤٤.

(٢) الإجازات المطبوع في البحار: ج١٠٧، ص٣٩.

والدته:

هي بنت الشيخ ورّام بن أبي فراس المالكي الأشتري، المتوفى سنة ٦٠٥هـ. وذكر الشيخ يوسف البحراني في اللؤلؤة، وتبعه السيد الخوانساري في الروضات أن أم السيد ابن طاووس - وكذلك أم ابن إدريس - هي بنت الشيخ الطوسي.

إخوته:

السيد عز الدين الحسن بن موسى بن طاووس، المتوفى سنة ٦٥٤هـ[١].

والسيد شرف الدين أبو الفضائل محمد بن موسى بن طاووس، استشهد عند احتلال التتر ببغداد في سنة ٦٥٦هـ[٢].

والسيد جمال الدين أبو الفضائل أحمد بن موسى بن طاووس، من مشايخ العلامة الحلي، وابن داود، وكان عالماً فاضلاً له عدة تصانيف، توفي في سنة ٦٧٣هـ[٣].

زوجته:

هي زهراء خاتون بنت الوزير ناصر بن مهدي، وقد تزوجها بعد هجرته إلى مشهد الإمام الكاظم عليه السلام، وقد ذكر كيفية زواجه منها، وأنه أوجب فيما بعد طول استيطانه في بغداد، في كتاب (كشف المحجة)[٤].

---

(١) عمدة الطالب: ص١٩٠.
(٢) عمدة الطالب: ص١٩٠.
(٣) عمدة الطالب: ص١٩٠.
(٤) عمدة الطالب: ص١٩٠؛ رجال ابن داود: ص٤٦.

أولاده:

١ - النقيب جلال الدين محمد بن علي بن طاووس، ولد في يوم الثلاثاء المصادف التاسع من محرم الحرام سنة ٦٤٣هـ في مدينة الحلة السيفية، ذكر ذلك المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الكتاب (كشف المحجة)، وذكر أن كتاب (كشف المحجة) هو عبارة عن وصيته لولده الكبير محمد. وقد تولى النقابة بعد وفاة والده سنة ٦٦٤هـ، وبقي نقيباً إلى أن توفي في سنة ٦٨٠هـ[١].

٢ - والنقيب رضي الدين علي بن علي بن موسى ولد في يوم الجمعة ٨ محرم الحرام سنة ٦٤٧هـ في النجف الأشرف، ولي النقابة بعد وفاة أخيه محمد في سنة ٦٨٠ هـ، وتوفي بعد سنة ٧٠٤ هـ[٢].

٣ - شرف الأشراف، ذكرها المصنف في (كشف المحجة)، وذكرها أيضاً في كتابه (الأمان من أخطار الأسفار والأزمان) قائلاً؛ «الحافظة الكاتبة». وذكرها في كتابه (سعد السعود) قائلاً: «ابنتي الحافظة لكتاب الله المجيد شرف الأشراف، حفظته وعمرها اثنتا عشرة سنة». وقد أجازها والدها وأختها فاطمة برواية الحديث، ويظهر من كتاب (كشف المحجة) أنها أكبر من ولده محمد[٣].

٤ - فاطمة: ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (سعد السعود) قائلاً: «فيما نذكره من مصحف معظم تام أربعة أجزاء وقفته على

---

(١) كشف المحجة: الفصل السادس والعشرون والمائة.

(٢) كشف المحجة: الفصل الثالث؛ لؤلؤة البحرين: ص٢٣٨؛ عمدة الطالب: ص١٩٠.

(٣) عمدة الطالب: ص١٩٠.

ابنتي الحافظة للقرآن الكريم (فاطمة) حفظته وعمرها دون تسع سنين»[١].

ولادته ونشأته

ولد رضوان الله تعالى عليه في يوم الخميس منتصف محرم سنة ٥٨٩هـ في مدينة الحلّة السيفية، كما أشار هو إلى ذلك في هذا الكتاب (كشف المحجة)[٢].

وكانت الحلة آنذاك تعيش فترة ازدهار حركتها الثقافية العلمية، والتي شكلت فيما بعد مدرسة فقهية خاصة عرفت بمدرسة الحلة، حيث تخرّج منها عدد كبير من علماء الطائفة، الذين لهم اليد الطولى في تقدّم الحركة العلمية بصورة عامة والفقهية بصورة خاصة.

ولا شك أن هكذا جو يؤثر تأثيراً إيجابياً وملحوظاً على نشأة السيد ابن طاووس، خصوصاً أنه يعيش في بيت جلّ أفراده من العلماء والأدباء، ولا شك أن والده كان هو المعلم الأول له والمرشد والناصح الأمين.

ومما يمتاز به السيد ابن طاووس - كما أشرنا سابقاً - أنه كثيراً ما يذكر في كتبه أحواله الشخصية، وما يتعلق بحياته الخاصة، من نشأته ودراسته وسفره، بل حتى زواجه وتأريخ ولادة أبنائه.

فيحدّثنا في كتابه (كشف المحجة) عن نشأته ودراسته وما يتعلق بذلك قائلاً:

---

(١) كشف المحجة: الفصل الثالث عشر؛ الأمان: ص١١٦؛ سعد السعود: ص٢٦.
(٢) سعد السعود: ص٢٧.

«أول ما نشأت بين جدي «ورّام» ووالدي... وتعلّمت الخط والعربية، وقرأت علم الشريعة المحمدية... وقرأت كتابَ في أصول الدين... واشتغلت بعلم الفقه، وقد سبقني جماعة إلى التعليم بعدّة سنين، فحفظت في نحو سنة ما كان عندهم وفضلت عليهم».

ثم يقول: «وابتدأت بحفظ الجمل والعقود... وكان الذي سبقوني ما لأحدهم إلا الكتاب الذي يشتغل فيه، وكان لي عدة كتب في الفقه من كتب جدي ورّام انتقلت إليّ من والدتي بأسباب شرعية في حياتها».

ثم يقول: «فصرت أطالع بالليل كل شيء يقرأ فيه الجماعة الذين تقدموني بالسنين، وأنظر كل ما قاله مصنف عندي وأعرف ما بينهم من الخلاف على عادة المصنفين، وإذا حضرت مع التلامذة بالنهار أعرف ما لا يعرفون وأناظرهم».

ثم يقول: «وفرغت من الجمل والعقود، وقرأت النهاية، فلما فرغت من الجزء الأول منها استظهرت على العلم بالفقه، حتى كتب شيخي محمد بن نما خطه لي على الجزء الأول وهو الآن عندي.

ثم يقول: فقرأت الجزء الثاني من النهاية أيضاً ومن كتاب المبسوط، وقد استغنيت عن القراءة بالكلية... وقرأت بعد ذلك كتباً لجماعة بغير شرح، بل للرواية المرضية... وسمعت ما يطول ذكر تفصيله»[1].

وهاجر السيد ابن طاووس رحمه الله من الحلة إلى بغداد، وتزوج فيها

---

(١) كشف المحجة: الفصل التاسع.

من بنت الوزير ناصر بن مهدي زهراء خاتون، واستوجب هذا الزواج أن يبقى في بغداد مدة طويلة، كما ذكره في كتاب (كشف المحجة)[١].

وفي خلال تلك الفترة التي قضاها السيد في بغداد كان يتمتع بجاه كبير وعلو شأن عند المسؤولين آنذاك، حيث أنهم كثيراً ما عرضوا عليه أن يتولى المناصب الحكومية أو يكون رسولاً من قبل الخليفة المستنصر إلى بعض الملوك والرؤساء، إلا أنه كان يرفض ذلك، لكي يتفرغ لعبادة الله تعالى ويبتعد عن الدنيا وزخارفها.

وحينما طلب منه الخليفة المستنصر أن يقبل الوزارة، رفضها معللاً رفضه بجواب المستنصر قائلاً:

«إذا كان المراد بوزارتي على عادة الوزراء يمشّون أمورهم بكل مذهب وكل سبب، سواء كان ذلك موافقاً لرضى الله جل جلاله ورضى سيد الأنبياء والمرسلين أو مخالفاً لهما في الآراء، فإنك من أدخلته الوزارة بهذه القاعدة قام بما جرت عليه العوائد الفاسدة.

وإن أردت العمل في ذلك بكتاب الله جل جلاله وسنة رسوله ﷺ، فهذا أمر لا يحتمله من في دارك ولا مماليك ولا خدمك ولا حشمك ولا ملوك الأطراف، ويقال لك إذا سلكت سبيل العدل والانصاف والزهد: إنّ هذا علي بن طاووس علوي حسني ما أراد بهذه الأمور إلا أن يعرف أهل الدهور أن الخلافة لو كانت إليهم كانوا على هذه القاعدة من السيرة، وإن في ذلك رداً على الخلفاء من

---

(١) كشف المحجة: الفصل الثالث والأربعون والمائة.

سلفك وطعناً عليهم، فيكون مراد همتك أن تقتلني في الحال ببعض أسباب الأعذار والأحوال، فإذا كان الأمر يفضي إلى هلاكي بذنب في الظاهر، فها أنا ذا بين يديك أصنع بي ما شئت قبل الذنب فأنت سلطان قادر»[١].

ثم بعد هذه الحادثة رجع السيد إلى الحلة، وبقي فيها مدة من الزمن، ثم انتقل إلى النجف الأشرف وبقي فيها ثلاث سنين، ثم انتقل إلى كربلاء ثم انتقل إلى بغداد سنة ٦٥٢هـ وبقي فيها إلى حين احتلال المغول بغداد، فشارك أهلها في المصائب والمحن التي جرت من جراء ذلك الاحتلال الميشوم.

وكان في نيته أن ينتقل إلى سامراء ليجاور الإمامين العسكريين عليهما السلام، وليكون قد تشرّف بمجاورة الأئمة المعصومين عليهم السلام المدفونين في العراق، وعن ذلك يقول في كتاب (كشف المحجة):

وقد وقع في خاطري أنني ربما إذا تم لي مجاورة - حرم الإمام الحسين عليه السلام - ثلاث سنين أستخير في أن أتشرف بمجاورة مولانا المهدي وأبيه وجده بسرَمَن رأى صلوات الله عليهم أجمعين، وهو أبلغ في العزلة بالكلية؛ لأنّه بعيد عن بلادنا ومعارفنا وكأنه صومعةً في برية، ورجوت إذا شرّفني الله بهذه الأمنية أن تكون هذه المجاورة في الثلاثة المشاهد النبوية ما سبقني أحد فيما أعلم إلى مثلها وإلى شرف فضلها، فما أعرف أحداً انتقل إلى كل مشهد منها بعياله كما انتقلت على ما أمكنني الله جل جلاله من أفضاله ليكون ذلك وسيلة إلى أن

---

(١) كشف المحجة: الفصل السادس والعشرون والمائة.

يسكنونا في جوارهم في دار قرارهم ويشملونا بمبارهم، ويشركونا في مسارهم إن شاء الله تعالى»[١].

وفي سنة ٦٦١هـ ولي السيد ابن طاووس نقابة الطالبيين، وبقي فيها إلى أن وافاه الأجل المحتوم في سنة ٦٦٤هـ[٢].

أساتذته وشيوخه

- الشيخ أسعد بن عبد القادر الأصفهاني.
- بدر بن يعقوب المقرىء الأعجمي.
- تاج الدين الحسن بن علي الذربي.
- الحسين بن أحمد السوراوي.
- كمال الدين حيدر بن محمد بن زيد بن محمد بن عبد الله الحسيني.
- سديد الدين سالم بن محفوظ بن عزيزة السوراوي.
- أبو الحسن علي بن يحيى بن علي الحافظ.
- شمس الدين فخار بن معد الموسوي.
- نجيب الدين محمد السوراوي.
- أبو حامد محيي الدين محمد بن عبد الله بن زهرة الحسيني الحلبي.
- أبو عبد الله محب الدين محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي.

---

(١) كشف المحجة: الفصل الثلاثون والمائة.

(٢) كشف المحجة: الفصل الرابع والثلاثون والمائة.

- صفي الدين محمد بن معد الموسوي.
- الشيخ محمد بن نما.
- والده الشريف أبو إبراهيم موسى بن جعفر بن محمد بن أحمد بن الطاووس.

تلامذته والراوون عنه

- إبراهيم بن محمد بن أحمد بن صالح القسيني.
- أحمد بن محمد العلوي.
- جعفر بن محمد بن أحمد بن صالح القسيني.
- جعفر بن نما الحلي.
- الحسن بن داود الحلي.
- العلامة الحلي الحسن بن يوسف بن المطهّر.
- السيد عبد الكريم بن أحمد بن طاووس.
- السيد علي بن علي بن طاووس (ولد المصنف).
- علي بن عيسى الإربلي.
- علي بن محمد بن أحمد بن صالح القسيني.
- محمد بن أحمد بن صالح القسيني.
- محمد بن بشير.
- الشيخ محمد بن صالح.
- السيد محمد بن علي بن طاووس (ولد المصنف).
- يوسف بن حاتم الشامي.
- يوسف بن علي بن المطهّر (والد العلامة).

إطراء العلماء له

مُدح السيد رَحِمَهُ اللَّهُ وأطراه كل من تأخّر عنه، وكل من صنف في حياة العلماء والعظماء والمؤلفين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

١ - ابن عنبة في عمدة الطالب قائلاً: «رضي الدين أبو القاسم علي، السيد الزاهد صاحب الكرامات نقيب النقباء بالعراق»(١).

٢ - العلامة الحلي: قال في (منهاج الصلاح) في مبحث الاستخارة - ونقله عنه العلامة النوري في المستدرك - : «السيد السند رضي الدين علي بن موسى بن طاووس وكان أعبد من رأيناه من أهل زمانه»(٢).

٣ - الحر العاملي قائلاً: «حاله في العلم والفضل والزهد والعبادة والثقة والفقه والجلالة والورع أشهر من أن يذكر، وكان أيضاً شاعراً أديباً منشئاً بليغاً»(٣).

٤ - التفريشي في نقد الرجال قائلاً: «من أجلاّء هذه الطائفة وثقاتها، جليل القدر، عظيم المنزلة، كثير الحفظ، نقي الكلام، حاله في العبادة والزهد أشهر من أن يذكر، له كتب حسنة»(٤).

٥ - العلامة المجلسي قائلاً: «السيد النقيب، الثقة الزاهد، جمال العارفين»(٥).

---

(١) بحار الأنوار: ج١٠٧، ص٤٥؛ الكنى والألقاب: ج١، ص٣٢٨.
(٢) عمدة الطالب: ص١٩٠.
(٣) مستدر الوسائل: ج٣، ص٤٦٩.
(٤) أمل الآمل: ج٢، ص٢٠٥.
(٥) نقد الرجال: ص٢٤٤.

٦ - أسد الله الدزفولي قائلاً: «السيد السند، المعظّم المعتمد، العالم، العابد، الزاهد، الطيب الطاهر، مالك أزمة المناقب والمفاخر، صاحب الدعوات والمقامات، والمكاشفات والكرامات، مظهر الفيض السني، واللطف الجلي، أبي القاسم رضي الدين»[١].

٧ - الشيخ النوري قائلاً: «السيد الأصل الأكمل الأسعد الأورع الأزهد، صاحب الكرامات الباهرة رضي الدين أبو القاسم وأبو الحسن علي بن سعد الدين موسى بن جعفر آل طاووس، الذي ما اتفقت كلمة الأصحاب على اختلاف مشاربهم وطريقتهم على صدور الكرامات عن أحد ممن تقدمه أو تأخر عنه غيره»[٢].

٨ - الشيخ عباس القمي في الكنى والألقاب قائلاً: «السيد الأجل الأورع الأزهد، قدوة العارفين. كان رحمه الله مجمع الكمالات السامية، حتى الشعر والأدب والإنشاء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[٣].

٩ - عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين قائلاً: «فقيه، محدّث، مؤرخ، أديب، مشارك في بعض العلوم»[٤].

مؤلفاته

من الصعب جداً الاحاطة بكل مؤلفات السيد ابن طاووس - وإن كان رحمه الله كثيراً ما يذكر اسماء مؤلفاته في أغلب كتبه - لأنّه رحمه الله

---

(١) بحار الأنوار: ج١، ص١١٣.
(٢) مقابس الأنوار: ص١٢.
(٣) مستدرك الوسائل: ج٣، ص٣٦٧.
(٤) الكنى والألقاب: ج١، ص٣٢٧.

صرّح بنفسه أن هناك مختصرات ورسائل لا تخطر بباله عند ذكره لمصنفاته في كتاب الاجازات، حيث قال:

«وجمعت، وصنفت مختصرات كثيرة ما هي الآن على خاطري، وإنشاءات من المكاتبات والرسائل والخطب ما لو جمعته أو جمعه غيري كان عدة مجلدات، ومذاكرات في المجالس في جواب المسائل بجوابات وإشارات وبمواعظ شافيات ما لو صنّفها سامعوها كانت ما يعلمه الله جل جلاله من مجلدات»[1].

ومن تلك المؤلفات:

١ - الإبانة في معرفة أسماء كتب الخزانة.

٢ - الإجازات لكشف طرق المفازات فيما يخصني من الإجازات.

٣ - الأسرار المودعة في ساعات الليل والنهار.

٤ - أسرار الصلاة.

٥ - الاصطفاء في تأريخ الملوك والخلفاء.

٦ - إغاثة الداعي وإعانة الساعي.

٧ - الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرة في السنة.

٨ - الأمان من أخطار الأسفار والأزمان.

٩ - الأنوار الباهرة.

١٠ - البهجة لثمرة المهجة.

---

(١) معجم المؤلفين: ج٧، ص٢٤٨.

١١ - التحصيل إلى التذييل.

١٢ - التحصين في أسرار ما زاد على كتاب اليقين.

١٣ - التراجم فيما نذكره عن الحاكم.

١٤ - التعريف للمولد الشريف.

١٥ - التمام لمهام شهر الصيام.

١٦ - التوفيق للوفاء بعد التعريف في دار الفناء.

١٧ - جمال الاسبوع بكماله العمل المشروع.

١٨ - الدروع الواقية من الأخطار.

١٩ - ربيع الألباب.

٢٠ - روح الأسرار.

٢١ - ري الضمآن من مروي محمد بن عبد الله بن سليمان.

٢٢ - زهرة الربيع في أدعية الأسابيع.

٢٣ - السعادات بالعبادات.

٢٤ - سعد السعود.

٢٥ - شفاء العقول من داء الفضول.

٢٦ - الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف.

٢٧ - طرف من الأنباء والمناقب.

٢٨ - غياث سلطان الورى لسكان الثرى.

٢٩ - فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين رب الأرباب.

٣٠ - فتح الجواب الباهر.

٣١ - فرج المهموم في معرفة الحلال والحرام من علم النجوم.

٣٢ - فرحة الناظر وبهجة الخواطر.

٣٣- فلاح السائل ونجاح المسائل.

٣٤ - القبس الواضح من كتاب الجليس الصالح.

٣٥ - الكرامات.

٣٦ - كشف المحجة لثمرة المهجة.

٣٧ - لباب المسرّة من كتاب مزار ابن أبي قرة.

٣٨ - المجتنى.

٣٩ - محاسبة النفس.

٤٠ - المختار من أخبار أبي عمرو الزاهد.

٤١ - مسلك المحتاج إلى مناسك الحاج.

٤٢ - مصباح الزائر وجناح المسافر.

٤٣ - مضمار السيف في ميدان الصدق.

٤٤ - الملاحم والفتن.

٤٥ - الملهوف على قتلى الطفوف.

٤٦ - المنتقى.

٤٧ - مهج الدعوات ومنهج العنايات.

٤٨ - المواسعة والمضايقة.

٤٩ - اليقين باختصاص مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام بإمرة المؤمنين.

وفاته ومدفنه

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في بغداد يوم الاثنين خامس ذي القعدة سنة ٦٦٤هـ.

إلا أن الاختلاف وقع في مكان دفنه:

فالشيخ يوسف البحراني في لؤلؤة البحرين يذهب إلى أن قبره غير معروف الآن[١].

والمحدّث النوري في المستدرك يقول: «إنّ في الحلة في خارج المدينة قبة عالية في بستان نسب إليه ويزار قبره ويتبرك فيها، ولا يخفى بُعده لو كان الوفاة ببغداد»، والله العالم[٢].

وعلّق السيد محمد صادق بحر العلوم محقق كتاب لؤلؤة البحرين قائلاً في هامش اللؤلؤة: «في الحلة اليوم مزار معروف بمقربة من بناية سجن الحلة المركزي الحالي، يعرف عند أهالي الحلة بقبر رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس، يزوره الناس ويتبركون به»[٣].

وقال أيضاً: قال سيدنا العلامة الحجة السيد حسن الصدر الكاظمي رَحِمَهُ اللَّهُ في خاتمة كتابه تحية أهل القبور بما هو مأثور ما نصه: «وأعجب من ذلك خفاء قبر السيد جمال الدين علي بن طاووس صاحب الاقبال، مات ببغداد لما كان نقيب الأشراف بها ولم يعلم قبره، والذي يعرف بالحلة بقبر السيد علي بن طاووس في

---

(١) الإجازات المطبوع في بحار الأنوار: ج١٠٧، ص٤٢.
(٢) لؤلؤة البحرين: ص٢٤١.
(٣) مستدرك الوسائل: ج٣، ص٤٧٢.

البستان هو قبر ابنه السيد علي ابن السيد علي المذكور، فإنّه يشترك معه في الاسم واللقب»[١].

وقال ابن الفوطي في الحوادث الجامعة، وفيها - أي في سنة ٦٦٤هـ - «توفي السيد النقيب الطاهر رضي الدين علي بن طاووس، وحمل إلى مشهد جده علي بن أبي طالب عليه السلام، قيل: كان عمره نحو ثلاث وسبعين سنة»[٢].

ومما يؤيّد قول ابن الفوطي ويرجّحه - إضافة إلى دقته وضبطه حيث يعتبر أفضل من أرّخ حوادث القرن السابع - أن السيد ابن طاووس عيّن في حياته موضع قبره حيث أوصى أن يدفن إلى جنب جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال في كتاب فلاح السائل: وقد كنتُ مضيت بنفسي وأشرت إلى من حفر لي قبراً كما اخترته في جوار جدي ومولاي علي بن أبي طالب عليه السلام، متضيفاً ومستجيراً ووافداً وسائلاً وآملاً، متوسلاً بكل ما يتوسل به أحد من الخلائق إليه، وجعلته تحت قدمي والدي رضوان الله عليهما؛ لأني وجدت الله جل جلاله يأمرني بخفض الجناح لهما ويوصيني بالإحسان إليهما، فأردت أن يكون رأسي مهما بقيت في القبور تحت قدميهما»[٣].

---

(١) هامش لؤلؤة البحرين: ص٢٤١.
(٢) هامش لؤلؤة البحرين: ص٢٤٢.
(٣) الحوادث الجامعة: ص٣٥٦.

السيد ابن طاووس ومنهجه في المعرفة والسلوك(١)

المدخل

يتألق - في سماء العرفان والولاية الإلهية الحقّة - اسم السيد «علي بن طاووس» محاطاً بهالةٍ ربانية قدسية، رفعته إلى أعالي مراتب العالم القدسي التالية لمراتب المعصومين عليهم السلام، وجعلته متميزاً عن سائر نجوم هذه السماء العالية - وكثير منها أولياءٌ عظام - حتى حدت ببعض أساطين العلم والعمل الإلهي إلى التصريح بأنه «ما جاء مثله في علم المراقبة في الأمة من طبقة الرعية»، أي من غير المعصومين عليهم السلام، والإجماع قائمٌ بينهم على سمو مرتبته.

وحيث إن العلم والعمل أو المعرفة والسلوك هما جناحا: الوصول إلى هذه المراتب الكمالية الشامخة، لذا فإنّ من الضروري لطلابها التعرف على خصوصيات المنهج المعرفي والسلوكي لهذا العارف الرباني الجليل، وضرورة ذلك تنبع من عدة عوامل نرى أن أهمّها أربعة:

---

(١) هذا الموضوع منقول من مجلة الفكر الاسلامي للعالم «عرفان محمود».

الأول: سمو مقام السيد نفسه العلمي والعملي، فهو يثبت نجاح وصواب المنهج الذي التزم عراه في العلم والعمل.

الثاني: الإجماع القائم بين العلماء على سمو مقام السيد، وصواب منهجه المعرفي والسلوكي.

الثالث: قوة ظهور تعبير هذا المنهج في التمسك بالثقلين - القرآن والعترة - الأمر الذي يجعله نموذجاً نقياً للمدرس المعرفية والسلوكية الشرعية والإمامية الأصيلة.

الرابع: شدة تأثير منهج السيد على المدارس العرفانية والسلوكية الإمامية التي أعقبته. وسنفصل الحديث عن هذه العوامل في طيات هذا البحث.

في القسم الأول من البحث نركز الحديث عن شخصية السيد نفسه، فيما نخصص القسمين الآخرين للحديث عن العوامل الأخرى المشار إليها، ثم خصوصيات منهجه المعرفي ثم السلوكي بإذن الله.

شخصية السيد ابن طاووس:

هو السيد الشريف رضي الدين أبو القاسم علي بن سعد الدين موسى بن جعفر بن محمد ابن أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي عبد الله محمد بن محمد بن الطاووس، وينتهي نسبه الشريف إلى الحسن المثنى بن الإمام الحسن المجتبى بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو حسني علوي ينتمي من جهة الأب إلى أسرة آل طاووس العلمائية التي تضم كوكبة من خيرة علماء الأمة.

ويفهم من تراث السيد أنه تأثر كثيراً في سلوكه العلمي والعملي

بالشيخ الزاهد «ورامّ بن أبي فراس»، وهو جد السيد من جهة والدته، ويلاحظ في حديث السيد عنه أنه كان يعتبره أكبر من مجرد أستاذ يستفيض من علمه، بل إضافة لذلك كان يعتبره مربياً أيضاً، وهو يصفه قائلاً: «كان جدي ورام بن أبي فراس ممن يقتدى بفعله».

ويقول عنه أيضاً: «وكان جدي ورام بن أبي فراس - قدس الله روحه - من أورع من رأيناه عارفاً بأصول الدين، وأصول الفقه، وتاركاً ما تقتضيه الرياسة الدنيوية بالكلية».

والوصف الثاني يعبّر في الوقت نفسه عن الجوانب التي تأثر بها السيد من شخصية الشيخ الزاهد وجسدها عملياً في سيرته، وقد نقل السيد في مؤلفاته وصايا عديدة من جده له - كما سنلاحظ لاحقاً - بل وهو يصرح باتباعه نهج جده ووالده: «أول ما نشأت بين جدي ورام ووالدي - قدس الله أرواحهم - وكانوا دعاة إلى الله جل جلاله، وطالبين له جل جلاله فألهمني الله جل جلاله سلوك سبيلهم واتباع دليلهم».

كما أنه تأثر كثيراً بالعالم الموسوعي وفقيه الأمة الشيخ «محمد بن الحسن الطوسي»، وللسيد طرق متعددة إليه ويكثر النقل عنه في مؤلفاته في مختلف أبواب المعارف الإلهية، وقد دارت دراسة الفقهية حول كتب الشيخ الطوسي - كما سنشير إلى ذلك لاحقاً - يقول السيد وهو يوصي ولده محمداً بأن: «إذا أردت الاشتغال بالفقه فعليك بكتب جدك أبي جعفر الطوسي، فإنه رَحِمَهُ اللَّهُ ما قصّر فيما هداه الله جل جلاله ودله عليه».

شكر نعمة الانتساب للصالحين:

ثمة قضية بارزة في شخصية السيد ابن طاووس، نرى من الضروري تسليط بعض الأضواء عليها لشدة تأثيرها في معرفة أبعاد شخصيته والمقامات السامية التي وصلها، وكذلك للعبرة التي تشتمل عليها في تبيان رؤية إسلامية نقية لموضوع تأثير الانتساب العائلي في صياغة شخصية الإنسان، بخاصة وأن الآراء بشأن هذه الموضوع قد تشعبت كثيراً بين الاثبات المطلق والنفي المطلق والإفراط والتفريط؛ كما أن من غير الممكن إغفال هذه القضية مع شدة ظهورها في تراث السيد.

فالملاحظ فيه أنه يفتخر بنسبه الكريم وانتمائه إلى الأصول المحمدية والعلوية والفروع العلمائية الجليلة، وبالتحديد الشيخ ورّام والشيخ الطوسي، ولكن افتخاره بالأنساب الرفيعة ليس ناتجاً من الغفلة عن أن التقوى هي معيار التفاضل والتكريم.

وليس «من باب التزكية لنفس الإنسان التي منع بها ظاهر القرآن».

بل من باب أن «سلامة الأعقاب من الطعن والبلوى من أفضل نعم الله جل جلاله التي أمر جل جلاله بالاعتراف بقدرها، وحثّ في القرآن الشريف على الحديث بها ونشرها».

إذن افتخار السيد بنسبه الكريم تعبير عن معرفته بعظمة نعمة طهارة الأعراق، ولأنه كذلك فهو عامل دافع لشكر هذه النعمة من خلال حفظ كرامة الانتساب لهؤلاء العظام، بالإقتداء بهم في

كمالاتهم العلمية والعملية، واجتناب كل ما يشين ويخدش كمال هذا الانتساب.

فالسيد الذي نراه يذكّر ولده السيد محمداً بنعمة الانتساب لهذا السلف الطاهر يحذّره - في الوقت نفسه - من مخالفة منهجهم فيقول:

«ولا تؤثرنَّ على الله - جل جلاله - مولاك ومالك دنياك وآخرتك سواه؛ ولا تقبّح ذكر سلفك الطاهرين بمخالفة رضاه جل جلاله ، ولا تساعد على هدم ما بنوه لك من الشرف لك في الدنيا والدين، ولا تجعلهم يوم القيامة خصوماً ومعرضين عنك ونافرين منك».

ويدعوه إلى الاقتداء: «فاقتد يا ولدي محمد وجماعة اخوتك أو ذريتك بمن سلك من آبائك سبيل الحق والصدق»، «وجمّل ذكري لحفظك جانب الله جل جلاله وسلوك سبيل سلفك الطاهرين، فإنه من صفات المسعودين إذا وجدوا آباءهم وقد بنوا لهم مجداً لا يسعوا في نقضه، بل تكون همتهم الاجتهاد في مراعاته وحفظه، وأن يزيدوا على ذلك المجد بغاية الجهد».

وقد التزم السيد ابن طاووس بنفسه بهذه الوصايا وبدقةٍ بالغةٍ، وعلى أساس فهم عمق التزامه، بها نعرف شيئاً إجمالياً عن المقامات السامية التي بلغها باتباع سلفه الطاهرين والسير على خطاهم، فكانت شخصيته الإلهية نموذجاً مصغراً لكمالات المعصومين منهم عليهم السلام، يعرّف العالمين بنبراسٍ من شموس أنوارهم الساطعة ومقاماتهم التي لا يرقى إليها أحد، وكان نموذجاً كاملاً بل ويمتاز بخصائص فائقة عن غير طبقة المعصومين من أولياء الله العظام - رضوان الله عليهم أجمعين - كما سنتعرف على شيء من ذلك لاحقاً.

علو الهمة والطموح المعنوي:

وإلى جانب هذا الدافع توفر في الروح الطاهرة لهذا السيد العلوي الجليل عامل آخر، ساهم بدرجةٍ كبيرةٍ في بلوغه مقامات الكمال الإنساني الرفيعة هو: علو همته ورسوخ عزمه على بلوغ المراتب العالية، وعدم الاقتناع بالدرجات الدانية من الكمال، وقد تحلى هو بهذه الروح السامية، وهو يوصي بها ولده قائلاً:

«... وأن تتعلّم الفقه الذي فيه السبيل إلى معرفة الأحكام الشرعية، وإحياء سنّة جدك المحمدية، ويكون قصدك في ذلك امتثال أمر الله - جل جلاله - في التعليم وسلوك الصراط المستقيم، ولا تكن مقلداً لغلمان جدك من العلوم، وذليلاً بين أيديهم لأجل الفتوى والاستفهام، فما يقنع بالدون إلا مغبون. واعلم أن جدّك وراماً - قدس الله روحه - كان يقول لي وأنا صبي ما معناه: يا ولدي مهما دخلت فيه من الأعمال المتعلقة بمصلحتك، لا تقنع أن تكون فيه بالدون دون أحد من أهل ذلك الحال، سواء كان علماً أو عملاً، ولا تقنع بالدون»

ويقول في مقدمة كتابه «فلاح السائل»: «... ثم وقفت بعد ذلك على تتمات ومهمات، فيها مراد من يحب لنفسه بلوغ غايات، ولا يقنع بالدون ولا يرضى بصفقة المغبون».

لقد وجدت وصية الجد الصالح «ورام بن أبي فراس» وعاءً مستعداً في هذا السيد العلوي ذي الهمة العالية، والمتفجر طموحاً مقدساً للوصول إلى أسمى معارج الكمال، يستسهل جميع إشكال

مشاق مجاهدة عقباته، ويدحر قطاع طريقه من الشياطين وجنودهم، والأهواء النفسية وحبائلها، ويجعل الذي يراه الآخرون محالاً واقعاً عملياً، جسده السيد في حصوله على الكمالات العلمية والعملية المنشودة كما يشير إلى ذلك السيد نفسه - وهو الثقة الصدوق المجمع على نزاهته وصدقه - يقول - قده_ مخاطباً ولده:

«واعلم أن جوارحك بضائع معك لله جل جلاله ، وأمانات جعلك تاجراً فيها لنفسك وآخرتك، فمتى صرفتها في غير ما خُلقت له من الطاعات والمراقبات، أو انفقت وقتاً من أوقاتك في الغفلات كان ذلك الخسران عائداً إليك بالنقصان، ومثمراً أن يعاملك سيدك بالهجران واستخفاف الهوان، ولا تقل أو تسمع من الجاهلين أو الغافلين، أن هذا ما يُقدر عليه، فأنهم قالوا لنا مثل ذلك، وعرّفنا بالله جل جلاله أنهم غالطون فيما أشاروا عليه. . .».

فالسيد ابن طاووس أثبت عملياً ومن خلال تجربته الذاتية أن الاقتداء بالأنبياء والأولياء أمرٌ ممكنٌ وأبوابه مشرعة أمام الجميع، وسبل الراغبين إلى الله شارعة، وغاية الأمر أن سلوكها يحتاج إلى الهمة العالية والعزم الراسخ.

يقول - قده - موصياً ولده: «وتأدب بما أدب الله جل جلاله من كان قبلك من الأنبياء والأوصياء والأولياء، وبما قوي به من كان دونك من الضعفاء حتى جعله بفضله من الأولياء، وجمع له بين سعادة دار الفناء ودار البقاء، فالسابق والمسبوق من أصل واحد، ولكن السابق ذا همةٍ عاليةٍ، فلم يقنع بدون السعادة الفانية والباقية، وكان المسبوق ذا همةٍ واهيةٍ فقنع بالحالة الواهية».

الكمالات العلمية والعملية:

بهذه الروح الطموحة والواثقة بإمكانية سلوك طريق الأنبياء والأولياء عليهم السلام وبهذه الهمة العالية في الجانب المعنوي، وبالمواظبة على صالحات الأعمال، والإخلاص في التوجه لله، تبارك وتعالى، وبعوامل أخرى - سنتعرف عليها لاحقاً - بإذن الله بلغ السيد ابن طاووس تلك المقامات الجليلة وتحلى بتلك الكمالات السامية، التي شهدت بها ناطقة سيرته العملية ومؤلفاته العلمية وإضاءاته المعرفية، إضافة إلى شهادات كل من ترجم له من القدماء والمتأخرين؛ لنتعرف على لمحةٍ من هذه الكمالات والمقامات السامية بجناحيها العلمي والعملي.

المنزلة العلمية:

أُوتي السيد ابن طاووس - قده - الحظ الوافر من العلوم والمعارف الإلهية بكلا قسميها: الكسبي المتعارف، والإلهامي الخاص، الذي يمثل الحكمة الإلهية الخاصة، التي من فاز بها فقد فاز بالخير الكثير والحقيقي.

لقد شد تجلي الفضائل المعنوية، وشدة التعبد والزهد والتقى، والكمالات الأخلاقية والروحية في شخصية السيد أنظار كل من طالع سيرة حياته، وغطى على كمالاته العلمية، إلى درجة ما بحكم شدة تأثيره في النفوس، وقلة الواصلين إلى مثل هذه المراتب العالية من الفضائل المعنوية والسمو الروحي.

كما أن نمط المعارف الإلهية الخاصة والإلهامية، التي فتح بها

الله - تبارك وتعالى - على السيد ابن طاووس استحوذ على اهتمام الدارسين لسيرته العلمية ومصنفاته، بحكم قلة وجود أمثال هذه النمط من المعارف والإشراقات الخاصة في مصنفات غيره من العلماء، وهذا الأمر بدوره شكّل عاملاً آخر مهماً في التغطية على مقاماته الشامخة في العلوم الشرعية المتعارفة، يُضاف إلى ذلك أعراض السيد نفسه عن التصنيف في هذه العلوم لدوافع عديدة منها: تحرّجه عن الفتيا في المجال الفقهي، وعدم إحساسه بالحاجة لذلك في ظل وجود كثرة المصنفات التي دوّنها علماء الطائفة المتقدمون في هذه الأبواب، حيث أغنته عن ذلك.

وهو الذي كان دأبه عدم القيام بأي مشروع علمي بدافع علمي مجرد، بل بعد الشعور بالحاجة إليه، وبعد استشارة الله - تبارك وتعالى - في ذلك.

ومنها كثرة إقباله على المراقبات والعبادات والمناجاة لله عزّوجلّ، أو تقديمه لها على غيرها.

ومنها إهتمامه بالآثار العملية والتربوية لما يكتب، وإعراضه عن البحوث النظرية، وهذا الأمر مشهود في جميع مصنفاته.

ولكن رغم كل ذلك فإن الكمالات العلمية - حتى في العلوم المتعارفة - تجلت واضحة بين طيات مؤلفاته ومواعظه ومناقشاته ومناظراته - كما يتضح لكل دارس لسيرته - فهو من كبار علماء الطائفة والمسلمين ومحققيهم حتى في في هذا القسم من العلوم.

فقه السيد

والسيد ابن طاووس فقيه، أمام تقدم على الفقهاء الفحول على الرغم من كثرتهم في عصره، وعلى الرغم من قل تآليفه الفقهية.

يقول الشيخ محمد حسن آل ياسين في بحثه عن السيد ابن طاووس: «كان رضي الدين على جانبٍ كبيرٍ من العلم والفضل والمعرف، كما تشهد به مؤلفاته وآثاره وأقوال المؤرخين والرجاليين الذين ترجموا له وذكروه، حتى آل الأمر ببعض أعلام عصره إلى طلب التصدي منه للفتيا والقضاء الشرعي، اعتماداً على فقهه العميق وورعه الذي لا يتسرب إليه الشك...».

ومعلومة هي دلالة الطلب من شخص معين التصدي للفتيا، وبخاصة مع ملاحظة عدم انشغاله بالتصنيف الفقهي وبتدريس هذا العلم، فمثل هذا الطلب يعني: أن الطالبين توسموا فيه متانةً في ثروته الفقهية، وقدرةً على استنباط الأحكام الشرعية، تمكنه من القيام بأعباء هذه المهمة رغم انصرافه عن التأليف في بابها ومع ورعه الشديد واحتياطاته المتشددة.

وتزداد دلالة هذا الطلب وضوحاً في تبيان شموخ المقام الفقهي للسيد عندما نلاحظ هوية الطالب، فهو - كما يصرح السيد - أحد

شيوخه: «وأراد بعض شيوخي أنني أدرس وأعلم الناس وأفتهم، وأسلك سبيل الرؤساء المتقدمين فوجدت الله جل جلاله يقول في القرآن الشريف لجدك محمد ﷺ صاحب المقام المنيف: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾[الحاقة: ٤٤ - ٤٧]، أفرأيت أن هذا تهديد من رب العالمين (للأعز) عليه من الأولين والآخرين أن يقول عليه بعض الأقاويل، فكرهت وخفتُ من الدخول في الفتوى حذراً من أن يكون فيها تقوّل وطلب رئاسة، لا أريدُ بها التقرب، فأعتزلتُ عن أوائل هذا الحال قبل التلبس بما فيها من الأحوال، واشتغلت بما دلني عليه العلم من العمل الصالح... ثم اجتمع عندي من أشار إلى أن أكون حاكماً بين المختلفين على الفقهاء والعلماء من السلف الماضين ومصلحاً لأمور المتحاكمين...».

ومعلوم أن الشيخ أو الأستاذ أعرفُ من غيره بقدرات وكفاءات تلميذه، وعندما يكون مثل هذا الطلب صادراً منه فأن دلالته تكون أقوى في اثبات كفاءة التلميذ وسمو مقامه، وبخاصة مع ملاحظة الإشارة الواردة في النص إلى كون هذا الطلب جاء في أوائل عمره، وهذه الكفاءة استمرت بها وتقوت بعد ذلك أيضاً، كما يفهم مما يصرح به السيد نفسه من طلب الخليفة العباسي المستنصر منه أن يتصدى لمقام الفتوى، وإصراره في هذا الطلب مدة مديدة رغم مخالفة السيد:

«فقواني الله جل جلاله على مخالفتهم والتهوين بنفسي وما أملكه في طلب رضاء الله جل جلاله، بالامتناع منهم والإعراض عنهم،

وجرت عقيب ذلك أهوال من السعايات، فكفاني الله جل جلاله بفضله وزادني من العنايات».

الفقيه الإمام والمقدم:

وثمة حادثة تأريخية مهمة ذات دلالات بالغة في تبيان شموخ المقام الفقهي للسيد وشجاعته العلمية، وإقرار علماء عصره بتقديمه في هذا المجال، فبعد أن تم احتلال بغداد أمر «هولاكو»: «أن يستفتى العلماء: أيما أفضل السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر؟ ثم جمع العلماء بالمستنصرية لذلك، فلما وقفوا على الفتيا أحجموا عن الجواب، وكان رضي الدين علي بن طاووس حاضراً هذا المجلس وكان مقدماً محترماً، فلما رأى إحجامهم تناول الفتيا ووضع خطه فيها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر، فوضع الناس خطوطم بعده».

وشاهدنا الأهم في هذه الحادثة هو تأييد الآخرين من الفقهاء الحاضرين في المجلس لفتوى «السيد» رغم خطورة موردها وأهميتها، ومبادرتهم لذلك اتباعاً له بعد احجامهم الكامل عن الإفتاء بشأن هذا المورد، ومثل هذا التأييد لا يمكن تصوره - في ظل خطورة موضوع هذه المسألة الفقهية المستحدثة - إلا في ظل القول بإجماعهم على أعلى درجات الثقة بفقه السيد ومقامه الشامخ في هذا الباب؛ لذا فلا غرو أن يقول السيد عن تصنيفه الوحيد في الفقه:

«ومما صنفته كتاب غياث سلطان الورى لسكان الثرى، في قضاء ما فات من الصلوات عن الأموات بلغت فيه غايات، وذكرت فيه ما

لم أعرف أن أحداً سبقني إلى أمثاله من الروايات والتنبيهات».

ويغنينا في التعرف على سمو المقام الفقهي للسيد، ونبوغه المبكر في هذا العلم المهم نقل هذه المقاطع مما كتبه لولده عن سيرته الذاتية للاعتبار بما فيها، مقدمين الإشارة إلى أنه اكتفى فيها بما تقتضيه شفقته على ولده، وعلى من يصله ما كتبه بهذا الخصوص من تضييع العمر فيما لا طائل منه، وتقديم تجربته للانتفاع منها ولذلك نراه رَحِمَهُ اللَّهُ يعرض عن كل ما يخرج عن هذا الهدف، ويدخل في باب الثناء على الذات وتزكية النفس.

يقول: «وإني لأعلم أنني اشتغلت فيه (علم الفقه) مدة سنتين ونصف على التقريب والتقدير، وما بقيت احتاج إلى ما في أيدي الناس لا قليل ولا كثير، وكلما اشتغلت بعد ذلك فيه ما كان لي حاجة إليه إلا لحسن الصحبة والإنس والتفريع فيما لا ضرورة إليه. ومن يعلم أن عمره يسير وقصير وأن وراءه من يحاسبه على الكبير والصغير والظاهر والمستور فإنه يكفيه من الزاد بقدر السفر والمسير...

وقد تقدم شرح الحال في الا شتغال بهذا العلم المذكور، وأنا أُريد في وصف الاشتغال بما يسهل عليك طلب هذه الأمور، فإنني اشتغلت بعلم الفقه وقد سبقني جماعة إلى تعليمه بعدة سنين، فحفظت في نحو سنة ما كان عندهم، وفضلت عليهم بعد ذلك بعناية رب العالمين ورحمته...

وقد كنت قد ابتدأت بحفظ «الجمل والعقود» وقصدت معرفة ما فيه بغاية المجهود، وكانوا الذين سبقوني ما لأحدهم إلا الكتاب

الذي يشتغل فيه، وكان لي عدة كتب في الفقه من كتب جدي ورام...

فصرت أُطالع بالليل كل شيء يقرأ فيه الجماعة الذين تقدّموني بالسنين، وانظر كلما قاله مصنفٌ عندي، وأعرف ما بينهم من الخلاف على عادة المصنفين، وإذا حضرت مع التلامذة بالنهار أعرف ما لا يعرفون، وأناظرهم وأنشط في القراءة بسرور الاستظهار...

وفرغت من «الجمل والعقود» وقرأتُ «النهاية»، فلما فرغت من الجزء الأول منها استظهرت على العلم بالفقه، حتى كتب شيخي محمد بن نما خطه على الجزء الأول - وهو عندي الآن - بما جرت عادته يكتبه على كتابي، من شهادته في إجازته بأمور من الثناء عليّ، أُنزه قلبي عنها لأنه لا يليق ذكر ثنائي على اجتهادي، بل الثناء الحق لله جل جلاله مالك دنياي ومعادي، والهادي إلى إصداري وإيرادي، والملهم لي صواب ما يفتحه من مرادي.

فقرأت الجزء الثاني من «النهاية» أيضاً ومن كتاب «المبسوط» أيضاً وقد استغنيت عن القراءة بالكلية.

وقرأت بعد ذلك كتباً لجماعة بغير شرح بل للرواية المرضية، وسمعت ما يطول ذكر تفصيله، وخط من سمعت منه وقرأت عليه في إجازات وعلى مجلدات، جملك الله يا ولدي بمعرفة قلبك هذا العلم قليله وجليله».

وقد ظهرت الثمار العملية لتبحر السيد ابن طاووس - قدس سره الشريف - في هذا العلم في نتاجاته العديدة الأخرى، التي صنفها في غير الباب الفقهي بمعناه الخاص، كاستدلاله ومناقشته لمسألة الصلاة

إذا فقد المكلف العلم باتجاه القبلة، وفقد أية وسيلة للتعرف عليه، فهو يفتي بالعمل بالقرعة الشرعية:

«ولا حاجة إلى أن يصلي إلى أربع جهات، فإننا وجدنا القرعة أصلاً شرعياً معولاً عليه في الروايات، فإن لم يحصل بها علم اليقين فلا بد أن يحصل له بها ظنٌ، وهو كافٍ في معرفة القبلة...» كما يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب الأمان، ثم يفصل الحديث عن ذلك مناقشاً أدلة المفتين بالصلاة إلى أربع جهات، ويعرض أدلته الروائية على العمل بالقرعة، ويشير إلى الإجماع عليها من طريق الخاصة والعامة، ثم تطبيقها على المسألة المذكورة. والأمثلة الأخرى كثيرة يمكن للمتأمل في مصنفات السيد في أبواب الدعاء والعبادات وغيرها اكتشافها.

براعته في علوم الحديث

إنّ السيد عالم متبحر في علوم الرجال والجرح والتعديل كما يتضح من مختلف مصنفاته، كمناقشته - مثلاً - لآراء الطعن الواردة في بعض رواة الحديث، والتي يوردها في مقدمة كتابه «فلاح السائل»، ومما يدل على تبحره في هذه العلوم، ودقته في تقويم حال الرواة وتوثيقهم اعتماد العلماء عليه في توثيق الكتاب والاعتماد على الكتب، وتصحيح نسبتها حتى لو اشتملت على المراسيل استناداً إلى اعتماد السيد عليها، فمثلاً يقول العلامة المجلسي في مقدمة بحار الأنوار: «... وكتاب الاحتجاج وأن كانت أكثر أخباره مراسيل لكنها من الكتب المعروفة المتداولة، وقد أثنى السيد ابن طاووس على الكتاب وعلى مؤلفه وقد أخذ عنه أكثر المتأخرين»، ويقول في مكانٍ آخر: «وكتاب صحيفة الرضا عليه السلام المشهورة بين الخاصة والعامة وروى السيد الجليل علي بن طاووس منها بسنده إلى الشيخ الطبرسي رحمه الله»، ويقول أيضاً: «... والكتاب العتيق كله في الأدعية وهو مشتمل على أدعية كاملة بليغة غريبة، يشرق من كل منها نور الاعجاز والإفهام، وكل فقرة من فقراتها شاهد عدل على صدورها عن أئمة الأنام، وأُمراء الكلام وقد نقل منه السيد ابن طاووس رحمه الله في المهج وغيهر كثيراً...»، ويقول رحمه الله أيضاً:

«والكتب الأربعة لجعفر بن محمد... ومؤلفها غير مذكور في كتب الرجال... والسيد ابن طاووس يروي عن كتبه في كتاب الإقبال وغيره، وهذا مما يؤيد الوثوق عليها»، «وكتاب دلائل الإمامة... أخذ منه جل من تأخر عنه كالسيد ابن طاووس وغيره...».

وثمة موارد أخرى اكتفى العلامة المجلسي رَحِمَهُ اللَّهُ لتوثيق المصدر المراد بذكر اعتماد السيد ابن طاووس عليه وحده، وإذ شارك غيره في اعتماد المصدر اقتصر العلامة المجلسي على ذكر السيد وحده، وفي ذلك شهادة ناطقة، ومن عالم متضلع خبير بعلوم الرجال والحديث تبين علوم مقام السيد فيها، فلا يمكن لمثل المجلسي الاقتصار - لتوثيق المصدر - باعتماد السيد وحده لو لم يكن على كامل الاطمئنان بتبحر السيد في هذه العلوم.

وقد سلك مسلك العلامة المجلسي في الاقتصار على نقل السيد ابن طاووس، لتوثيق عدة كتب مجهولة أو أحاديث مرسلة محدثون وعلماء كبار، أمثال خاتمة المحدثين العلامة «النوري» صاحب المستدرك، وخلال ذكره لمصادر كتابه وتوثيقها، يقول عند حديثه عن كتاب «فلاح السائل» ما نصه: «وجلالة قدر مؤلفه واتقانه وتثبته في كل ما ينقله أشهر - عند كل من عاصره أو تأخر (عنه) - من أن يذكر جزاه الله تعالى عن الإسلام والمسلمين خير جزاء الصالحين».

إضافة إلى شهادات هؤلاء العلماء العظام، وعملهم الناطق بالإقرار للسيد بالتبحر الكامل في هذه العلوم، فإن المتوفر من مصنفات السيد يشهد له بمثل ذلك، وبقدرته الباهرة على استنطاق المتون الشرعية والكشف عن مدلولاتها وضبط ألفاظها السليمة،

والجمع بين المتعارض منها، كما فعل في كتاب «الدروع الواقية» - مثلاً - بشأن اختلاف الأحاديث الواردة بصدد صوم الأيام الثلاثة المستحبة في كل شهر قمري، والنماذج على ذلك كثير، وهي جميعاً تكشف عمق تبحر السيد في العلوم الشرعية الأساسية التي تشكل أدوات الوصول إلى مراد النصوص الشرعية، ودقته في استخدامها.

ومما يشهد على تضلع هذا العالم الرباني في هذه العلوم وقدرته الفائقة على استخدامها بأفضل صورة هو ندرة الاعتراضات الواردة على ما نقله في مؤلفاته من نصوص رغم تفرده في الكثير منها، وعلى ضبطه لألفاظها أو استنباطاته منها، رغم أن الكثير منها غير مألوف، فقد تلقاها العلماء بالقبول بل والإقبال عليها، وبصورة يندر مثيلها تجاه غيره من علماء الإسلام رضوان الله عليهم أجمعين.

الثروة التفسيرية

وإضافةً إلى هذه العلوم الشرعية الأساسية فقد منَّ الله جل جلاله على السيد ابن طاووس بحظٍ وافرٍ من فنون العلوم الشرعية الأخرى، ففي باب تفسير القرآن يلتقي المطالع لكتاب «سعد السعود» بعالمٍ قرآني محيطٍ بجميع الأدوات العلمية اللازمة لفهم مداليل الآيات الكريمة، دقيق في استخدامها للوصول إلى المراد المكنون في ألفاظ الكلام الإلهي، وذي ذهن وقاد بل وقلب نوراني في استنباط العبر المعرفية والتربوية منها.

في كتابه هذا ذي الصبغة القرآنية نجد السيد ابن طاووس (عليه الرحمة) مربياً إلهياً في تفسير الآيات الكريمة التي يختارها، وفي العظات البالغة التي يستنبطها منها، ونجده دقيقاً في اختيار الآراء التفسيرية التي يؤيدها، وعرض الأدلة على مطابقتها للمراد من الآيات التي تتحدث عنها، كما نجده عالماً نحريراً ومنتصراً للحق في الآراء التحريفية التي يوردها بعض منتحلي التفسير، فيكشف زيفها بادلةٍ دامغة تكشف حميته الدينية المحمودة، إلى جانب كشفها سمو مقامه العلمي في هذا الفن، كرده على الجبائي في تفسير الآيات الكريمة المرتبطة بشؤون النبوة والإمامة والمباحث القرآنية المهمة، أو إثباته لعدم تحريف القرآن، وعدم اختلاف الشيعة في القراءة، أو كمناقشته

للأوجه البلاغية التي ذكرها علي بن عيسى الرماني في كتاب «النكت في إعجاز القرآن» وإتيان السيد بخير من تفسيرات الرماني البلاغية واستدلالاته الشيقة عليها، حيث يظهر تبحر السيد في العلوم البلاغية والأدبية، والنماذج الأخرى في هذا الكتاب العلمي القيّم كثيرة.

علم الكلام وأصول العقائد

كان السيد ابن طاووس مطلعاً على علم الكلام إطلاعاً عرّفه بمساوئه، ودفعه إلى التحذير من مغبة الإنغماس فيه، لأنه طريق بعيد في الإيصال إلى الله - وسنفصل الحديث عن ذلك ضمن مبحث منهجه المعرفي - قال: «واعلم يا ولدي محمد ومن يقف على هذا الكتاب أنني ما قلت هذا جهلاً بعلم الكلام وما فيه من السؤال والجواب، بل عرفت ما كنت أحتاج إلى معرفته منه، وقرأت منه كتباً ثم رأيت ما أغنى عنه، وقد ذكرت في خطبة كتاب «البهجة لثمرة المهجة» كيف اشتغلتُ فيه، وعلى من اشتغلت في معانيه وما الذي صرفني عن ضياع عمري في موافقة طالبيه...».

ويصدق ما يقوله السيد هنا مناظراته مع مجموعة من العلماء والفقهاء بشأن الكثير من أمهات المسائل الكلامية التي ينقلها في كتاب كشف المحجة، وكذلك مناقشاته الواردة على الآراء المخالفة، وبخاصة التي ينقلها في كتاب «سعد السعود».

شهادات العلماء بمقامه العلمي

وبعد هذا العرض المختصر لسمو المقام العلمي للسيد ابن طاووس في مختلف فنون العلوم الشرعية الكسبية المتعارفة من الفقه والحديث والرجال والبلاغة والأدب والكلام، ننقل مجموعة من شهادات أصحاب التراجم، تركز على هذا الجانب من كمالات السيد رضي الله عنه فقد أثنى عليه المحدث الشهير صاحب موسوعة وسائل الشيعة الحر العاملي إذ قال: «حاله في العلم والفضل والعبادة والفقه والجلالة والورع أشهر من أن يذكر وكان أيضاً شاعراً أديباً منشئاً بليغاً».

وقال السيد التفريشي في وصفه له: «من أجلاء هذه الطائفة، وثقاتها، جليل القدر، عظيم المنزلة، كثير الحفظ، نقي الكلام...»

وقال صاحب ريحانة الأدب: «من أعاظم علماء الشيعة الإمامية وفحولها، عالم جليل القدر، عظيم المنزلة، أديب شاعر، منشىء بليغ...».

وقال الشيخ عباس القمي: «... وكان رحمه الله مجمع الكمالات السامية حتى الشعر والأدب والإنشاء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

ووصفه الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي في كتاب الأربعين ضمن ذكره له، ولأخيه السيد جمال الدين أحمد بن طاووس فقال: «السيدان الأعظمان الزاهدان العابدان الفقيهان رضي الدين وجمال الدين...».

وقال عنه المحدث الكبير والعالم الموسوعي الشهير بالفيض الكاشاني: «السيد الإمام العالم العامل الفقيه الكامل...».

قال الشيخ آل ياسين: «ومن الناحية الأدبية ذكر ابن أخيه السيد عبد الكريم غياث الدين أن لعمه نظماً ونثراً».

وقال العلامة الخوانساري ضمن تعداده لفضائل السيد ابن طاووس: «ومنها كونه في فصاحة المنطق وبلاغة الكلام بحيث كثيراً ما تشتبه عبارات دعواته الملهمة وزياراته الملقمة بعبارات أهل بيت العصمة عليهم السلام».

وقال في موقع آخر عن متانة فقه السيد: «ويُستفاد من تضاعيف كتبه المذكورة ولا سيما مقدمات كتابه (الفلاح) هذا أيضاً شيءٌ كثيرٌ من مسائل الفروع وخصوصاً الطهارة والصلاة، وحكاية افتائه بالعمل بالقرعة في صورة وقوع الاشتباه في سمت القبلة أيضاً شيءٌ مشهور مع كونه مخالفاً لطريقة الجمهور، وقد يشير أيضاً إلى مشيه على طريقة الاجتهاد في الأحكام، مضافاً إلى ما وصفه مدونو مصنفاته بقدوة المجتهدين وركن الإسلام ومبيّن الحلال والحرام وأمثالها... وعليه فما نقله صاحب «اللؤلؤة» عن بعض الأصحاب من أن السيد المذكور مع كثرة مصنفاته لم يضف في الفقه تورعاً من الفتوى وخطرها لشدة ما ورد فيها منظورٌ فيه، مع أنّ الاحتياط في حق مثل

هذه القريحة القابلة والفطرة الكاملة من الجانبي ومنطوق آية: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المَائدة: ٤٤] أقوى من دلالة مفهومها كما لا يخفى...».

ومن شهادات مؤلفي التراجم المعاصرين قال عمر رضا كحالة عن السيد ابن طاووس إنه: «فقيه، محدث، مؤرخ، أديب، مشارك في بعض العلو»، ويصفه الزركلي في الأعلام بقوله: «فاضل إمامي».

قيمة تراثه العلمي:

وإضافة إلى هذه الشهادات - وأمثالها كثيرة - فإنّ مما يدل على سمو المقام العلمي للسيد ابن طاووس، شهادات هؤلاء العلماء بشأن مؤلفاته، وتلقيهم لها بالتعظيم والتجليل، ونماذج هذا النمط من الشهادات كثيرة للغاية، نقتصر على ذكر اثنين منها تجنباً للإطالة، فمثلاً:

يقول العلامة المجلسي ضمن توثيقه لمصادر موسوعة بحار الأنوار عن كتب السيد ابن طاووس، وأخيه أحمد بن موسى، «وكتب السيدين الجليلين كمؤلفيها لا تحتاج إلى البيان».

وينقل السيد الخوانساري ضمن ترجمته للسيد فوائد من كتابه «فلاح السائل» على الرغم من عدم تطرقه لمثل ذلك في تراجمه لغيره، ثم يختم ما ذكره من هذه الفوائد قائلاً: «... إلى غير ذلك من فوائد مؤلفاته التي لا تُحصى (أي الفوائد) ولا تحصر بعكس مؤلفات بعض آخر».

وقبالة هذه المنزلة العلمية السامية فلا غرابة أن نلاحظ في سيرته

كثرة تردد العلماء - من مختلف طوائف المسلمين - للتعلم والسؤال منه عن أمهات ومشكلات المسائل العلمية العقائدية وغيرها، إذ يشير إلى بعض نماذج من ذلك في كتاب كشف المحجة وإصرارهم - على الرغم من اعتزاله - على طلب الاستفادة منه.

لقد فصلنا الحديث عن المنزلة العلمية للسيد ابن طاووس في باب العلوم الشرعية المتعارفة، لقلة تسليط الأضواء عليها بسبب الإنبهار بكمالاته العملية من جهة، ولتوضيح حقيقة أن المنهج المعرفي والسلوكي الذي نجده لدى هذا السيد الجليل يستند إلى خلفية علمية قوية في الفقه والحديث والتفسير والأدب والبلاغة، وملكةٍ اجتهادية متينة تضفي على هذا المنهج أهمية مضاعفة في باب قوة تمثيله لمناهج الشريعة المحمدية - كما سنلاحظ ذلك لاحقاً - بمعنى أن هذا المنهج هو ثمرة لمنزلته العلمية، وقدرته على فهم مراد النصوص الشرعية واستنطاقها ومعرفة مدلولاتها.

المقامات العملية

ربما كان من الصعب الإحاطة بالكمالات العملية والفضائل الروحية لهذا السيد العلوي الجليل، فهو الموصوف بأنه «الأقرب بكمالات المعصومين من أبناء الأمة المحمدية» كما أن ما خفي من كمالاته ومقاماته المعنوية وكراماته يفوق بكثير ما ظهر منها، وما ظهر منها هو الآخر كثير ليس من السهل الإحاطة به، ومحدودية مجال هذه المقالة لا تتيح لنا فرصة تسجيل كل ما تتبعناه مما ظهر من كمالاته السامية، ونقل أنوار الهداية الإلهية التي تجسدت في سيرة هذا العارف المحمدي والعبد الصالح لعشاقها، لذا نكتفي هنا بمرور سريع على أظهر هذه الكمالات العملية مستعينين بشهادات العلماء الربانيين، وما كتبه هو عن سيرته الذاتية، وهو بحد ذاته يدل على شدة نقاء هذا السيد الولي، لأن الأثر الذي يتركه على المطالع له يختلف عن نظائره مما كتبه غيره عن سيرهم الذاتية، كما نبّه لذلك أحد الباحثين المعاصرين المهتمين بالسيد ابن طاووس وآثاره حيث يقول: «يتحدث ابن طاووس عن نفسه وعن أعماله غير قليل، وكذلك تتلقى حديثه الشخصي بالأنس والرضى، وتدرك أنه - بهذا الحديث - قد منحك «شيئاً» جديداً، ووفر لك فرصة أخرى للتعرف والتطهر، لا تمله حين يحكي عن نفسه ولا تستثقله؛ وهذه حالة من النوادر

فيمن يتكلمون عن أنفسهم من المؤلفين والكتاب، وهي علامة على ما في باطن السيد ابن طاووس رضي الله عنه من شفافية ومن سمو وعلو؛ ينقلك في مثل هذه الحالات من «الشخصي» إلى «المبدئي»، ويرحل بك من «الجزئي» إلى «الكلي»؛ لأنه - إلى جوار تواضعه في التعبير - يبادر إلى تذكيرك أن ما به من نعمة فمن الله، وأنه ما هو إلا مستمد من فيوضات الله سبحانه، ومغترف من بحار كرم الواهب الودود. إن ما يتحدث به في هذا العالم المتبصر عن حياته إنما هو مبصِّر لقارئه، ودالٌ على مسلك التزكية والتنقية والتطهير...»[1].

وإضافة إلى الملاحظة السابقة، فإن ما يذكره السيد من سيرته الذاتية هو المقدار الذي يراه ضرورياً لإنقاذ مخاطبه من الوقوع في مطباتٍ متلفة لعمره مبعدة له عن ربه، وإثبات حقيقة معينة يصعب تصديقها - لأن السائد في الأجواء العامة يناقضها مثلاً - من خلال الإشارة إلى ما عاشه هو كتجربة عملية، كما يشير لذلك هو في وصيته لولده في «كشف المحجة»، ولذلك نجده يقتصر في الكثير من أحاديثه عن سيرته على إشارات قصيرة، ويحجم عن التفصيلات أو الموارد التي تتضمن ثناءً مباشراً عليه، وهو في كل ذلك ينسب كل توفيق لله تبارك وتعالى.

وقبل أن نشرع في الإشارة إلى بعض كمالات السيد المعنوية والروحية نشير إلى أن منها ما سيظهر لنا بصورة أجلى لاحقاً، خلال الحديث عن منهجه المعرفي ومدرسته السلوكية إن شاء الله.

---

(١) مجلة المنطلق عدد ٥١ مقالة للاستاذ خيرالله علي.

شمولي آثار الإيمان:

يلتقي المطالع لسيرة ابن طاووس، ومؤلفاته وتعليقاته، ومواعظه بالإيمان الراسخ بالله - تبارك وتعالى - متجلياً بأجلى صورة وفي كل حركاته وسكناته، ويجده العارف بالله المطيع له بكل وجوده، الحافظ لحرمة حضوره - عزّ اسمه - في كل لحظاته، والمتفاني في خدمته في مراقبات دقيقة يندر أن تخطر في ذهن غيره، وقد تفرد بالفعل بالكثير منها وفي ذلك شهادةٌ بالغةٌ على عمق رسوخ الإيمان بالله في أرجاء كيانه الشريف.

يقول العارف الكامل الإمام الخميني - قده - ما ترجمته: «إنَّ إيمان السيد ابن طاووس رضي الله عنه أوصله إلى مرتبة أصبح فيها يحتفل باليوم الأول لتكليفه كعيدٍ، لأن الحق تعالى أذن له بالدخول في مناجاته وأضفى عليه خلعة التكليف، فتصور حقاً أي قلب هذا الذي يتحلى بكل هذه النورانية والصفاء؟! إذا لم يكن عمل هذا السيد الجليل حجة عليك فإنّ عمل سيد الموحدين وأولاده المعصومين حجة عليك»[1].

قوة الاقبال على العبودية:

لقد بلغ السيد ابن طاووس ذرى الإيمان، فبلغ بها تلك المقامات السامية التي أصبح فيها يتفرد بالاحتفال بيوم تكليفه ويوصي أولاده بذلك وبلغ مرتبة الإقبال على العبادة متشبهاً في ذلك بسنة المعصومين عليهم السلام الذين لا يطيق حتى التشبه بمراتبهم العبادية إلا

(١) الأربعون حديثاً ص ٤٢٩.

الصفوة من الأولياء الصالحين، الذين يجدون في مناجاة الله وعبادته لذائذ لا يعرف كنهها غيرهم:

«ولقد وجدت من السعادة والإقبال بهدايته جل جلاله وما عرفني من ملاطفته ومكاشفته ولذة مشافهته المنزهة عن كل ما لا يليق بكمال ربوبيته ما لا أقدر على وصفه بمقال».

التفاني في طاعة الله تعالى:

وفي ظل هذه المنزلة السامية من العبودية التي بلغها السيد، فإن من الطبيعي أن يكون القيام بفعل الطاعات سنته ودأبه، تطاوعه في ذلك كل ذرات وجوده.

يقول العارف الإمام الخميني (قده) ما ترجمته: «يُنقل عن حضرة العبد الصالح العارف بوظائف العبودية صاحب المقامات والكرامات علي بن طاووس انه كان يحتفل بذكرى اليوم الاول لتكليفه ويفرح بذلك ويعتبره عيداً لأن الله شرّفه بالإذن بفعل الطاعات. فهل يمكن اعتبار فعل الطاعات بالنسبة لهذه الروح اللطيفة صبراً على المكروهات الكامنة في باطن النفس؟ فأين نحن وأين هؤلاء العباد المطيعون للحق تعالى؟!»[1].

أعبد الأصحاب:

ومن عرف العارف الخميني (قده) وقوة التزامه العبادي وسعته وشموليته يعرف سمو عبادة السيد في ظل المقارنة التي يوردها الإمام

(١) الأربعون حديثاً ص ٢٦٠.

الخميني في نهاية النص المتقدم، ويدرك معنى وصف العلامة الجليل والآية الكبرى جمال الدين الحسن بن يوسف الحلي لمعاصره السيد بأنه: «السيد السند السعيد رضي الدين علي بن موسى بن طاووس، وكان أعبد من رأيناه من أهل زمانه». وكذلك قول الماحوزي في البلغة واصفاً السيد بأنه: «صاحب الكرامات والمقامات، ليس في أصحابنا أعبد منه وأورع». والمعنى نفسه تجده فيما أورده سائر من ذكره من أجلاء العلماء في كتب التراجم وغيرها، ويكفينا في المعرفة الإجمالية بسعة عبادة السيد أن ما ألّفه من الكتب العبادية إنما هو جزء من منهجه العبادي الذي كان يلتزم به، ويمكن للمطالع لها إدراك هذه الحقيقة من خلال إشارات السيد وتعليقاته على الاحاديث والأعمال العبادية التي يوردها في مصنفاته هذه، وستأتي توضيحات أخرى لهذا الجانب خلال الحديث عن منهجه السلوكي، إن شاء الله تعالى.

الإخلاص التوحيدي:

والذي يرفع من قيمة هذه العبودية ليس كثافة أعمالها العبادية - بالمعنى الخاص - وحسب، بل الأهم من ذلك هو توفر درجات الإخلاص التوحيدي فيها، وتحرر السيد بالكامل من رؤية لأي دور لذاته فيها وخلوها من جميع أشكال عبادة العبيد أو التجار كما ورد في الأحاديث الشريفة، فعبادته كانت عبادة الأحرار المخلصين:

«... وجدت المنة له جل جلاله في هدايتي بسعادتي في إخلاص العبادة لذاته من غير تعلق خاطرٍ بطلب هباته أو خوف نقماته... فكل عاقل عارف بهذه الأسباب يعبده لأنه جل جلاله

أهلاً للعبادة، وهل كان ذلك الكمال والجلال يحتاج إلى بذل رشوةٍ من ثواب أو تخويف من عقاب عند المعترفين له بحق الملكة والسيادة».

ومثل هذه العبادة السامية تكشف في واقع الأمر نقاء معرفة السيد بربه، وسمو مرتبتها التي تقرب من مراتب معرفة المعصومين بالله تبارك وتعالى.

الفناء التوحيدي عن النفس:

وهذه المرتبة السامية من معرفة السيد بربوبية الله تبارك وتعالى أوصلته إلى مقامٍ سامٍ يندر حصوله من الفناء بالله تعالى، بحيث لم يعد يرى لنفسه أيِّ وجود ويعيش بكل وجدانه حقيقة التوحيد وإن كل ما لديه هو من الله وحده.

يقول في مقدمة كتابه فلاح السائل: «وإذا وقفت على كتابنا هذا فعلك تجد فيه من الهداية إلى جلاله والدلالة على وجوب العناية بإقباله وكشف طريق التحقيق لأهل التوفيق ما يدلك على أن هذا ما هو من كسبنا واجتهادنا، بل هو ابتداء من فضل المالك الرحيم الشفيق، فإذا انتفعت بشيء من تلك الأموال والأعمال فاقتصر على الشكر لله جل جلاله وتعظيم ذلك الجلال ولا تشتغل عنه بذكري ولا شكري فيكون ذلك اشتغالاً منك بالمملوك عن المالك...».

وهكذا كان السيد في توجهه لله تبارك وتعالى وتعظيمه ومظاهر ذلك كثيرة في سيرته، يلاحظ خاتمة المحدثين الشيخ حسين النوري رَحِمَهُ اللَّهُ إحداها فيقول عن السيد: «وكان رَحِمَهُ اللَّهُ من عظماء

المعظمين لشعائر الله تعالى لا يذكر في أحد من تصانيفه الاسم المبارك إلا وأعقبه جّل جلاله».

سيد أهل المراقبة:

والذي يعظم بارئه وربه تبارك وتعالى بكل هذا الإجلال والتعظيم، فمن الطبيعي أن يكون مراقباً له ويحفظ حرمة حضوره بأدق المراقبات في جميع حركاته وسكناته، وهكذا كان حال هذا السيد الإلهي وهذه هي إحدى مقاماته، حيث كان يسعى لرضا ربه في جميع شؤونه، فلا يشغله عن ربه شيء منها، وهذا الأمر مشهود في مصنفات السيد لذوي الأبصار والقلوب عندما يتدبرون فيها.

يقول أحدهم وهو العارف الملكي التبريزي (قده): «ثم أن سيدنا قدوة أهل العلم إنما كتب في كتابه الإقبال أصول مراقبات أعمال السنة على أحسن ما يكتب، ولم يُكتب مثله في هذا المعنى، ويظهر من هذا الكتاب أنه عليه السلام أكمل في تحرير هذا الكتاب أيضاً مراقبة الله جل جلاله ، ولذا أنشأ في آخر الكتاب دعاءً ومناجاة وقال فيه: قد امتثلت مرسومك اللهم فيما اعتمدت عليه مجتهداً بك في الإخلاص فيما هديتني إليه...».

بل هو سيد أهل المراقبة الذي ما جاء مثيل له فيها في الأمة من طبقة الرعية من الأمة - أي من غير المعصومين - كما ينقل الشيخ الملكي عن أستاذة العظيم المولى الهمداني في كتاب المراقبات.

حبه لله تعالى وانقطاعه إليه:

وعندما نراجع خاتمة كتاب «الاقبال» نلتقي بنصٍ بليغ يوضح ثمرة

هذا التوجه لله تعالى والمراقبة لحفظ حرمته وتحصيل رضاه فنجده يناجي ربه منشئاً عبارات قريبة الشبه بمناجاة المعصومين عليهم السلام، فيقول:

«وأسألك أن تقبل ما عملته بما وهبتني من قوتك، وصنفته بهدايتك أفضل ما قبلته ممن شرفته بإقبالك عليه وأتحفته وعرّفته قدر المنة عليه وألهمته ما تريد منه، وترضى به عنه، وقد بعثت بهذا العمل أمام القدوم إليك، وأنا مشتاق إلى لقائك والمجيء إليك، تخلفت ستين سنة في دار الفناء ولم يشغلني عنك شيء من الأهوال...».

الشوق الطاهر لله تبارك وتعالى ولقائه ملك كل وجود هذا العبد الإلهي الصالح، وقد فجره استيلاء حب الله عزوجل على قلبه بعد أن وجد أن كل ما عداه نقصٌ وعدمٌ، ويعتبر حبه والتوجه إليه حرماناً ونقصاناً وظلماً فظيعاً لفطرة الإنسان التي خلقها بارئها لتعرفه وتعبده وتخدمه، فكل ما يشغل الإنسان عن الله عزوجل هو وثن وحجاب يجب خرقه والتخلي عنه، وبهذا الحب الإلهي المقدس وصل السيد العاشق إلى مرتبة الانقطاع إلى الله، وهي من مقامات العارفين بالله السامية حيث تؤكد الأدعية الشريفة السعي والاجتهاد في طلبها من الله تبارك وتعالى، وقد حكى السيد وصوله إلى هذا المقام الرفيع إذ يقول لولده:

«إني عزمت على الانقطاع من كل شيء يشغلني عن رب العالمين من الخلائق أجمعين، وحضرتُ مشهد جدك أمير المؤمنين عليه السلام واستخرت الله جل جلاله في ذلك استخارة على اليقين، فاقتضت الاستخارة أنني لا أترك مخالطتهم في مسكني بالكلية، فأنا أخالطهم

إذاحضروا بالله ﷻ في أوقات أرجو فيها سلامتي مع الجلالة الربانية، وإذا رأيت روحي مشغولاً بهم أدنى اشتغال تركت محادثتهم في الحال».

نقاوة زهده:

والذي يستولي عليه حب الله تبارك وتعالى فيملك قلبه بالكلية ويقطعه عن كل ما سواه جل جلاله ، من الطبيعي أن يخرج الله سبحانه من قلبه أي حب للدنيا ويبصره عيوبها ويزهده فيها، لذا فلا غرابة أن نجد هذا السيد الإلهي العاشق قد بلغ اسمى مراتب الزهد، إذا أجمع الأصحاب على تقدمه في هذا المضمار ولا تكاد تجد أحداً من الذين ترجموا حياته يغفل الحديث عن رفعة مقامه في الزهد، يقول معاصره الجليل آية الله العلامة الحلي عنه: «إن السيد رضي الدين كان أزهد أهل زمانه».

وموارد ظهور هذا المقام العالي من الزهد كثيرة تتجلى في جميع مقاطع سيرة هذا العبد الرباني الصالح، نكتفي منها بالإشارة إلى موردين:

أحدهما: إعراضه عن تسلم شيء من المناصب والرئاسات والزعامات الدنيوية حتى ذات الظاهر الديني ورغم إصرار الطالبين منه على ذلك وطول ترددهم عليه، فمثلاً التزم بعدم قبول نقابة الطالبيين رغم الحاح الخليفة العباسي المستنصر وغيره عليه، ولمدة طويلة، وظل على هذا الموقف إلى حين سقوط الخلافة العباسية واحتلال المغول لبغداد، قَبِلَ بعدها تولي النقابة عندما رأى أن المصلحة

الإسلامية تقتضي ذلك وبقي فيها الأعوام الثلاثة الأخيرة من عمره «يعمل فيها بالهدى ويشير بالتقى وترك الرشى».

إنفاقاته في سبيل الله تعالى:

والآخر: هو اقباله على الإنفاق في سبيل الله، وقد بلغ في ذلك غايات، منها مثلاً أنه: «كان دأبه في زكاة غلاته - كما ذكره في كتاب كشف المحجة - أن يأخذ العشر منها ويعطي الفقراء الباقي منها»، مقتدياً في ذلك بالمروي عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام.

ومنها مثلاً ما ينقله في كتاب كشف المحجة لولده السيد محمد حيث يقول: «ووالله - يا ولدي محمد - الذي حضر قسمي به جل جلاله وكتابي هذا وشهدت به ملائكته، لقد كانت في يد والدك علي بن موسى هذه المليكات وغيرها من الموجودات، ولا يكون معه في كثير من أوقاته درهم واحد لأنه كان يخرج ما ينفق له من دخل ملك وغيره في مؤنةِ عياله ثم في الصدقات والايثار والصلات وكان جماعة من الناس يعتقدون أنه ينفق من ذهب مذخور، هيهات هيهات، لقد ضلوا عن أبيك ووالدك كما ضل كثير من الخلق عمن هو أعظم حالاً وأشرف كمالاً وأتم جلالاً... ولو جاءت الدنيا إلى والدك دفعة واحدة خرجت في أسرع الأوقات...».

شجاعته وانتصاره للحق:

ولم يقتصر أثر أعراض ابن طاووس عن كل زخارف الدنيا وانقطاعه إلى الله تبارك وتعالى على تفانيه النادر في الانفاق في سبيله

جل وعلا، بل أكسبه شجاعة نادرة في المتاجرة بالنفس في سبيل بارئه، وقياماً بتكاليفه ولعل من النماذج البارزة لذلك شجاعته في أعلان كلمة الحق أمام الظلمة، فمثلاً ينقل رضوان الله عليه في كشف المحجة:

«ولقد كرر مراسلتي ومكاتبتي بعض ملوك الدنيا الكبار في أن أزوره في دار يتنافس في دخولها كثير من أهل الاغترار، فقلت له مراسلةً: انظر المسكن الذي أنت ساكنه الآن، فإن وجدت فيه حائطاً أو طابقة أو أرضاً أو فراشاً أو ستراً أو شيئاً من الآنية وضع لله جل جلاله وفي رضاه حتى احضر وأجلس عليه وأنظر إليه ويهون عليّ أن أراه...».

وينقل حادثة أخرى تحمل نفس الدلالة فيقول: «ولقد كتب يوماً إليّ بعض الوزراء يطلب مني الزيارة والورود عليه فكتبت إليه جوابه: كيف بقي لي قدرة على مكاتبك في حوائجي، وحوائج الفقراء، وأهل الضراء، وأنا مكلف من الله جل جلاله ورسوله ﷺ والأئمة عليهم السلام أن أكره بقاءك على ما أنت عليه حتى يصل كتابي إليك، ومكلف أن أريد عزلك عن مقامك قبل وصول كتابي وقدومه عليك».

ورع السيد:

والمخاطرة بنفسه في سبيل أداء التكليف الإلهي هي مظهر من مظاهر مقام كمالي أشمل بلغه السيد ابن طاووس وهو مقام الورع عن محارم الله عزوجل وقد أجمع مترجموه على ذكر هذا المقام السامي من مقاماته وفضائله رحمه الله، فمثلاً يقول عنه المحدث النوري: «السيد

الأجل الأكمل الأسعد الأورع الأزهد»، ويستخدم الوصف نفسه الشيخ الزاهد عباس القمي.

ويقول عنه الشيخ الشهيد الأول: «صاحب الكرامات... لم يزل على قدم الخير والآداب والعبادات والتنزه عن الدنيات إلى أن توفي».

ويقول عنه محمد علي المدرس في ريحانة الأدب: «... عابد زاهد متق جامع الفضائل والكمالات العالية، المتخلي عن صفات الرذيلة، المتحلي بالأخلاق الفاضلة، المتجلي بإتيان الوظائف الشرعية، أورع أهل زمانه وأتقاها وأزهدها وأعبدها».

وينقل الشيخ القمي خصلة له تكشف عن شدة ورعه ومتانة احتياطه وهي أنه كان يحتاط عن كل طعام لم يُعّد من أجل الله جل جلاله بسبب الآية التي تنهى عن أكل لحم الحيوان الذي لم يذكر اسم الله تعالى عليه حين ذبحه».

غيرته الدينية:

ومن مقامات السيد الروحية المهمة هي شدة غيرته الدينية وصلابته في الانتصار للحق والدفاع عن منهج الصدق، وهذا الأمر مشهود في المناظرات التي كان يجريها، والتي يذكر بعضها في كتاب كشف المحجة، وهي مناظرات تكشف أيضاً رسوخ الروح النبوية فيه وحرصه على هداية العباد ودعوتهم إلى سبل الرشاد، والمهم في جهوده للهداية هو شدة الإخلاص لله فيها، وصدورها عن دافع امتثال أوامره تبارك وتعالى فيها لا غير، وهذا الأمر مشهود في سيرته

ومصنفاته وبوضوح بالغ، قال رَحِمَهُ اللَّهُ في خاتمة كتابه «القيّم الإقبال بالأعمال الحسنة» عن هدفه من تصنيفه:

«ونحن كان مرادنا من هذا العمل امتثال أمر مولانا جل جلاله في دعاء عباده إلى مراده وتعظيم جلاله وحقوق إسعاده وإرفاده وتعظيم رسوله صلوات الله عليه وآله ونوابه في بلاده...».

دفاعه عن المسلمين:

إنَّ غيرته الدينية وانتصاره للحق، وغيرته على بيضة الإسلام، واندفاعه للدفاع عن المسلمين، ودعوة الملحدين إلى شريعة رب العالمين تتجسد جميعاً في مبادرته الجريئة للتوجه بنفسه الشريفة إلى عساكر المغول الذين قدموا إلى بغداد لاحتلالها وإسقاط الخلافة العباسية وإقناعهم بالصلح وعرض الإسلام عليهم، وكان واثقاً من نجاحه في ذلك كما يتّضح من قوله في رقعته للخليفة العباسي بهذا الشأن:

«وما أرجع بدون الصلح فإنه مما يريده الله عَزَّوَجَلَّ ويقربني إليه».

ولعله توسم في المغول استعدادهم لقبول الإسلام - كما ثبت فيما بعد وتحقق بالفعل - ولكن بعد أن سقطت الخلافة العباسية، وعانى المسلمون الكثير من سفك دمائهم وإحراق مدنهم وتدمير تراثهم، وما كان شيء من ذلك ليقع لو أذن الخليفة العباسي بتنفيذ هذه المبادرة الجريئة التي تعبر في جانبها منها عن حقيقة البصيرة الإلهية التي تفضل بها الحق جلا وعلا على عبده الصالح كثمرة لرسوخ إيمانه ونقاء إخلاصه وصدق مراقبته لحرمة ربه وتفانيه في خدمته والسعي لرضاه وامتثال أوامره في جميع حركاته.

كرامات السيد

وهذه الحقيقة تنقلنا للحديث عن كرامات السيد ابن طاووس الكاشفة عن أسمى المقامات الروحانية، وقد أجمع العلماء على التصريح ببلوغ السيد ذراها كما ينبه لذلك المحدث النوري بقوله عن السيد: «صاحب الكرامات الباهرة رضي الدين... الذي ما اتفقت كلمة الأصحاب على اختلاف مشاربهم وطريقتهم على صدور الكرامات عن أحد ممن تقدمه أو تأخر عنه غيره...»

وأول المصرحين بذلك هو الشيخ الأجل سديد الدين يوسف بن علي بن المطهر الحلي المجمع على توثيقه وعلمه وجلالته، وهو والد العلامة الحلي الذي ينقل عنه أن والده روى له بعض كرامات السيد: «وكان رضي الدين علي صاحب كرامات حكى لي بعضها، وروى لي والدي البعض الاخر».

المعارف الإلهامية:

وهذه الكرامات لها أقسام عديدة، منها إطلاع الله تبارك وتعالى له على أسرار العبادات والغيب وكشف بواطنها له، وتعريفه بحقائق الأشياء وجعله يشاهدها كما هي، يقول الشيخ أسد الله الدزفولي عن السيد: «السيد السند، المعظم المعتمد، العابد الزاهد، الطيب

الطاهر، مالك أزمة المناقب والمفاخر، صاحب الدعوات والمقامات والمكاشفات والكرامات، مظهر الفيض السني، واللطف الجلي...»، ويمكن للمطالع المتدبر الذي يفتح قلبه لمواعظ السيد ابن طاووس أن يحصل على الكثير من إشارات وتنبيهات هذه المعارف الإلهية الخاصة بين طيات مصنفاته القيّمة وتعليقاته على النصوص التي ينقلها فيها.

ومنها، اختصاصه بمعرفةٍ مباشرة لما لا يتسنى لغيره معرفته إلا بتوسط الأسباب، نظير معرفته أوائل الشهور العربية:

«واعلم أنّ الله جل جلاله تفضّل علينا باسرار ربانية، وأنوار محمدية، ومبار علوية، منها تعريفنا بأوايل الشهور وإن لم نشاهد هلالها وليس ذلك بطريق الأحكام النجومية ولا الاستخارات المروية، وإنما ذلك كما قلنا بالأمور الوجدانية الضرورية، وإنما نذكر من دلائل شهر رمضان أو علاماته أو إمارته لمن لم يتفضل الله جل جلاله عليه بما تفضل به علينا من هباته وكراماته وإن لم يلزم العمل بها في ظاهر الشريعة النبوية»

ولعل هذه المكرمة الإلهية تمثل معونة ربانية إضافية لهذا السيد العابد على القيام بوظائف العبودية في أعمال الشهور.

استجابة دعائه:

ومن الأمور الكاشفة عن سمو مقامه رضي الله عنه استجابة دعائه الفورية التي أقرّ بها الموافقون والمخالفون، كما يصرح بذلك العلامة السيد الخوانساري ضمن حديثه عن مقامات السيد حيث يقول: «ومنها كونه

من جملة العبدة الزهدة المستجابي الدعوة بنص الموافقين لنا والمخالفين. . .»

ونماذج استجابة دعواته كثيرة وقد نقل هو بعضها في كتبه، نظير ما نقله في كتاب «الأمان من أخطار الأسفار والأزمان» ولكنه قرن نقلها بالتذكير بأنها من البراهين الوجدانية على صدق ما جاءت بها الرسالات الإلهية: «وهذا من تصديق الآيات المعظمات في إجابة الدعوات، ولمحمد ﷺ من جملة المعجزات، ولذريته من جملة العنايات، فإنه جل جلاله استجاب من المحسنين ومن المسيئين».

ورغم هذه الإشارة المعبرة عن تواضعه لربه وترفعه عن تنزيه النفس إلا أن من المعروف أن الاستجابة الفورية للدعاء وبصورة مستمرة هي من مقامات أولياء الله المخلصين، لكونها تحتاج إلى تطهير بالغ للنفس، وتحقيق الشروط التي تذكرها الأحاديث الشريفة لاستجابة الدعاء، لذا فإن بلوغ المرء إلى مرتبة استجابة دعائه الفورية يكشف عن تحلية بطهارة النفس والشروط اللازمة لاستجابة الدعاء.

ومن الأمور الكاشفة عن علو مقام السيد وشدة خضوعه للإرادة الإلهية الألطاف الإلهامية التي كان يحيطه بها ربه الكريم ﷻ فيوجهه إلى ما ينبغي عليه أن يفعله ليحصل على رضا ربه ويزداد منه قرباً وتتعمق عبوديته له إخلاصاً.

ونماذج هذه الأمور والألطاف الإلهامية كثيرة في سيرة هذا العالم الرباني يمكن التعرف على الكثير منها في تضاعيف مصنفاته وبخاصة مقدماتها.

إحاطته بالرعاية الإلهية الخاصة:

ومنها الأمور غير العادية بل الإعجازية التي كان يعامله بها تنبيهاً له إلى وظائف ينبغي له أن يقوم بها، نظير الحادثة الإعجازية التي وقعت له في قضية قدوم العبد الصالح «عبد المحسن» عليه وهو يحمل رسالة له من الإمام المهدي الحجة بن الحسن (عج) فبعد أن استلم الرسالة منه وأوصاه أن يكتم الأمر عرض عليه شيئاً فامتنع عبد المحسن مستغنياً، وبات عنده في مسكنه بالحلة، وعندما قام السيد لصلاة الليل، وقدم له غلامه الإبريق حدثت حادثة غريبة ننقلها ملخصاً مما كتبه السيد.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمددت يدي ولزمت عروته لأفرغ على كفي فأمسك ماسك فم الأبريق وأداره عني ومنعني من استعمال الماء في طهارة الصلاة، فقلت: لعل الماء نجس فأراد الله أن يصونني عنه، فإن لله جل جلاله عليّ عوائد كثيرة، أحدها مثل هذا وأعرفها، فناديت: إليّ فتح (اسم غلامه) فقلت: من أين ملأت الإبريق؟ قال: من المسيبة، فقلت: هذا لعله نجس، فأقلبه واشطفه، واملأ من الشط، فمضى وقلبه، وأنا أسمع صوت الإبريق، وشطفه وملأه من الشط، وجاء به فلزمت عروته وشرعت أقلب منه على كفي، فامسك ماسك فم الإبريق، وأداره عني ومنعني منه، فعدت صبرتُ ودعوت بدعوات وعاودت الإبريق لجرى مثل ذلك، فعرفت أن هذا منعٌ لي من صلاة الليل في تلك الليلة، قلت في خاطري: لعل الله يريد أن يجري علي حكماً وابتلاءً غداً، ولا يريد أن أدعو الليلة بالسلامة من ذلك، وجلست لا يخطر بقلبي غير ذلك، فنمت وأنا جالس، وإذا

برجل يقول لي: هذا - يعني عبد المحسن - الذي جاء بالرسالة كان ينبغي أن تمشي بين يديه. فاستيقظت، ووقع في خاطري أن قد قصّرت في احترامه وإكرامه فتبت إلى الله جل جلاله ، واعتمدت ما يعتمد التائب من مثل ذلك، وشرعت في الطهارة، فلم يمسك أحدٌ الإبريق وتركت على عادتي، فتطهرت وصليت ركعتين، فطلع الفجر فقضيت صلاة الليل، وفهمت أنني ما قمت بحق هذه الرسالة، فنزلت إلى الشيخ عبد المحسن وتلقيته وأكرمته... ومشيت بين يديه كما أُمرت في المنام إلى ظاهر الدار وأوصيته بالكتمان والحمد لله».

وهذه الحادثة تكشف مقام هذا السيد الجليل عند ربه وعنايته به وعدم إيكاله لنفسه وهذه من مقامات الاولياء السامية كما يشير إلى ذلك الدعاء الشريف المروي عن سيد المرسلين ﷺ حيث يقول: «رب لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً».

علاقته بإمام العصر (عج)

وبذكر هذه الحادثة نصل إلى علاقة السيد ابن طاووس الخاصة بالإمام المهدي المنتظر (عج) والتي تكشف عن سمو مقامه المعنوي، وكمالاته الروحية التي أهلته لهذه العلاقة الخاصة؛ وقبل أن نتطرق إلى هذا الجانب في سيرة السيد نشير إلى أن ما تواتر نقله من لقاءات العلماء الربانيين والصالحين بالإمام المهدي (عج) والمسجل في كتب عديدة، كبحار الانوار للعلامة المجلسي، وكتاب جنة المأوى للمحدث النوري، وغيرهما كثير طوال التأريخ؛ يعتبر بحد ذاته برهاناً وجدانياً ناطقاً بصحة العقيدة الإمامية - التي أقيمت عليها العشرات من الأدلة العقلية والمئات من الأدلة النقلية المستخرجة من كتب المسلمين من مختلف المذاهب - بشأن ولادة الإمام المهدي عليه السلام وغيبته عن الأبصار، وانتفاع المؤمنين به في غيبته؛ كما أن هذه اللقاءات وكثرتها، وتواتر أصل وقوعها توضح أن المقصود من التوقيع الصادر عن الإمام المهدي (عج) لآخر نوابه في عصر الغيبة الصغرى (الشيخ السمري) بشأن تكذيب من أدعى مشاهدة الإمام في عصر الغيبة محمول على المشاهدة مع ادعاء النيابة الخاصة عن الإمام، كما أشار إلى ذلك العلامة المجلسي في باب من أدعى الرؤية في الغية الكبرى من الجزء (٥٢) من بحار الأنوار.

نعود إلى علاقة السيد ابن طاووس بالإمام المهدي عليه السلام فنشير إلى أنه ورغم تكتم السيد عليها وبصورة مشددة كما يظهر من تأكيده الوصية للشيخ التقي عبد المحسن بالكتمان، إلا أننا لا نعدم إشارات تدل على خصوصية هذه العلاقة وتجعلنا نرجح أن باب لقاء الإمام المنتظر عليه السلام كان مفتوحاً أمام السيد الصالح، واستظهر ذلك المحدث النوري إذ قال:

«ويظهر من مواضع من كتبه خصوصاً كتاب كشف المحجة أن باب لقائه إياه عليه السلام كان مفتوحاً له وقد ذكرنا بعض كلماته فيها في رسالتنا جنة المأوى».

فمن هذه الإشارات اضطرار السيد إلى ذكر سماعه لدعاء القائم عليه السلام لشيعته سحراً في «سر من رأى» ليلة الأربعاء (١٣ ذي القعدة ٦٣٨هـ.ق) فنقل الدعاء في كتابه «مهج الدعوات» حفظاً له، ولدلالة هذا الدعاء على اهتمام الإمام بشيعته، إلا أن السيد تكتم - كعادته - على التفصيلات وكيفية اللقاء، ونشير هنا إلى أن تأريخ هذه الحادثة يسبق تأريخ حادثة رسالة الإمام له بواسطة الشيخ عبد المحسن بقرابة العامين ونصف (تأريخها جمادى الآخرة سنة ٦٤١)، ولهذا التقدم دلالة مهمة في ترجيح ما رجّحناه بشأن خصوصية علاقة السيد بالإمام.

ومن هذه الإشارات الزيارة التي نقلها في كتابه جمال الأسبوع وذكر أنه: «شاهد أحدٌ صاحب الزمان عليه السلام وهو يزور بهذه الزيارة أمير المؤمنين، في اليقظة لا في النوم»، ولم يذكر اسم الشاهد، خلاف عادته في ضبط أسماء الرواة ودقته البالغة في ذلك.

ومن هذه الإشارات الحكاية التي ينقلها الشيخ الثقة علي بن

عيسى في «كشف الغمة» التي تتضمن اصطحاب السيد ابن طاووس لشابٍ من الحلة أصابه مرض عضال ثم التقاء الشاب بالإمام المهدي في سامراء حيث شفاه من علته وقال له: «إذا وصلت ببغداد فلا بد أن يطلب أبو جعفر - يعني الخليفة المستنصر - فإذا حضرت عنده وأعطاك شيئاً فلا تأخذه، وقل لولدنا الرضي ليكتب لك إلى علي بن عوض فإني أوصيه يعطيك الذي تريد».

ولتعبير «ولدنا الرضي» دلالة خاصة لا تقل عن دلالة أصل الوصية.

ومن هذه الإشارات قوله لولده السيد محمد: «وإن أدركت يا ولدي موافقة توفيقك لكشف الأسرار عليك، عرّفتك من حديث المهدي عليه السلام ما لا يشتبه عليك، وتستغني بذلك عن الحجج المعقولات ومن الروايات، فإنه عليه السلام حي موجودٌ على التحقيق... فاعلم ذلك يقيناً، واجعله عقيدةً وديناً، فإن أباك عرفه أبلغ من معرفة ضياء شمس السماء... وقد احتجناكم مرة عند حوادث حدثت لك إليه ورأيناه في عدة مقامات في مناجاة، وقد تولى قضاء حوائجك بإنعامٍ عظيم في حقنا وحقك لا يبلغ وصفي إليه».

هذه بعض الكلمات مما نقله المحدث النوري من كشف المحجة وقدّم لنقلها بالقول إنها: «تنبىء عن أمرٍ عظيم ومقام كريم»، وقد أصاب فيما قال رضي الله عنه.

هذه نبذة مختصرة عن المقامات الروحية، والكمالات المعنوية النادرة للسيد ابن طاووس رضي الله عنه وإذا كان تعرفنا أولاً على المنزلة العلمية الراقية لهذا السيد الجليل قد ولّد لدينا الاطمئنان بأن منهجه المعرفي

والسلوكي يستند إلى قاعدة علمية، واجتهادية متينة في استنطاق النصوص الشرعية ومن ثمّ الاطمئنان إلى أصالته الشرعية فإنّ التعرف على المقامات المعنوية العالية التي بلغها هذا السيد الكامل بفضل منهجه المعرفي والسلوكي الشرعي يعزز الاطمئنان لهذا المنهج وقدرته على إيصال العامل به إلى معارج الكمال من خلال النظر في قدوة علمية التزمت به فوصلت إلى ذرى الكمال، بل وليشكل دافعاً قوياً لطلاب الحق جل وعلا نحو التعرف على هذا المنهج وخصوصياته.

إجماع العلماء على سمو مقام السيد وصواب منهجه:

العامل الثاني المؤكد ضرورة تعرّف منهج السيد ابن طاووس هو إجماع العلماء بمختلف مسالكهم على سمو مرتبته في الكمالات العلمية والعملية، وصواب المسلك الذي اتبعه رضوان الله تعالى عليه، وهذا الإجماع مشهود لكل من قرأ أقوال العلماء فيه من الذين عاصروه؛ فلقد أثنى على سمو منزلته العلمية والعملية العلامة الحلي المتوفي سنة (٧٢٦هـ) ومحمد بن مكي العاملي المتوفي سنة (٧٨٦هـ)، وغيرهم.

ونقل الفيلسوف المعروف آية الله الشيخ «حسن حسن زاده الآملي» عن أستاذه الحكيم المتألّه العارف القرآني العلامة «الطباطبائي» أنه كان يصف السيد ابن طاووس - إضافة إلى السيد محمد مهدي بحر العلوم والشيخ ابن فهد الحلي - بأنه من «الكمل»، كما أنه «الموصوف في كلمات الأجلة بقدوة العارفين ومصباح المتهجدين»، وقد «اشتهر بالزهد والصلاح والانقطاع عن الدنيا والدعوة إلى الله»، ولخص فؤاد البستاني الأقوال الواردة في ترجمته.

والملاحظ أن شهادات العلماء بمختلف مشاربهم تعبر عن إقرارهم بسمو مقام السيد ابن طاووس وكمالاته، فقد شهد له بذلك المحدِّث والرجالي والأخباري والأصولي والأخلاقي والفقيه والفيلسوف والحكيم، وهذه حالة نادرة سجلها المحدث الشيخ حسين الطبرسي النوري: «... ما اتفقت كلمة الأصحاب على اختلاف مشاربهم وطريقتهم على صدور الكرامات عن أحد ممن تقدمه أو تأخر عنه غيره».

وتزداد قيمة هذه الشهادة بملاحظة اشتهار المحدث النوري بسعة الاطلاع على أحوال الرجال وكثرة تتبعه لتراجم العلماء وأقوالهم ومصنفاتهم.

الإلتزام بعرى الثقلين:

ولعل سر هذا الاجماع على جلالة مقام السيد وبخاصة تأكيد العلماء الكبار وصفه بقدوة العارفين وجمال السالكين يرجع - إضافة إلى مناقبه وفضائله المعروفة - إلى شدة التزامه بعرى الثقلين - القرآن والعترة - واتباعه لهما؛ فهما المصدران الرئيسان اللذان يجمع العلماء على الخضوع لهما، وتمثيل منهجه السلوكي والمعرفي لما ورد فيهما من مسلمات النصوص ودقته وتثبته في مروياته من الأحاديث الشريفة - مثلما سنلاحظ لاحقاً - وهذا التثبت والدقة هو الذي دفع العلماء إلى الاعتماد على مصنفات السيد ومروياته، كما يصرح بذلك العلامة المجلسي والمحدث العاملي والمحدث النوري وغيرهم.

وحقيقة الأمر هي أن التزام السيد بعرى الثقلين جعل مدرسته المعرفية والسلوكية تمثل نموذجاً نقياً للمدرسة العرفانية والسلوكية الإمامية الأصيلة التي تستنبط مناهجها من الشرع المقدس، فتحظى بذلك بضمانات عدم الوقوع في انحرفات جهال الصوفية وبدعهم وخروجهم عن الصراط المستقيم، وسقوطهم في شباك عبادة الشيطان والأهواء وهم يحسبون أنهم يعبدون الله تبارك وتعالى.

هذا التعبير الدقيق لمنهج السيد ابن طاووس عن المدرسة التربوية الإسلامية الأصيلة يمثل العامل الثالث من العوامل التي تؤكد ضرورة تعرّف منهجه، وستتضح لاحقاً - إن شاء الله - أدلة دقة هذا التعبير خلال الحديث عن خصوصيات منهجه رضي الله عنه في المعرفة والسلوك.

تأثير السيد في المدارس السلوكية:

أما العامل الرابع المؤكد ضرورة دراسة منهج هذا السيد الطاهر فهو قوة تأثير هذا المنهج في المدارس السلوكية والعرفانية الإمامية التي أعقبته، ولا أدلّ على هذا التأثير من شدة اهتمام أتباع هذه المدارس - سواء ذات المنحى الروائي المجرد كما هو حال ما عادت تعرف بالمدرسة التفكيكية، أو ذات الاتجاه الجامع بين الحكمة والعرفان النظري والعملي كمدرسة صدر المتألهين الشيرازي ومدرسة الفقيه حسين قلي الهمداني، وغيرهما - بأفكار السيد ابن طاووس ووصاياه وتوجيهاته التربوية وتبنيهم لمصنفاته، وهذا الاهتمام مشهود بوضوح في نتاجاتهم، فمثلاً نلاحظ الفيض الكاشاني يصنف كتابين في تلخيص كتاب السيد المسمّى «كشف المحجة لثمرة

المهجة» الذي يشتمل على مجموعة من وصاياه التربوية لولده وهي تمثل بلورة جامعة لمنهجه المعرفي والسلوكي.

ونلاحظ أيضاً الوصف الوارد بشأن العارف الجليل المولى حسين قلي الهمداني ﷺ بأنه: «كان على منهج السيد جمال الدين بن طاووس في القول والعمل، حتى في عدم الإفتاء وعدم التصدي لشيء من أمور الرئاسة الشرعية»، كما نلاحظ في ترجمة الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين للسيد الإمام حسن الصدر - وهو من تلامذة المولى الهمداني - ذكر أن السيد الصدر صنف في العرفان والتربية كتابين قيمين هما:

١ - «سبيل الصالحين في السلوك وطريق العبودية» وقد ذكر لها سبع طرق.

٢ - «إحياء النفوس بآداب ابن طاووس» جمعه من بيانات السيد جمال الدين علي بن طاووس الحسني في مؤلفاته، ورتبه على ثلاثة مناهج: المنهج الأول في معاملة العبد ربه، والمنهج الثاني في معاملته مع مواليه حجج الله ﷻ، والمنهج الثالث في معاملته مع الملائكة والناس.

وتشاهد هنا أيضاً شدة اهتمام الشيخ العارف جواد الملكي التبريزي (وهو من أبرز تلامذة المولى الهمداني وأساتذة الأخلاق في القرن الأخير) بالإستفادة من آراء السيد ومصنفاته في الكتب الثلاثة القيمة التي أورثها طلاّب الهداية الإلهية، وما زالت أحد مصادر التربية السلوكية الأساسية، وهي رسالة لقاء الله، وكتابا: «أسرار الصلاة» و«المراقبات».

حفظه التراث التربوي الإمامي:

كما نلاحظ أيضاً كثرة ما تنقله أهم الموسوعات الروائية الإمامية (وبخاصة بحار الأنوار للعلامة المجلسي ومستدرك الوسائل للشيخ النوري) من مصنفات السيد، بل ويمكن القول: إنّ أغلب المتوفر من مصنفات السيد يمكن الحصول عليه من جمع ما نثره مؤلفو هذه الموسوعات فيها، والأمر نفسه فعله كلُ من صنّف في باب الدعاء والعبادات وأسرارها ومراقباتها، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً.

ويكفينا في هذا المجال أن ننقل شهادة قيمة للباحث المتتبع محمد محسن الشهير بآقا بزركك الطهراني صاحب موسوعتي «الذريعة» و«طبقات أعلام الشيعة»، تحدث فيها عن عظمة تأثير السيد ابن طاووس في الحياة الإسلامية، حيث يقول رحمه الله: «بما تفضل الله تعالى عليه من صفاء ذاته ونورانيته وخلوص عمله وحسن نيته... مع ما هيأه الله تعالى له من الأسباب؛ وفقه أيضاً للاشتغال بالتأليف والتصنيف آملاً ما فيه رضا الله ورسوله وأوصيائه مما فيه الشفاء لعامة البشر من الأمراض المزمنة الروحية، والعاهات والبليات الجسيمة، فجعله الله تعالى بذلك قدوة لعباده وجعلهم رهائن منته، وأطعمهم من موائد نعمته حيث يحصل لهم من العمل بدستوراته في تصانيفه العملية الشفاء الكامل من كافة العلل الدنيوية والوصول ببركة تلك الأعمال إلى السعادة الأبدية، وكذلك يرسخ في قلوبهم من التدبير في كتبه العلمية من قوة اليقين والجزم بعقائد الدين ما لا يزيله شبه المعاندين وضلالات المبدعين.

وبالجملة فقد ثبت للسيد ابن طاووس حق عظيم على كافة

المسلمين بما دلهم في تصانيفه إلى معرفة رب العالمين ورسوله النبي الأمين وأوصيائه الأئمة الميامين عليهم السلام، وبما أرشدهم إلى طريق العبودية وكيفية السير والسلوك إلى الله تعالى، وبما علّمهم من المحاسبة والمراقبة وتهذيب النفس وغير ذلك من مكارم الأخلاق آخذاً جميع هذه التعليمات عن معادن العلوم اللدنية وأهل بيت الوحي والعصمة؛ المروية عنهم في الأصول والكتب المعتبرة التي هيأها الله تعالى له ولم يصل إلينا منها إلا النزر اليسير، فلو لم يكن جمعه وتدوينه لها في تاليفاته لكنا محرومين من فوائد تلك التعليمات...».

تخصصه في الباب التربوي:

وواضحٌ - كما صرح العلامة الطهراني في النص المتقدم - أنّ قوة تأثير منهج السيد ابن طاووس في المدارس السلوكية والتربوية الإمامية ترتبط هي الأخرى بقوة تمثيله وتجسيده لقيم الشريعة الإلهية الخاتمة ولمنهج التربية النبوية وشدة تمسكه بالثقلين - القرآن والعترة - اللذين أوصى بهما الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم دليلاً إلى الله تبارك وتعالى وضمانة من الإنحراف والضلالة؛ فواضح أن تقديس جميع المدارس السلوكية الإمامية لهما انعكس في شدة اهتمامها بمنهج السيد ابن طاووس الملتزم بهما، بخاصة وأن السيد قد اهتم بأمر استنباط مناهجهما النقية في أبواب السير والسلوك إلى الله عزوجل، بل وامتاز بهذا الاهتمام حتى برز فيه وأصبحت مصنفاته وأفكاره واستنباطاته مرجعاً رئيساً في هذا المجال قلما نجد من تخصص فيه بالسعة والشمولية والعمق التي ميزت تخصصه فيه.

ولعل هذا التوضيح للعوامل المتقدمة، يكفي في تبيان ضرورة

دراسة منهجه المعرفي والسلوكي والسعي لمعرفة خصائصه، وكذلك يكفي لترغيب طلاب الهداية الإلهية في الانتفاع من مصنفاته وإفاداته التربوية فيها والإرتواء من ينابيع مناهج القرآن والعترة الطاهرة في التربية والإيصال إلى الله تبارك وتعالى، وهي المناهج التي جمعها السيد في مصنفاته.

منهج الدراسة:

وحيث أن المعرفة هي قاعدة السلوك إلى الله تبارك وتعالى ومفتاحه، لذا نبدأ أولاً بالسعي لمعرفة خصوصيات منهج السيد ابن طاووس في المعرفة، مقدمين لذلك الإشارة إلى أننا اجتنبنا وضع خصوصيات مفترضة من عندنا لكي نحصل على مؤيدات لها من مصنفات السيد، فمثل هذا الاسلوب لا يقود في الحقيقة إلى معرفة خصوصيات منهجه بل يؤدي إلى تحميله قناعاتنا وآراءنا بما يخالف المنهج العلمي في البحث، لذا كان عملنا استقراء مؤلفات السيد واستنباطاته المنثورة في كتبه التي حصلنا عليها، ثم تصنيفها ثم إجراء عملية إحصائية لمعرفة أكثر ما يؤكده، ثم إبرازها كخصوصيات لمنهجه؛ وقد التزمنا بذلك في تعرّف منهجه السلوكي أيضاً مثلما فعلنا مع منهجه المعرفي.

الهدفية في طلب العلوم

أولى الخصائص التي تميز المنهج المعرفي للسيد هي الهدفية في اكتساب العلوم، فهو يرفض مبدأ أنّ للمعلومات قيمة ذاتية، ويؤكد أنّ قيمة المعلومات تنبع مما تقدمه للإنسان من عون في إيصاله لهدفه، والهدف هو السلوك إلى الله تبارك وتعالى والوصول إليه والحصول على رضاه كما يؤكد ذلك السيد استناداً إلى النصوص الشرعية، ولذلك نلاحظه يؤكد وبصورةٍ مشددة النهي عن الإقبال على تعلم أي علمٍ كان دون ملاحظة حجم ما يعين به الإنسان على حركته التكاملية، بل وينهى حتى عن العلم المفيد في تحقيق هذه الغاية إذا كان ثمة علم آخر يؤدي الدور نفسه في مدةٍ أقصر وجهد أقل، وهذا ما يتجلى بوضوح في موقفه من علم الكلام - كما سنلاحظ لاحقاً بإذن الله تعالى - والسبب هو أن عمر الإنسان في هذه الحياة الدنيا محدودة فيجب أن يستثمره بأفضل صورة ممكنة، ويسعى للحصول على أفضل الثمار في أقصر مدةٍ ممكنةٍ.

المعاني المتقدمة بيّنها السيد (قده) بلغةٍ تنظيرية واضحة على شكل وصايا لولده تستند لتجربته الذتية في المعرفة والسلوك ضمن كتابه القيم «كشف المحجة لثمرة المهجة» وبخاصة في الفصلين (١٤٢، ١٤٣) منه، كما جسدها عملياً في سيرته وتجلت بوضوح في

مصنفاته، بمعنى أن اهتمامه فيها منصبٌ على تدوين ما يحتاجه السالك للوصول إلى هدفه وما يعينه أكثر من غيره على ذلك.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في الكتاب المذكور: «ومن يعلم أن عمره يسير وقصير وأن وراءه من يحاسبه على الكبير والصغير والظاهر والمستور، فإنه يكفيه من الزاد بقدر السفر والمسير... وقد هيأ الله جل جلاله لك على يدي كتباً كثيرة في كل فن من الفنون الذي رجوت أن تدلك بل على ما يقربك من مولاك... وفيما كلّف الله جل جلاله العباد من مراقبته بعد معرفته ومن خدمته بعد تعريفهم بنعمته ما يشغل عقول ذوي الألباب عن كثير من علم ما لم يكلفهم إياه رب الأرباب... وهيأ الله جل جلاله من كتب المجاميع والآثار المشتملة على فنون مختلفة جرت في الاعصار مروجة للأسرار ومذكرة بالمكارم والإيثار وصفات الاختيار، فقف منها - يا ولدي - على ما يقرب من المطّلع - جل جلاله - على سريرتك المحاسب لك على إرادتك... إنك مضطر إلى رضاه في دنياك وأخراك، وإياك أن تنظر فيها مما يشغلك عن مولاك وعن المراقبة لاطلاعه عليك وذكر حضورك بين يديه وشكر إحسانه إليك، فيصير ذلك الإطلاع من الأسقام والأدواء ويكون ذلك الكتاب من جملة الأعداء... ولو أن المجتهد في علم الكيمياء يعطي الله عَزَّوَجَلَّ من اجتهاده بعض ذلك التعب والعناء كان كرم الله جل جلاله فاتحاً عليه من السعادات ذهباً وفضة وعنايات بدون التعب وتضييع الأوقات؛ فإن الظفر بالله على اليقين...».

ويذكر رَحِمَهُ اللَّهُ في الفصل (١٤٣) من هذا الكتاب أنواع العلوم

المتعارفة في عصره، ثم يحدد - على وفق نظرته الهدفية - ما يحتاجه السالك منها، ومقدار ما يحتاجه، ويوصي بأفضلها وأكثرها تأثيراً في الوصول إلى الهدف الإلهي المقدس، ويبين أوجه الاستفادة منها وإن كان في بعضها لا يذكر وجه التأثير لكنه يؤكد هذا التأثير، كما في وصيته بعلم الخط:

«فأوصيك بتعلم الخط على التمام فإنّه معونة لك على السلوك إلى الله جل جلاله»

ولعل تأثيره يكمن في تنمية ذوق الإحساس بالجمال لدى السالك فيعينه على استشعار مظاهر الجمال الإلهي والتأثر بها، ثم يقول في تتمة المقطع السابق:

«ثم بتعلم العربية بمقدار ما يحتاج إليه مثلك من الطالبين للمراضي الإلهية وإحياء السنن النبوية، ثم تتعلم من القرآن الشريف ما تحتاج إليه لإقامة الصلوات، وما يتعلق بمراد الله جل جلاله من تفسير تلك الآيات بعاجل الحال، واحفظه بعد ذلك التعظيم والإجلال».

فما يحتاجه السالك من تعلم العربي هو المقدار اللازم لفهم النصوص الشرعية والاستهداء بها في طريقه السلوكي إلى الله عزوجل، فيتعلم منها بهذا المقدار وبهذا الاتجاه، فلا يضيع وقته بما عداه، والحكم نفسه يصدق على العلوم القرآنية وبالترتيب الدقيق الذي يذكره السيد، حيث يجعل الأولوية لما يقتضيه أداء الواجبات بالصورة الشرعية المطلوبة، ثم ما يلي ذلك مما تقتضيه حركة السالك في الإستهداء بالآيات الكريمة مع مراعاة العلوم الأخرى، فيطالع مثلاً

كتب التأريخ بمقدار ما يقتضيه الاعتبار بأحوال الماضين والاستفادة من تجاربهم، وعليه فقس.

الجدية في اكتساب العلم:

ومن العبر النافعة في هذا الباب في سيرة السيد نفسه ما ينقله بشأن أعراضه عن شراء نسخة عتيقة قيّمة من كتاب «الملح» وهو أحد مصادر كتابه «فرج المهموم»، مكتوبة في عهد المؤلف الحسين بن خالويه، وسبب أعراضه عن شرائها - رغم اهتمامه بجمع المصادر الإسلامية - يبينه بقوله «كرهت شراءها لأجل ما فيها من الهزل».

والموقف نفسه نجده يحدده تجاه الفنون الأدبية كالشعر، فهو يخاطب ولده بشأنها قائلاً: «وهيأ الله جل جلاله لك كتباً في الأشعار تكفي الناظر في معرفة تلك الآثار، فانظر فيها واحفظ من معانيها ما يدعو إلى الله جل جلاله وإلى رضاه وإلى رسوله ﷺ ومن ارتضاه مما يبعث على مكارم الأخلاق وحيازة قصبات السباق في طهارة الأعراق...».

وإلى جانب تأكيده الأعراض عن العلوم التي لا تتصف بالأولوية والفورية ضمن احتياجات السالك إلى الله تبارك وتعالى، نلاحظ في سيرة السيد جدية بالغة واجتهاداً مؤكداً في طلب العلوم مورد الحاجة وإجادة فهمها، كما يشير إلى ذلك خلال استعراضه لتجربته الذاتية في طلب علم الأحكام الشرعية.

النزعة التحقيقية الاجتهادية:

هذه هي خصوصية أخرى من خصائص المنهج المعرفي للسيد ابن طاووس، فهو منهج يعتمد الجدية والاسلوب التحقيقي لفهم الحقائق العلمية التي يحتاجها السالك إلى الله عزوجل ، فما دامت العلوم التي يختارها ضرورية للوصول إلى هدفه السامي، لذا فمن الضروري أن يهتم بأمر استيعابها بصورة سليمة ويجيد فهمها لئلا يقع في الفهم الخاطىء الذي يضله عن مقصوده، فيكون سيره عن غير بصيرة وعندها لن تعود عليه سرعة السير إلا بالمزيد من البعد عن هدفه الأصلي؛ ولذلك فمن الطبيعي أن يجتنب النظرة السطحية للأمور، ويتحلى بالجد والاجتهاد والبحث التحقيقي لمعرفة حقائق العلوم التي يحتاجها في حركته السلوكية، وهذه الخصوصية تجلت بوضوح في مصنفات السيد وسيرته العلمية، فنشير - على سبيل المثال - إلى مناقشاته العلمية الدقيقة لمجموعة من فطاحل علماء الشيعة بشأن علم النجوم والتي أوردها في كتاب «فرج المهموم»، وأمثالها كثير في مصنفاته، وبخاصة في كتاب «سعد السعود» وهي تعبّر عن دقة وجدية بالغتين للوصول إلى الحقائق العلمية.

الاهتمام الموجه بالتعلم:

كما أن تحديد اكتساب العلوم بالمجالات النافعة التي يحتاجها المؤمن في مسيرته التكاملية لا يعني أن يكون اكتساب العلوم محدوداً كمّاً أيضاً، بل على العكس فإن المراجع لمصنفات السيد يُلاحظ سعة اطلاعه ومعلوماته، وهذا الأمر يصرح به في مقدمة كتابه «سعد

السعود» ويشير إلى اهتمامه بالمطالعة وشراء الكتب، وقد جمع مكتبة ندر أن حوى مثلها أي من علماء المسلمين، كما يصرح بذلك باحث متخصص متتبع مثل العلامة الشيخ محمد حسن الشهير بآقا بزرك الطهراني بأنّه حفظ فيها الكثير من أمهات مصادر التراث الإسلامي وتراث أئمة أهل بيت النبوة عليهم السلام والتي لولاه ولولا نقله منها في مصنفاته لكان نصيب المسلمين الحرمان من بركاتها العظيمة في الهداية؛ ومن المفيد هنا أن نشير إلى أن كثرة وأهمية هذه المصادر دعت السيد إلى تأليف كتابه «سعد السعود» لتسجيل بعض فوائدها، وتأليف كتاب بشأنها سماه «الإبانة في معرفة أسماء كتب الخزانة» كما يصرح بذلك في مقدمة كتاب سعد السعود وكتاب الإجازات وغيرها.

ملء الفراغات العلمية:

أجل هذا الاهتمام البالغ بجمع الكتب والمطالعة واكتساب العلوم موجه باتجاه الاستعانة بها ابتغاء التعبد لله والسلوك إليه عزوجل والحصول على رضاه، وليس لمجرد اللذائذ العقلية والفكرية وتوسيع دائرة المعلومات، وقد انعكس هذا الأمر فيما ألّفه أيضاً فاختار التأليف في الأمور الضرورية التي لم يجد بُداً من التأليف بشأنها لعدم عثوره على التحقيقات النافعة في أبوابها، كما يصرح بذلك في مقدمات معظم كتبه. أمّا ما وجد أن السابقين من أسلافه العلماء - رضوان الله عليهم - قد ألفوا فيه فقد اكتفى بالنقل منه أو الهداية إليه؛ يقول مخاطباً ولده:

«اعلم أن جماعة ممن عرفته من المصنفين اقتصروا على المعروف والمألوف من آداب وأسباب في وصايا أولادهم تتعلق

بالدنيا والدين، ورأيت أنا أن متابعتهم في تلك الأسباب تضييع لوقتي، إذ كان يكفي أن أدلك على تلك الكتب وما فيها من الآداب، وما كنت أحتاج إلى أن أتكلّف تصنيف كتاب وإنما أذكر ما أعتقد أنه أو أكثره مما لا يوجد في رسائل من ذكرت من أصحابنا العلماء في تصانيفهم لأولادهم، مما أخاف أنّ أولادي لا يظفرون من غير كتابي هذا لدنياهم ومعادهم، إلا أن يتداركهم الله جل جلاله - الذي هو بهم أرحم وعليهم أكرم - من خزانته...».

التعلم مقدمة للعمل:

واستناداً إلى خصوصية الهدفية في طلب المعارف يتميز منهج السيد رَحِمَهُ اللَّهُ بتأكيدات بالغة لأن يكون التعلم والبحث والتحقيق الجاد للوصول إلى حقائق العلوم مقدمة للعمل بمقتضياتها، فإنّ «السعيد من إذا ظفر بالحق عمل عليه...» وإلا فإنّ وصوله له وعدم عمله به يصير حجة عليه تسلبه القدرة على الاعتذار بالجهل يوم الحساب، فيكون الجهد الذي بذله في التعلم وبالاً عليه - إذا لم يعمل به - بدلاً من أن يكون جناحاً يعرج به إلى مراقي الكمال؛ إذ أن النصوص الشرعية تؤكد غفران سبعين ذنباً للجاهل قبل أن يُغفر للعالم ذنبٌ واحدٌ.

ويلاحظ هنا أن السيد ابن طاووس يؤكد أن العمل بالعلوم التي يحصل عليها الإنسان هو سبيل التصديق بها وترسيخها في القلب، وإلا فإنّها ستكون معرضة للزوال من القلب، وهذه الحقيقة جسدها السيد في تجربته الذاتية:

«وكان ما وجدته بالتجربة كما نقلته الروايات»، «كل ما تضمنته هذه الأخبار من فوائد الدعاء وجدناها على العيان مما تفضّل الله جل جلاله به علينا من إنعامه والإحسان، فمن كان يحسن ظنه في صدق المقال فلا يشك فيما ذكرناه من حقيقة هذه الحال».

العمل معيار لتقويم العلوم:

بل ويظهر من مصنفات السيد أنّه كان يلتزم العمل بالمرويات لمعرفة الحق منها وتمييزه عن غيره، فمثلاً نلاحظه يخاطب ولده بشأن ما ألّفه في العوذ والرقي فيقول:

«. . . وقد صنّفت في بعضها كتاباً سميته (المنتقى) وضاق وقتي عن تجربة كل ما فيه، فجربه مما يليق بطاعة الله ومرضاته، فما كان حقاً فاحفظه وما كان باطلاً فارفضه».

وهذه ثمرة إضافية من ثمار العمل بالعلوم المكتسبة؛ وهي تمثل أحد العوامل التي يمكن بها تفسير قوة اعتقاد السيد بالحقائق العلمية التي يتبناها، وجرأته في الدفاع عنها وعدم اهتمامه بكثرة المعارضين لها، كما سنتطرق لذلك خلال الحديث عن خصوصية نبذ التقليد كإحدى المميزات البارزة في منهجه المعرفي.

تدوين العلوم للعمل بها:

ومن الخصائص البارزة التي تميّز بها السيد ابن طاووس رضي الله عنه والتي تكشف عن شدة اهتمامه والتزامه بمبدأ التعلّم من أجل العمل، هي أنّ معظم مصنفاته ألّفها ابتغاء أن يعمل بها هو ومن يحصل عليها، فهي تمثل في واقعها مناهج للعمل، وحتى التعليقات

التي ينثرها في طياتها يستهدف منها إعانة المطالع لها وترغيبه في العمل بها، وإزالة العقبات التي تصدّه عن العمل بمقتضياتها أو التعريف بأسرارها ابتغاء أن يكون العمل بها على وفق الصورة الشرعية الفضلى، وهذا الأمر مشهود في تعليقاته القيّمة في كتاب «الإقبال» و«فلاح السائل» و«جمال الاسبوع» و«الأمان» وغيرها، وكذلك في مناقشاته المفصلة لشبهات المعترضين على موضوع الاستخارة في كتابه «فتح الأبواب».

التلقي الوجداني للمعارف:

ولذلك تميز خطاب السيد في مصنفاته بلغة وجدانية خاصة يتميز فيها بمخاطبة كل كيان القارىء له عقلاً وقلباً وروحاً، وبما يدفعه إلى العمل والتحرك لتجسيد ما يتعلم؛ إذ إن: «من العلماء - حين تقرأ له - من يزيد عقلك معرفةً ويضيف إلى ما تعلم (معلومات) جديدة. ثمة لذة (عقلية) في التعرف وفي ازدياد المخزون في ذهنك. أنه - أفضل النماذج - يعلّم طريقة في التفكير واسلوباً في صياغة الكلام وفي فن المحاورة... ولا مزيد، ومن العلماء - وهم ندرة نادرة - من تتفقّه على يديه في المعرفة، ولكنك تدرك وتحس أنّه لا يحاور عقلك وحده ويُخصبه، وإنما يغذي فيك طاقة روحية كامنة، ويوقد في داخلك قنديل نور. إنه يهبك - بسخاء عفوي - منهج تعرّف ومنهج تبصّر ومنهج إخلاص، ويفيض عليك طريقة راقية في التعامل مع الحياة، وفي إدراك فقه الحياة. والسيد علي بن موسى بن طاووس رضي الله عنه عالم من هذا الطراز، بل ندر من يضارعه في هذا الطراز[1].

---

(١) مجلة المنطلق.

موقفه من العلوم العقلية المجردة:

وعلى أساس الهدفية في اكتساب العلوم وتأكيد تعلم أكثرها نفعاً في إيصال المؤمن إلى هدفه التكاملي المقدس والاهتمام بالتعلم من أجل العمل، جاء موقف السيد ابن طاووس من علم الكلام، فمعروفٌ أنّه موقف سلبي بيّنه السيد في حديثه لابنه في كتاب كشف المحجة وبصورة مفصلة عارضاً البراهين العقلية والأدلة النقلية المسوغة له، كما أنّه أعرض عن التصنيف فيه وصرح بذلك مبيناً السبب حيث يقول:

«واعلم أنني إنما تركت التصنيف في علم الكلام إلا مقدمة كتبتها ارتجالاً في الأصول سميتها «شفاء العقول من داء الفضول» لأنني رأيت طريق المعرفة به بعيدة على أهل الإسلام وأنّ الله جل جلاله ورسوله وخاصته ﷺ والأنبياء قبله قد قنعوا من الأمم بدون ذلك التطويل، ورضوا بما لا بدّ منه من الدليل فسرت وراءهم على ذلك السبيل وعرفت أنّ هذه المقالات يحتاج إليها من يلي المناظرات والمجادلات...».

وليس هذا الموقف ناتجاً من عدم الاطلاع على علم الكلام، بل على العكس هو ثمرة الاطلاع عليه؛ فقد عرف السيد ما يحتاج إلى معرفته منه، وقرأ منه كتباً، لكنه رأى ما أغناه عنه كما يصرح بذلك، فهو في أفضل الأحوال طريق بعيد في المعرفة يعقّد ما سهله الله من معرفته للأنام، لأنه رسخ في فطرتهم أصول هذه المعرفة فيمكن تفجير ينابيعها والحصول على ثمارها بالتنبيهات العقلية والنقلية القريبة بصورة أفضل من التعقيدات الجدلية التي تغطي الفطرة السليمة

بالحجب، ثم تحاول إزالتها فينشغل الإنسان بذلك عن العمل ويضيع عمره دون الحصول على الاستفادة المطلوبة منه.

وعلى هذا يتضح أنّ موقف السيد تجاه علم الكلام ناتج من معرفة دقيقة للنفس الإنسانية، ولعل هذا هو مراده بإشارته إلى أنّه رأى ما أغناه عن تطويلات علم الكلام، فهذه المعرفة الوجدانية هي ثمرة اتباع المنهج النبوي في المعرفة والتربية كما يشير لذلك آنفاً حيث إنّه منهج الأنبياء - كما يستفاد من النصوص الشرعية - يقوم على أساس الإيصال إلى معرفة الرب عن طريق المعرفة الوجدانية للنفس وخصائصها وأحكامها. وهذا الحكم يسري على الأصول الاعتقادية فيرى السيد أن ترسيخها في النفس يكون عن طريق إحياء المعارف الفطرية بطريق التنبيهات العقلية والنقلية سعياً للحصول على المعرفة الوجدانية المطلوبة.

تفجير المعارف الفطرية:

والموقف الذي يتخذه السيد تجاه علم الكلام يجري أيضاً على سائر العلوم الأخرى التي تبتعد عن المعرفة الوجدانية المشار إليها، فهو لا يدعو إلى العلوم التي تشترك مع علم الكلام في كونها: «من جملة الطرق البعيدة والمسالك الخطيرة الشديدة التي لا يؤمن معها ما يخرج بالكلية عنها»؛ أي أنها غير مضمونة في إيصال الإنسان إلى الحقائق التي تعينه في الوصول إلى هدفه التكاملي المقدس، على العكس من المعرفة الفطرية الوجدانية المدعمة بالتنبيهات العقلية والنقلية فهي تضمن الحصول على الحقائق الموصلة إلى الهدف، لأن التنبيهات العقلية فيها تكون منسجمة مع الفطرة الإنسانية التي جبلها

الله تبارك وتعالى على ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبَة: ٣٦] والتوجه إليه، فهي موهبة من الجود الإلهي، فلا تقبل التبديل والتغيير؛ وعليه يكون التفكر العقلي المنسجم مع أحكام الفطرة مصاناً من الضلالة بحكم ثبوت وسلامة الأحكام الفطرية. إمّا التنبيهات النقلية لما أودع في الفطرة فأمرها أوضح وثمارها مصانة من الضلالة، بحكم كونها صادرة من ينابيع الوحي الإلهي، إما مباشرة - القرآن الكريم - أو بصورة غير مباشرة عن طريق الأنبياء والأوصياء، وهذه الينابيع تشتمل كل ما يحتاجه الإنسان:

«وقد تضمن - كما ذكرت لك - كتاب الله جل جلاله وكتبه التي وصلت إلينا وكلام جدك رسول الله رب العالمين وكلام أمير المؤمنين وكلام عترتهما الطاهرين من التنبيه على معرفة الله جل جلاله بما في بعضها كفاية لذوي الألباب وهداية إلى أبواب الصواب... فإنّ الاعتناء بقول سابق الأنبياء والأوصياء والأولياء عليهم أفضل السلام موافق لفطرة العقول والأحلام».

وقد تميز خطاب السيد - واتباعاً لنهج الأنبياء - بنفحة تربوية الهية مؤثرة ومشهودة تبتعد كثيراً عن التجريد العقلي الجاف الذي يميز خطاب غير الأنبياء واتباعهم:

«ولابن طاووس لغته الخاصة ومصطلحاته المتفردة الدالة على منهج معرفته ونمط تفكيره. ولغته سهلة في مفرداتها وتراكيبها، قريبة ميسورة يتخللها جمال عفوي وصفاء فطري... ولا تجد في أعمال هذا الرجل الرائي المربي البصير عملاً نظرياً صرفاً أو عملاً غير ذي شأن لا يصب في تيار المعتقد الصالح، أو تيار التعبد والاستقامة

على الصراط، كل ما كتب منوِّر أو مذكِّر، إنه يكتب من أجل الأسعاد والانجاد، ولا يسلك اسلوب الواعظ المقرِّع المتعالي ولكنه يقنعك ويدخل إلى وجدانك بالإيحاء المحبب ويأخذ بيدك للتدريب».

وهذه اللغة الوجدانية المؤثرة هي ثمرة من ثمار استناد السيد إلى الاسلوب القرآني في إثارة المعرفة الفطرية وإحيائها بالتنبيهات العقلية المدعمة بكلام وإضاءات ينابيع الوحي الإلهي، وهذه ميزة بارزة من خصائص منهجه المعرفي.

فهم الدين بالثقلين

واستناداً إلى هذه الخصوصية يتميز المنهج المعرفي للسيد ابن طاووس بكونه منهجاً يستند بالدرجة الأولى إلى النصوص الشرعية - قرآناً وسنة - دون أن يعني ذلك بحال من الأحوال إلغاء دور العقل ونتاجه، بل يوليه أهمية كبيرة كما سنلاحظ في الخصوصية اللاحقة، وهذه الخصوصية مشهودة في مصنفات السيد، فهي روائية استدلالية بالنصوص الشرعية تجعلها منطلقاً أساسياً للحصول على المعارف الإلهية، ومعياراً لتقويم جميع المعارف وكل ما يعرض للإنسان من أمور؛ وهو عادة ما يناقش الآراء الأخرى استناداً إلى القرآن وصحاح الأحاديث الشريفة.

وهو يؤكد التمسك بعرى الثقلين، وقد خصص مجموعة من مصنفاته لاثبات هذه الحقيقة، ككتابي «الطرائف» و«اليقين» وجزء مهم من كتاب «سعد السعود» وكتاب «كشف المحجة» وغيرها، ويؤكد بصورة خاصة فهم الدين من قناة أهل بيت النبوة وعترة النبي الأكرم ﷺ فإنّ ذلك منجاة من شباك اختلافت الآراء في فهم الدين:

«وكل هذه الاختلافات إنما أحدثها مفارقة أصحاب هذه الروايات لأهل بيت صاحب النبوة صلوات الله عليهم الذين جعلهم

خلفاء عنه...»، وذلك لأنهم «هم الذين جاهدوا على الدين وكانوا أصل ما وصل إلينا من أسرار رب العالمين...» ولأن النصوص الشرعية تُثبت أنّهم هم «العارفون بأسرار رب العالمين وأسرار سيد المرسلين ﷺ»، ولأن ثمة حالات كثيراً ما يعجز العقل عن الوصول إلى المطلوب منه إلا بتوسط الأئمة عليهم السلام «فإن لأوقات القبول أسراراً لله جل جلاله لا تعرف إلا بالمنقول». ولذلك فوجودهم نعمة كبرى على بني الإنسان، لأن الله تبارك وتعالى أودعهم كل ما يحتاج إليه المكلفون مما يُصلح دنياهم وأُخراهم، فجعل كل واحدٍ منهم بقوله وفعله «هو القدوة التي لا تحتمل اختلاف التأويلات، وهو الكاشف عن مراد الله جل جلاله بالآيات والروايات».

الانفتاح على روايات الجمهور:

والسيد ابن طاووس إلى جانب شدة تأكيده الإلتزام بقناة أهل بيت النبوة والعترة الطاهرة عليهم السلام في فهم الدين، والوصول إلى أسرار رب العالمين، والاعتماد عليهم في معرفة سّنة جدهم سيد المرسلين ﷺ لا يغلق أبواب الاستفادة مما رواه غيرهم من الأحاديث النبوية الشريفة، بل ينفتح عليها وضمن ضوابط خاصة تضمن الاطمئنان من صدورها عن النبي الأكرم ﷺ وعدم تطرق أيدي التحريف إليها.

وهذا الانفتاح العلمي ميزة أخرى من مميزات منهجه المعرفي تجعله منهجاً علمياً موثقاً، وتتخذ من هذا الانفتاح سبيلاً لتوثيق وزيادة الاطمئنان بالحقائق المستنبطة من الروايات.

يقول رحمه الله في الباب السادس من كتاب فتح الأبواب وبعد استدلاله بطائفة من الاحاديث الشريفة التي يرويها أهل السنة: «وما

زال أهل الاحتياط من الأصحاب المنصفين إذا اتفق في مسألة لهم روايتهم ورواية غيرهم من علماء المسلمين أن يجعلوا ذلك حجة واضحة ودلالة راجحة على صحة المسألة المذكورة، ويصير العمل به كأنه معلومٌ من دين النبي ﷺ بالضرورة»

وفي هذا النص والرؤية التي يعبّر عنها تنزيه لمذهب أهل بيت النبوة عليهم السلام مما يثار ضدهم من شبهة الاستقلالية عن السُنّة المحمدية في فهم الدين، بل إن التمسك بهم عليهم السلام إنما لكونهم الممثل الكامل الوحيد لجدهم والعارفين بأسراره، وإلا فإن حديثهم هو حديث جدهم كما ورد في أحاديثهم الشريفة.

واستفادات السيد من روايات الجمهور للأحاديث النبوية كثيرة في مصنفاته، وهو يعتبر أن اتفاق الشيعة والسنة في رواية أمر ما كالإجماع، ونلاحظ أن بعض مشايخه في الرواية هم من أهل السُنّة، كالشيخ محمد بن محمود النجار المحدث بالمدرسة المستنصرية الذي أجاز للسيد رواية كل ما يرويه.

أخذ كل المعارف من ينابيع الوحي:

ويتضح من مصنفات السيد رضي الله عنه إهتمامه بالحصول من المرويات الشرعية - قرآناً وأحاديث شريفة - على جميع ما يحتاجه الإنسان من معارف في أبواب العقائد والأخلاق والتربية والأحكام الشرعية، وهو يدعو إلى أخذ الإنسان لدينه كله من النصوص الشرعية واتخاذها معياراً لتقويم كل المعارف، فلا تختص الإستفادة منها بأخذ الأحكام الشرعية فقط، فهي المصدر الأول لجميع ما يحتاجه الإنسان في مختلف سلوكياته.

تأكيد دور التفقّه في الدين

ولكنه إلى جانب ذلك يؤكد بصورة خاصة التفقّه في الدين لأنه جناح سلوك الصراط المستقيم، ولذلك قدّم ذكره على ما عداه من فنون العلوم الأخرى عندما شرع في الحديث لولده عنها وعن مقدار ما يحتاجه منها: «. . . وأن تتعلم الفقه الذي فيه السبيل إلى معرفة الأحكام الشرعية وإحياء سنة جدك المحمدية ويكون قصدك بذلك امتثال أمر الله جل جلاله في التعليم وسلوك الصراط المستقيم، ولا تكن مقلداً لغلمان جدك من العوام، وذليلاً بين أيديبهم لأجل الفتوى والاستفهام، فما يقنع بالدون إلا المغبون. . . وإني لأعلم أنني اشتغلت فيه مدة سنتين ونصف على التقريب والتقدير، وما بقيت أحتاج إلى ما في أيدي الناس لا قليل ولا كثير، وكلما اشتغلت بعد ذلك فيه ما كان لي حاجة إليه إلا لحسن الصحبة والأنس والتفريع فيما لا ضرورة إليه. . .».

اكتساب قدرة الاستنباط:

هنا يدعو السيد - بصراحة - إلى التعمق في الفقه إلى درجة امتلاك القدرة على استنباط أحكام الدين والاستغناء عن تقليد الآخرين، ويعتبر طلب الفتوى نمطاً من الضعف والذلة لا يرضاها إلا

مغبون؛ ومعلومٌ أن امتلاك هذه القدرة الاستنباطية تفتح أمام الإنسان آفاقاً أرحب للتفقه في مختلف أبواب الدين، وفهم النصوص الشرعية والاستهداء بها في مختلف مجالات المعارف الإلهية، وليس في الأحكام الفقهية وحدها، وفي ذلك عونٌ عظيم للإنسان على سلوك طريق الوصول إلى الله تبارك وتعالى، ندرك أهميته من خلال ملاحظة أن المولى الفقيه حسين قلي الهمداني - وهو الموصوف بأنه كان على نهج السيد ابن طاووس - كان يشترط على من يريد دخول مدرسته السلوكية بلوغ مرتبة الاجتهاد - كما يُنقل - وفي ذلك تأكيد: أنّ دعوة السيد ابن طاووس لبلوغ هذه المرتبة موجهة على الدوام لذوي الهمة العالية، ولا تنحصر بعصر السيد الذي كان يصف طريق الوصول إلى هذه الرتبة، بأنه «طريق سهل ما يعجز عنه إلا مسكين ومن همته همة ضعيف مهين» بل هي تعبر عن خصوصية ثابتة في منهجه المعرفي تؤكد أن ثمار هذا التفقه جديرة بتحمّل صعاب الوصول إليه حتى لو لم يعد الطريق سهلاً كما كان عليه، رغم ذلك فإن المطلوب هو الوصول إلى هذه القدرة، لذا فإن الضروري هو الأخذ من علوم المقدمات الموصلة لها بالمقدار اللازم للوصول للهدف، لا لتضييع الوقت في التبحر في المقدمات بما يشغل عن الهدف، كما ينبّه إلى ذلك الفقيه العارف الإمام الخميني (قده) ضمن حديثه عن العلوم اللازمة للحصول على قدرة الاجتهاد في رسالته الخاصة بهذا الباب؛ فالمهم هو الحصول على قدرة فهم النصوص الشرعية وتعرّف لغتها وما ترمز إليه، ومن ثمّ إدراك ما تدل عليه وتهدي إليه.

رفض التقليد:

وخصوصية تأكيد الاجتهاد العلمي ونبذ التقليد في باب الأحكام الشرعية تعبر عن نزعة تحقيقية أصيلة في المنهج المعرفي للسيد ابن طاووس، تتجسد في رفض التقليد لغير المعصوم عليه السلام في الوصول إلى المعارف، وأعمال نعمة العقل لتقويم الآراء واختيار واتباع الأحسن حسب المنطوق القرآني، وهذه النزعة تشكل خصوصية بارزة في منهج السيد تتجلى في مصنفاته كتطبيق عملي كما أنه يصرح بالدعوة إليها، مبيناً مبرراتها وأنّها توقع الإنسان في الأخطاء التي لا يمكن الادعاء بأن غير المعصوم مصان منها، بل إن رسوخ النزعة التقليدية قد تقود إلى تقليد غير الجديرين ثم إلى الضلالة:

«فنعوذ بالله من الضلال وحب المنشأ والتقليد الذي يوقع في مثل الهلاك والوبال»، في حين أنّ الله تبارك وهب الإنسان العقل - وهو الحجة الباطنة - التي يستطيع بها الوصول إلى الحقائق وتقويم الأقوال والآراء؛ ومن ثمّ يكون التقليد في هذه الموارد إحجاماً عن استثمار هذه الحجة والنعمة الإلهية الكبرى ويؤدي إلى حرمان للنفس من الوصول إلى الثمار والسعادات الناتجة من معرفة الحقائق الحقة، ومن الجر المترتب على الاجتهاد في معرفة الحق والرأي الأحسن حتى لو أخطأ ولم يصب، وهذا الأجر غير مترتب على التقليد.

وهذا الحكم يشمل حتى تقليد الصالحين في الآراء التي توصلوا لها، فالتسليم لها دون تدبر فيها ودون السعي لمعرفة صحتها يحرم الإنسان من ثمار قد لا يؤدي إليها اجتهادهم.

يتحدث السيد ابن طاووس عن السعي لتحديد ليلة القدر والحصول على السعادات المترتبة على هذه المعرفة، ثم يقول: «ولقد قلت لبعض من حدثته من الأعيان: لأي سبب ما تطلبون من أول شهر رمضان في الدعوات أن يعرّفكم الله جل جلاله بليلة القدر، فإن الله جل جلاله قد جعلكم أهلاً لمعرفته جل جلاله ، ومعرفة رسوله ﷺ ومعرفة خاصته، وليست ليلة القدر أعظم مما قد أشرت إليه من المعارف، فلم نجد له عذراً يعذر به من ترك طلب هذه السعادة إلا اتباع العادة في أنّهم ما وجدوا من يهتم بهذا المطلب الجليل فقلدوهم ومضوا على ذلك السبيل...».

التقليد يؤدي إلى الحرمان:

بل إنّ التقليد قد يصد الإنسان عن العمل بالحق الواضح، لأنّ الآخرين قد غفلوا عنه أو عرفوه ولم يعملوا به لمصلحة ما، أو عملوا به ولم يجاهروا به لحكمةٍ اقتضتها ظروف معينة، أو لأنّه يتعلق بموضوع مستحدث لم يكن معروفاً سابقاً، نظير ما يذكره السيد من تقديم الدعاء لإمام العصر الحجة بن الحسن (عج) على الدعاء للأخوان والنفس، حيث يقول بعد الاستدلال على رجحان الدعاء لإمام العصر (عج):

«ولا تقل فما رأيت فلاناً وفلاناً من الذين تقتدي بهم من شيوخك بما أقول يعملون، وما وجدتهم إلا وهم عن مولانا الذي أشرت إليه عليه السلام غافلون وله مهملون، فأقول لك: اعمل بما قلت لك فهو الحق الواضح ومن أهمل مولانا وغفل عما ذكرت عنه فهو والله الغلط الفاضح...»

لذا فإنّ نبذ التقليد يمثل في الحقيقة مصداقاً من مصاديق الاحتياط المأمور به لضمان الوصول إلى الكمالات والحقائق الحقة: «فالواجب على كل ذي احتياط واستظهار ترك التقليد وتحقيق الأمور من المجمع عليه...».

وبالطبع فإن الشرع الحنيف قد أقرّ رجوع غير المتخصص للمتخصص وتقليده في فن تخصصه، بل وأوجبه في بعض الموارد، كتقليد غير العالم والمجتهد في استنباط الأحكام الشرعية للخبير المستنبط لها، ولذلك يستثني السيد ما سوغ الشرع التقليد فيه: «...عرف أنه لا يجوز تقليد من يجوز الخطأ عليه فيما لا يسوغ شرعاً تقليده فيه»، ولكن حتى في هذه الموارد لاحظنا السيد يحثّ على تحصيل المقدمات العلمية اللازمة لامتلاك القدرة على استنباطها من النصوص الشرعية، والاستغناء عن تقليد من يجوز عليه الخطأ والوصول إلى المرتبة التي يكون فيها قادراً على الاجتهاد للوصول إلى المعارف بنفسه فيخرج من دائرة الحكم السابق؛ يقول السيد رحمه الله بعد توضيحه لرأي عالم جليل هو علم الهدى السيد المرتضى بشأن دلالة النجوم:

«واعلم أنني لو وجدته رحمه الله مانعاً بالكلية من صحة دلالة النجوم على الوجه الذي أشرنا إليه فإنني لا أرضى بالتقليد لمن يجوز الاشتباه عليه».

تبني أحسن الأقوال:

هذا الاستغناء عن التقليد يعني في الواقع امتلاك القدرة على تقويم الآراء استناداً إلى المعيار الشرعي السليم وتبني الأحسن منها

والعمل به، وهذا ما يدعو له السيد حتى تجاه الآراء التي يتبناها هو ويعرض أدلتها، فهو يدعو قارئه إلى النظر فيها وتقويمها وعدم تقليده فيها - على الرغم من سمو منزلته العلمية - الأمر الذي يكشف شدة تأكيده نبذ التقليد وتبني القول الأحسن بعد النظر فيه، وعدم الاهتمام بكثرة المخالفين، ما دام وصوله إليه ثمرة الاستخدام السليم لنعمة العقل.

يقول ﷺ بعد عرضه أدلته العقلية والنقلية على نفي إقرار الشرع لمعنى «المباح المطلق» أي الأعمال الخالية بالكامل من أدب العبودية لله تبارك وتعالى: «فلا تقلّدني وانظر فيما ذكرتُ فإنه حق بلا ارتياب، ولا تنظر إلى كثرة القائلين بخلاف ما قلت، فأنت مكلف بما يبلغه عقلك ولست مكلفاً في مثل هذا بتقليد القائلين ولو كانوا بعدد التراب».

الاهتمام بدور العقل:

اتضاح الخصوصية السابقة يمهد الحديث عن الخصوصية الأخرى المهمة في المنهج المعرفي للسيد ابن طاووس، وهي شدة الاهتمام بدور العقل الإنساني وثمار استخدامه السليم في الحصول على الحقائق المعرفية، بخاصة أن نبذ التقليد يقوم أساساً على القول بحجية دور العقل، كما يصرح بذلك السيد في نهاية النص المتقدم، حيث يقول: «فأنت مكلف بما يبلغه عقلك».

التزام السيد الصارم بالمنهج النقلي وشدة تعبّده بالقرآن وبما صح والحقائق التي يتوصل إليها من خلال استثمار قواه بصورةٍ سليمة

وطبق القواعد السليمة، بل إنه يعتبر هذه الحقائق والعقل الذي يتوصل إليها حجة على الإنسان، مثلما أن الحقائق التي تهدي إليها النصوص الشرعية تمثل حجة على الإنسان، فكلاهما - العقل والنقل - وسيلتان للوصول إلى الله تبارك وتعالى: «فلما رأيت ذلك بما وهبني الله جل جلاله من أنوار عقل وشرفني من أبصار نقل»، فكل من العقل والنقل نعمة إلهية ينبغي شكرها باستثمارها للوصول إلى الهدف التكاملي المقدس.

احترام نتاجات العقل السليم:

ولذلك يؤكد السيد احترام الحقائق التي يقرّها العقل السليم: «لا العقل ولا النقل يجيز الجحود والمكابرة للأمور المعلومة الظاهرة وجحود أهل الدين (لها) يؤدي إلى الطعن فيما يقولون ويجب أن يصدق الصادق حتى لو كان عدواً...»

فالحكمة ضالة المؤمن يسعى لها وينتفع منها حيثما وجدها، ولكن هذا لا يعني الأخذ من أي كان، والتسليم لأي شخص؛ فالتسليم هو للمعصومين عليهم السلام ولا يصح تقليد غيرهم ولا ينبغي ذلك - كما لاحظنا في الخصوصية السابقة - بل لا يجوز إلا في الموارد التي أقرها الشرع الحنيف. أما التسليم فهو لنتاج العقل السليم وليس للأشخاص: «انظر إلى ما قال ولا تنظر إلى من قال».

توجيه النشاط العقلي:

أجل يؤكد المنهج المعرفي للسيد ابن طاووس اجتناب تضييع نعمة العقل العظيمة في العلوم غير النافعة، ويسخّرها بالدرجة الأولى

للوصول إلى المعارف المعينة له في السلوك إلى الله تبارك وتعالى و«الانتفاع به بما يقربه إلى علام الغيوب» فهو «السلطان الزعيم الذي أمد الله تبارك وتعالى به الإنسان لكي يهديه إلى الصراط المستقيم، وبه وبالحقائق التي يصل إليها وبالتنبيهات القرآنية والهدايات الإلهية والنبوية يقوي ما عند المسترشدين في فطرتهم من معرفة رب العالمين»

ولذلك فهو يؤكد ضرورة استخدامه لمعرفة التكاليف ضمن تأكيد أن موقفه السلبي تجاه علم الكلام وتعقيداته لا يعني نفي دور العقل: «. . . فما أردت ولا أريد به إسقاط وجوب نظر العبد فيما يجب عليه النظر فيه من التكاليف. . . إنني ما منعت من النظر بل النظر واجب على كل مكلّف في كل ما يجب عليه فيه نظره مما لا يدركه إلا بالنظر والتكشيف».

نفي استغناء العقل عن النقل:

وإلى جانب شدة تأكيده حجية العقل وضرورة استثماره للوصول إلى المعارف، واحترام نتائج استخدامه بصورةٍ سليمة يؤكد السيد محدودية دوره إذا كان على نحو الاستقلال، ولذا نلاحظ أنّه يقرن ذكر التنبيه العقلي بالتنبيه النقلي، وهذه حقيقة وجدانية تقرها العقول السليمة، وتبرهن عجزها عن معرفة جميع تفصيلات ما ينفع الإنسان وما يضره، ويستدل السيد بهذه الحقيقة الوجدانية على الحاجة للرسل والأئمة:

«وأنت تعلم يا ولدي محمد من نفسك ومن غيرك أن العقول ما

تقوم بذاتها بكشف مراد الله جل جلاله منها على التفصيل، وبأنها لا بُدّ لها من واسطةٍ بين الله جل جلاله وبينها تدلها إلى مراده جل جلاله في كل ما يحتاج إلى معرفته به من كثير وقليل»، «ولو كان العقل كافياً في الاهتداء إلى تفضيل مصالحهم لما وجبت بعثة الأنبياء».

والعلاج الذي يقدمه المنهج المعرفي للسيد ابن طاووس لمحدودية دور العقل هو تنويره بالمنقول من هداية الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الصادرة عن الرسول الأكرم وعترته الطاهرة عليهم السلام كما يتضح من تتمة النص المتقدم.

وثمة طريق آخر هو أكثر خصوصية يرشد له السيد عند عجز العقول مستقلة عن الوصول إلى المراد أو إذا اشتبه عليها فهم شيء من النصوص الشرعية، وهو اللجوء إلى الله تبارك وتعالى مباشرة:

«ومتى اشتبه عليك شيء من نتائج العقول فالزم الصوم والخلوة والتذلل للقادر جل جلاله على كل مأمول، فإنك تجده جل جلاله كاشفاً لك ما اشتبه عليك، وباعثاً إلى عقلك وقلبك من أنوار هدايته ما يفتح أبواب الصواب لديك...».

الإلهام طريق المعرفة

العلاج الاستمدادي من رب العالمين الذي يقدمه السيد في المقطع المتقدم يفتح الباب للحديث عن خصوصية أخرى مهمة - بل لعلهم الأهم - من خصائص منهجه المعرفي، وهي خصوصية السعي للحصول على المعرفة الإلهامية التي اهتم السيد كثيراً بالحث على الحصول عليها، وتبيان مشروعيتها، وإمكانية حصولها، وسبل تحققها، ومسوغات السعي لها؛ يقول عن مسوغاتها:

«فلما رأيت تدبيري ما هو على مرادي ولا على الأسباب الظاهرة في معرفتي واجتهادي وعرفت أنني لا أعرف جميع مصلحتي بعقلي وفطنتي، فاحتجت لتحصيل سعادتي في دنياي وآخرتي إلى معرفة ذلك ممن يعلمه جل جلاله وهو علاّم الغيوب، وتيقّنت أن تدبيره لي خيرٌ من تدبيري لنفسي، وهذا واضح عند أهل العقول والقلوب... فلما رأيت الملائكة عاجزين وقاصرين عن معرفة تدبيره علمت أنني أعظم عجزاً وقصوراً، فالتجأت إليه جل جلاله في معرفة ما لا أعرفه، إلا من مشاورته جل جلاله في قليل أمري وكثيره... فلما رأيت الأنبياء - الذين هم أكمل العباد في الاصدار والإيراد - قد احتاجوا إلى استدراك عليهم في بعض المراد علمتُ أنني أشد حاجة وضرورة إلى معرفة إرشادي فيما لا أعرفه إلا بمشاورته سبحانه وإشارته...».

الحاجة للمعارف الإلهامية:

المطلوب من السعي للحصول على المعرفة الإلهامية هو التوصل إلى معرفة ما لا يقدر العقل أن يعرفه على نحو الاستقلال أو عندما يشتبه عليه فهم النصوص الشرعية، والهدف الأساسي هو معرفة ما يجعل جميع حركات الإنسان وسكناته مطابقة لما يريده الله تبارك وتعالى له وفي ذلك صلاحيه الأسمى:

«ألهمنا أن يكون مسيرنا وتدبيرنا موافقاً لارادتك وتابعاً لحكمتك في تدبير خلقك. . .»، ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ بشأن اختيار المنازل للمسافر التي لم يرد تحديد لها في الآداب الشرعية المروية:

«إن اختيار المنازل منها ما يُعرف صوابه بالنظر الظاهر ومنها ما يعرفه الله جل جلاله لمن يشاء بنوره الباهر»، وهذا الهدف السامي كافٍ في تبيان مشروعية السعي للمعرفة الإلهامية بل ورجحانها، لارتباطها في ترسيخ تعبيد الإنسان للإرادة الإلهية، وفي ذلك تحقيق الغاية من خلقه ووصوله إلى معارج الكمال.

الإلهام غير الوحي:

أما بالنسبة لإمكانية حصولها للإنسان فإن السيد ابن طاووس يبين أنّها غير الوحي الذي انقطع بوفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فهي تحصل بوجه من وجوه التعريف، وقد ذكر القرآن نماذج لها، مثل قصة أم النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ بشأن التعريف بليلة القدر: «. . . واعلم أنّ الله جل جلاله قادر أن يعرّف بليلة القدر من يشاء كما يشاء وبما يشاء، فلا تلزم هذه العلامة من التعريف واطلب زيادة الكشف من

المالك الرحيم الرؤوف اللطيف، فإنني عرفت وتحققت من بعض من أدركته أنه كان يعرف ليلة القدر كل سنة على اليقين، وإذا جاز من لا يتمكن من التلفظ في الأدعية يطلبها في باقي الشهر، بل يُصرف لسانه وقلبه عن الاختيار الذي كان عليه قبل الظفر بها، وهي رحمة أدركته من رب العالمين، وليست بأعظم من رحمة الله جل جلاله بمعرفة ذاته المقدسة وصفاته المنزهة ومعرفة سيد المرسلين وخواص عترته الطاهرين، وإياك أن تكذب بما لم تحط به علماً من فضل الله جل جلاله العظيم، فتكون كما قال الله جل جلاله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]، فكل المعلومات لم تكن محيطاً بها ثم علمت بعد الاستبعاد لها...».

إذن فلا مسوغ لاستبعاد حصول هذا النمط من المعارف إلا الركون للطبع والمألوف، وإلا فأن نماذج حصولها كثيرة لدى العارفين من غير طبقة المعصومين عليهم السلام ونجد الكثير من مصاديقها في سيرة السيد نفسه يمكن استنباطها عبر التأمل في طيات مصنفاته وقد نقلنا طرفاً منها.

المعارف الإلهامية أشد تأثيراً:

إضافة إلى إمكانية حصول المعرفة الإلهامية - بل حصولها بالفعل للكثيرين - يحث السيد على السعي للحصول عليها من خلال تبيان قوة آثارها في تعبيد الإنسان لربه الكريم، ودفعه للتفاني ابتغاء رضاه:

«اعلم أن العلم بالله تعالى على الكشف ما ينزل عند صاحبه شيئاً من الضعف ولا يبقى عنده صبر على حرمة الله جل جلاله وكذا من

عرف الله تعالى مكاشفة - كما أن أهل الدنيا لا يصبرون على كسر حرمتهم وحرمة من يعزّ عليهم - يكون واقفاً مع إرادة الله تعالى، فإن كان رضا الله في القتل توجه إليه؛ أو في مهما كان من العذاب أقدم عليه. . .».

وسر قوة تأثير المعرفة الإلهامية في حفظ العبد لحرمة ربه العظيم يكمن في كونها معرفة عينية وجدانية لا يتخللها شك ولا لبس:

«وكان من النعم التي أمر الله جل جلاله بالحديث بها والتعظيم لها، أنّه جل جلاله الهمني بطريق لا يحتمل خطر التلبيس ولا يشتمل على كدر التدليس، ومن عرفني بالعيان ونور الإيمان، وجد لسان الحال مصدقاً هذا المقال واستغنى بالوجدان عن إقامة البرهان، وقد أشرت في بعض كتب اغترفتها من بحار كرم المالك اللطيف إلى طرف من كيفية ذلك التعريف وله جل جلاله الحمد الكامل السرمد. . .».

المعرفة الإلهامية لا شك فيها:

فالمعرفة الإلهامية معرفة عينية ومن ثمّ فهي يقينية منزهة عن التشكيك، لأنها ليست إدراكات ظنية تبقى فيها مساحات للشك واحتمالات عدم الصدق، وهي وجدانية يخرج إطار التصديق فيها عن دائرة العقل التجريدي، فيشمل قلب الإنسان وروحه وكل كيانه، ولذلك فمن الطبيعي حينئذٍ أن تكون أشد تأثيراً في دفع الإنسان للعمل بمقتضاها.

وهي ثمرة تطهير القلب وصفاء الروح والنفس - كما سنرى

لاحقاً - لذا فهي منزهة عن أخطار تلبيس الأهواء والرغبات النفسية على الإنسان وتدليسها على العقل، مبرّأة من احتمالات خضوع العقل - من حيث لا يشعر الإنسان - لتلبيسات الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، سواء في الوصول للحقائق بصورة مستقلة أو في فهم النصوص الشرعية المنقولة، ولذلك فهي إذا تحققت شروطها طريق يقيني وليس ظنياً لمعرفة التكليف لمن حصل على هذه المعارف:

«واعلم أن تعريف الله جل جلاله لعباده بشيء من مراده فإنه لا ينحصر بمجرد العقل جميع أسبابه، ولا يدرك بعين الشرع تفصيل أبوابه، لأن الله جل جلاله قادر بذاته، فهو قادر أن يعرف عباده مهما شاء ومتى شاء بحسب إرادته؛ وأعرف على اليقين من يعرف أوائل الشهور وأن لم يكن ناظراً إلى الهلال، ولا حضر عنده أحدٌ من المشاهدين، ولا يعمل على شيء مما تقدم من الروايات، ولا بقول منجم ولا باستخارة، ولا بقول أهل العدد، ولا في المنام، بل هو من فضل رب العالمين الذي وهبه نور الألباب من غير سؤال، والهمه العلم بالبديهيات من غير طلب لتلك الحال، ولكن هو مكلف بذلك وحده على اليقين حيث علم به على التعيين...».

الإلهام مقدّم على نتائج العقل:

ولذلك فإنّ ما يحصل عليه الإنسان بطريق المعرفة الإلهامية مقدمٌ على ما يتوصل إليه عقله، فمثلاً نلاحظ السيد في كتاب «الاقبال» ينقل بعض الروايات بشأن معرفة أول شهر رمضان رغم اعتقاده وحكم عقله بعدم جدوى ذلك لكنه يقوم بنقلها مصرحاً بأن الاستخارة - وهي إحدى سبل الحصول ععلى المعرفة الإلهامية - اقتضت ذلك.

بل إنه مقدم - كما يصرح السيد - على بعض المنقول أيضاً في بعض الموارد في مساحة المندوبات والمستحبات، إذا كان الإنسان أهلاً لهذه المعرفة الإلهامية، يقول رحمه الله بشأن مقدار ما يتلوه من القرآن الكريم في شهر رمضان:

«إعلم أنّه من بلغ فضل الله عليه إلى أن يكون متصرفاً في العبادات المندوبات بأمرٍ يعرفه في سرّه فيعتمد عليه، فإنه كان مقدار قراءته في شهر رمضان بقدر ذلك البيان. وأمّا من كان متصرفاً في القراءة بحسب الأمر الظاهر في الأخبار فإنّه بحسب ما يتفق له من التفرغ والأعذار، فإذا لم يكن له عائق عن استمرار القراءة في شهر الصيام فليعمل ما روي عن وهيب بن حفص عن أبي عبد الله عليه السلام قال...».

وبالطبع فإنّ هذا الأمر والعمل بمقتضاه مشروطٌ ببلوغ تلك المرتبة السلوكية العالية، فهو من مختصات أهل هذه المرتبة؛ كما يشير السيد في بداية النص المتقدم؛ كما أنّ التكليف الناتج عنها مختص بهم.

التزكية لتلقي المعارف الإلهامية:

أما بالنسبة لسبيل الحصول على هذا النمط السامي من المعارف، فهو تطهير النفس وتزكيتها: «هنالك سر عميق نوّر حياة السيد علي بن طاووس رضي الله عنه وأضاء في قلبه إضاءة ساطعة ماكثة لا تغادر، وهذا السر يكمن في طريقة تعرفه على حقائق الوجود وهذه الطريقة تستبعد - منذ البداية - منهج المتكلمين وقواعد علم الكلام، كما تستبعد منهج الفلاسفة العقليين.

منهج المعرفة الإلهية التي فاز بها ابن طاووس هو مبحث مهم من مباحث سيرة هذا الرجل الفذ، وهو منهج حيوي أنيس يعتمد تهذيب الباطن وتطهير القلب والاستئناس بالتعبّد والدعاء والمناجاة، ليصبح قلب الإنسان حينئذٍ محلاً صالحاً لنظر الله الخاص، وموضعاً قدسياً لتنزّل المعرفة الإلهية النورانية من فوق، وهذه هي الحكمة العالية الغالية التي يؤتيها الله سبحانه من يشاء، ومن أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً...».

الطريق للحصول على المعرفة الإلهامية السامية هو إصلاح القلب وتأهيله ليكون وعاءً مناسباً لتلقي الألطاف الإلهية، فالقلب الملوث محجوب بذنوبه عن الانفتاح على الحقائق المعرفية الإلهامية، بل وعلى ما دونها من المعارف العامة؛ يقول رضي الله عنه ضمن إشارته إلى أن الذنوب قد تؤدي إلى إنزال عقوبات تمنع الحصول على بعض المعارف التي كان بالإمكان الحصول عليها بالسبل العادية فلا يبقى سبيل لمعرفتها إلا بالإلهام:

«الهلال قد يُستر عقوبة من الله جل جلاله فيكون الظافر بمعرفة الهلال على اليقين بدلالةٍ من رب العالمين قد تشرّف بما يعجز عنه شكر الشاكرين، والحمد لله الذي جعلنا بذلك عارفين».

ونلتقي هنا بالإلهام وسيلة لتخليص المتقين من الفتن والإبتلاءات العامة.

التفويض طريق للإستلهام:

وإضافة لذلك فإن من السبل الأساسية لاستنزال المعرفة الإلهامية هو تفويض الأمر إلى الله تبارك وتعالى والتوكل عليه والرضا والتسليم

لتدبيره لعبده، فإنّه يفتح على الإنسان أبواب التعريف الإلهامي من الله تبارك وتعالى له بكل ما يحتاجه لصلاحه من المعارف:

«. . . فإنه إذا كان على صفات التفويض على الكمال ألهمه الله جل جلاله ما يرضاه من فعال ومقال، وهذا أمرٌ عرفناه وجداناً وتحققناه عياناً».

وإضافة إلى هذا الإطار العام يبيّن السيد ابن طاووس رَحِمَهُ اللَّهُ العلاجات الشرعية الخاصة لاستنزال المعارف الإلهامية في الحالات الخاصة، نظير الصوم والخلوة والتضرع لله تبارك وتعالى استمداداً منه للهداية إلى الحق عندما يشتبه الأمر على العقول، وقد نقلنا وصيته لولده بهذا الشأن فيما سبق، ولاحظنا كيف أنه يؤكد حتمية استجابة الله عَزَّوَجَلَّ لذلك، ولعل هذا الضمان الواثق يستند إلى التجربة الذاتية للسيد نفسه.

الاستخارة طريق للمعرفة:

ومن هذه الطرق فتح باب استنزال الهداية الإلهية عبر الاستخارات الشرعية الصحيحة، وقد صنف كتاباً كاملاً لذلك هو كتاب «فتح الأبواب بين أولي الألباب ورب الأرباب» وهو أفضل ما صُنف في بابه، وقد أثبت فيه شرعية اللجوء إلى هذا الطريق لفتح قناة الارتباط المباشر بالله تعالى وتعرّف مراده من عبده؛ وهو يؤكد أن العمل بها يحقق المطلوب من المعرفة الإلهامية، وهو أن تكون جميع حركات الإنسان وسكناته طبق الإرادة الإلهية. ويبين عبر تجربته الذاتية الثمار اليانعة لهذا الطريق: «ورأيت الاستخارة أقوى في كشف

بعض الأسرار وأبلغ في الإشارة»، فهي تمثّل وسيلة لمعرفة ما يحتاجه الإنسان للتحلي بصفات العقلاء من التحرك على وفق التدبير الإلهي، وهو التحرك الذي يمثل المصداق العملي للإلتزام بالأدب والتهذيب في التعامل مع الله تبارك وتعالى.

وكلا هذين الطريقين شرعيان، وقد أورد السيد بشأن طريق الاستخارة ما يكفي من البراهين العقلية والأدلة النقلية، ومما لا شك فيه أنّ القدرة على تلقي المعارف الإلهامية تعبّر عن بلوغ مقامات سامية كما يتضح ذلك مما سبق، والعمل بمقتضاها يستنزل المزيد منها، والمطلوب منها هو الهام المواقف الصحيحة أو المعارف الحقة، ولكل ذلك علائم يعرفها أصحابها، والمعيار العام فيها هو صدق التعامل مع الله تبارك وتعالى والثقة بتدبيره لعبده وتفويض الأمر إليه وتطهير القلب وتزكية النفس لكي تكون وعاءً صالحاً لتلقي المعارف الإلهية الحقة وتعرّف أوجه التدبير الإلهي للعبد.

غاية السلوك

الهدف العام من هذا المنهج المعرفي والسلوكي هو إيصال الإنسان إلى الغاية من خلقه، والفوز بالسعادة الحقيقية المتجسدة في معرفته وعبادته والتشرف بخدمته ومراقبة حضوره وبلوغ مراتب الكمال عبر ذلك، وذوبان إرادة العبد في إرادته والاعراض عن كل ما سواه ليبلغ مقام الذين هم.

«في سفر اليقين إليه سائرون، وعلى بساط الأنس والقدس بين يديه متعاشرون، ولما أراد منهم النظر إليه من أنوار جوده وثمار وعوده ناظرون، وصارت إرادتهم وكراهاتهم وحركاتهم صادرة عن تدبير مولاهم الذي هم بين يديه حاضرون، وإليه صائرون، فاستراحوا وسلموا من مواقف يوم الحساب...»[1].

الهدف العام من هذا المنهج السلوكي هو تزويد السالك «بنورٍ يضيء ظلمات المادة ويخرق حجب الغفلات فيقوده إلى مسالك الممالك والتمكين ويجعله يعي وحي العقل والنقل ويفيق من سكرات الغفلة والجهل ويرى وجه كمال الاقبال والاتصال بوصال أفضال مالك الآمال (سبحانه وتعالى)، ويجلس على فراش الأنس بذلك

(١) فتح الأبواب ص ١٠٩.

القدسي ويمسي في خلع روح الأرواح، ويظفر بألوية النصر والنجاح والفلاح...[١].

إذن الهدف العام هو إيصال الإنسان إلى تجسيد المفهوم الكامل لكونه «خليفة الله في الأرض»، فيكون متصلاً به على الدوام متخلقاً بأخلاقه متحركاً بإرادته دائباً في عبادته وخدمته مهتدياً بهداه وهادياً إليه. وقد لاحظنا بعد استقراء تراث السيد وفرز خصوصيات منهجه السلوكي أن هذه الخصوصيات ترتبط بهذا الهدف العام وتتظافر مساعيها لإيصال العبد إليه.

التحلي بالهمة العالية:

أولى الخصوصيات التي تميز بها المنهج السلوكي للسيد ابن طاووس رضي الله عنه هي شدة تأكيده لضرورة أن يتحلى العبد بهمة عالية تزوده بوقود التحرك للوصول إلى هذا الهدف السامي والمقامات والدرجات الرفيعة، فهو يبين للمؤمن عظمة هذه المقامات ويدعوه إلى التحرك باستمرار نحوها، لأن فيها خيره وصلاحه، ويشدد الوصية له بعدم القناعة بالمراتب الدانية والتطلع باستمرار إلى أعلاها وذلك تمشياً مع سنة التربية الإلهية القائمة على نبذ القناعة في الجانب المعنوي خلافاً للجانب المادي.

يخاطب السيد ولده بلغة الوصية قائلاً: «واعلم أن جدك وراماً قدس الله روحه كان يقول لي وأنا صبي ما معناه: يا ولدي مهما دخلت فيه من الأعمال المتعلقة بمصلحتك، لا تقنع أن تكون فيه

---

(١) سعد السعود ص ٢ - ٣.

بالدون دون أحد من أهل ذلك الحال، سواء كان علماً أو عملاً ولا تقنع بالدون. . . وتأدب بما أدب الله جلّ جلاله من كان قبلك من الأنبياء والأوصياء والأولياء وبما قوى عليه من كان دونك من الضعفاء حتى جعله بفضله من الأولياء وجمع له بين سعادة دار الفناء ودار البقاء، فالسابق والمسبوق من أصل واحد ولكن السابق ذا همّة عالية فلم يقنع بدون السعادة الفانية والباقية، وكان المسبوق ذا همة واهية فقنع بالحالة الواهية. . .».

ونلاحظ السيد يؤكد في كتبه أن بلوغ الدرجات الرفيعة ممكن لعموم بني الإنسان، فالأصل واحد والمعين على بلوغ ذرى الكمال هو الله تبارك وتعالى بفضله، وهو الذي أوصل الضعفاء إلى مراتب الأولياء؛ فهو قادر على إيصال من يتوجه إليه بالعمل إلى تلك المراتب، والمطلوب هو التحلي بالهمة العالية في التحرك والثقة بعون الله. أي أن السيد يسعى لبعث الهمة العالية للسلوك إلى الحق تبارك وتعالى في قلب المؤمن من خلال ترسيخ الإيمان بإمكانية الوصول وقيام الحجة الإلهية على الإنسان بمنحه القدرة على هذا التحرك:

«فاعمل عليه ولا تتكاسل عنه فإنما تعمل مع نفسك العزيزة عليك، وإن هونت فأنت النادم، والحجة ثابتة عليك بالتمكن الذي قدرت عليه وإذا رأيت المجتهدين يوم التغابن ندمت على التفريط، خاصة إذا وجدت نفسك هناك دون من كنت في الدنيا متقدماً عليه.».

ومن أساليب السيد رضي الله عنه في بعث هذه الهمة العالية التذكير المستمر للمؤمن بالتكريم الإلهي للإنسان واختصاص الله تعالى له عن

سائر المخلوقات بمقامات مجالسته وتكريمه بمناجاته وعبادته وفتح أبواب التكامل غير المحدود أمامه ومنحه القدرة على أن يصبح ملكاً كريماً، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ ضمن دعوته المؤمن إلى عبادة الأحرار الشكرية في خاتمة حديثه عن أعمال شهر رمضان المبارك وأعمال يوم عيد الفطر:

«اعلم أن يوم إطلاق الخلع من الملوك على الأتباع والأولياء هو يوم اشتغال من رحموه وأكرموه بالحمد والشكر والثناء وحماية جنابهم الشريف وبابهم المقدس المنيف عن كل ما يكدّر صفو إقبالهم أو يغير إحسانهم إليه، فكن - رحمك الله - ذلك اليوم على أتم مراقبة لهذا المحسن إليك المطلع عليك، فكذا عادة العبد الكريم الأوصاف، يكون استرقاقه بالأنعام والإحسان أحسن سريرة وأكمل سيرة من يوم تستعبد فيه العبيد واللئام بالاستحقاق والهوان.

فلا تكن - بالله - مملوكاً لئيماً وقد مكنك أن تكون ملكاً كريماً، فلا أقل من حفظ إقباله عليك ومراعاة إحسانه إليك مقدار ذلك النهار، واختمه تتمة الأبرار الأخيار ببسط أكف السؤال وإطلاق لسان الابتهال في أن يلهمك أن تكون معه كما يريد فيك ويرضى به عنك مدة مقامك في دار الزوال. فليس ذلك بعزيز ولا غريب ممن أنهضك من ذل التراب ونطف الأصلاب حتى عرض عليك أن تقوم له مقام جليس وحبيب، وأهلّك لارتقاء مدارج العبادات والأكرمية عنده جل جلاله بالتقوى الذي هو أس العبادات وأساسها كما يقول عز من قائل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣]، فشمر في ذلك الأمر الجليل وانتهز الفرصة واغتنمها...».

ومن أساليبه رضي الله عنه في بعث الهمة العالية لطي منازل القرب التنبيه لعدم محدودية هذه المنازل وسعة آفاقها وكثرتها، فهي ميدان واسع للسباق والفوز بالمكرمات:

«فاعمل بما ذكرناه ما تقدر عليه ولا تستكثرن لنفسك شيئاً في دنياك ولو كان أضعاف ما يحتاج إليه، فمنازل دار المقام وسيعة تحتاج إلى قماش كثير، والمقام هناك دائم يحتاج إلى استعداد كبير».

ومن هذه الأساليب، التحذير من التهاون ومن عواقبه وترويض النفس بالترغيب والترهيب من فوات الفرصة وانقضاء العمر: «إياك والكسل عن اغتنام أيام المهل والتغافل عن العمل، والموت قد توجه إليك وهو قادم لا محالة عليك، يقطعك عن صالح الأعمال ويكون اسمك بين أسماء الغافلين الخائبين في الآمال، فإن كنت تجد من نفسك نشاطاً وإقبالاً وإلا فذكرها وحذرها وخوفها وعظها فعالاً ومقالاً»[1].

«بادر - رحمك الله - حيث أن الأنفاس باقية والأقدام جارية، وبيدك صحائف أعمالك ليوم الوعيد، يُكتب فيها كل ما تريد، ولا تقنع أن تحشر يوم القيامة وعليك ذلّ أهل الندامة وقد شمت بك من كان عدواً لك في دنياك، وترى من هو دونك الآن متقدماً عليك في أخراك، الهمك الله وإيانا عنايات المطالب وشرفنا بالظفر بما هو - جل جلاله - أهله من المواهب»[2].

وتتكر أمثال هذه المواعظ البالغة - وبلغة تحريضية ملحوظة -

---

(١) جمال الاسبوع ص ٤٤.

(٢) جمال الاسبوع ص ٣٢٦.

في طيات مصنفات السيد رَحِمَهُ اللَّهُ هادفة إلى بعث الهمة العالية لدى المؤمن للإقبال على العبادات والأعمال الصالحة والاهتمام ليس بأدائها وحسب بل والقيام بها بالصورة الفضلى:

«ومن وظائف يوم الخميس أنه يوم عرض أعمال العباد على سلطان المعاد وعرضها على خاصته ونوابه في البلاد. . . فاعمل كما ذكرناه هناك عملاً تقرّ به العين».

والعمل الذي تقرّ به العين هو الخالي من الشوائب والنقصان، وهذا معيار ثابت ومهم يدعو السيد ابن طاووس المؤمنين إلى حصر هممهم عليه:

«اعلم أن أصل الأعمال والذي عليه مدار الأفعال ينبغي أن يكون هو محل التنزيه عن الشوائب والنقصان. . . وجب أن يكون اهتمام خاصته جل جلاله وخالصته بصيام العقل والقلب عن كل ما يشغل عن الرب. فإن تعذر استمرار هذه المراقبة في سائر الأوقات لكثرة الشواغل والغفلات فلا أقل أن يكون الإنسان طالباً من الله جل جلاله أو يقويه على هذه الحال ويبلغه صفات أهل الكمال وأن يكون خائفاً من التخلف عن درجات أهل السباق مع علمه بإمكان اللحاق، فإنه قد عرف أن جماعة كانوا مثله من الرعية للسياسة العظيمة النبوية وبلغوا غايات من المقامات العاليات وفيهم من كان غلاماً ما يخدم أولياء الله جل جلاله في الأبواب، وما كان جليساً ولا نديماً لهم ولا ملازماً في جميع الأسباب، فما الذي يقتضي أن يرضى من جاء بعدهم بالدون وبصفقة المغبون؟

وأقل مراتب المراد منه أن يجري الله جل جلاله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

مجرى صديق يحب القرب منه ويستحي منه وهو حاذر من الأعراض عنه. فإذا قال العبد: ما أقدر على هذا التوفيق وهو يقدر عليه مع التصديق، فهو يعلم من نفسه أنه ما كفاه الرضا بالنقصان والخسران حتى صار يتلقى الله جل جلاله ورسوله وآله عليهم السلام بالبهتان والكذب والعدوان».

وقد تجلت هذه الهمة العالية في التطلع والاجتهاد لبلوغ الدرجات الرفيعة في السيرة العملية للسيد نفسه فكانت الوقود الذي أوصله - بفضل الله جل جلاله - إلى ما بلغه من مقامات سامية كما لاحظنا في القسم الأول من هذه الدراسة، فهو رحمه الله عامل بما يدعو الآخرين له، وهذا أحد أسرار شدة تأثير مواعظه في القلوب، وفاعلية تأثير ما يدعو له، لأنه منطلق من تجربة عملية ذاتية، أي أنه يدعو الآخرين لما شاهد بنفسه آثاره الإيجابية.

شمولية التعبد لله واستمراره

على أرضية هذه الهمة الطموحة العالية التي يسعى السيد ابن طاووس إلى تربية المؤمن على التحلي بها، يدعوه إلى أن يكون عبداً مطيعاً لله تبارك وتعالى في جميع حركاته وسكناته ومختلف شؤونه الفردية والاجتماعية وفي كل آن، فهو يدعو إلى شمولية التعبد لله وديمومته وهذه الخصوصية الثانية من خصوصيات منهجه السلوكي، وهو يدعو لها ويدافع عنها بقوة.

يؤكد السيد أن كل جارحة من جوارح الإنسان خلقت للقيام بطائفة من الطاعات والأعمال الصالحة، وحياتها الحقيقية تتجسد في تسخيرها لهذا الغرض:

«كل جارحة لا استعملها فيما خلقت له من الطاعات صارت بحكم الأموات»، «واعلم أن جوارحك بضائع معك لله جل جلاله وأمانات جعلك تاجراً فيها لنفسك ولآخرتك، فمتى صرفتها في غير ما خُلقت له من الطاعات والمراقبات أو أنفقت وقتاً من أوقاتك في الغفلات، كان ذلك الخسران عائداً إليك بالنقصان ومثمراً أن يعاملك سيدك بالهجران واستخفاف الهوان».

ونلاحظه يعتبر كل غفلة من دوام تجنيد الجوارح في الطاعات ذنباً يستدعي الاستغفار.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ ضمن حديثه عن سلوكه في استقبال السنة الجديدة: «ثم أنني أبدأ بالفعل فأسأل الله جل جلاله العفو عما جرى من ظلمي له وحيفي عليه وكلما هونت به من تطهير القلب وإصلاحه لنظر الله جل جلاله إليه، والعفو عن كل جارحة أهملت شيئاً من مهماتها وعباداتها والاجتهاد في التوبة النصوح من جناياتها والصدقة عن كل حاجة بما تهيأ من الصدقات لقول الله جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]...».

التحرر من الحياة البهيمية:

ولذلك نلاحظ السيد يعتبر التخلف عن هذه المرتبة من العبودية الشاملة والدائمة سقوطاً في حبائل الحياة البهيمية وينقل حواراً طريفاً مع رفاق طريقه في أحد أسفاره بهذا الخصوص، يشتمل على موعظة بالغة مؤثرة، ويؤكد أن التخلص من الحياة البهيمية والانتقال إلى الحياة الإنسانية الكريمة الحقيقية يتطلب الالتزام بعرى المراقبة والمعاملة مع الله تبارك وتعالى في جميع الحركات والسكنات وفي مختلف الأحوال، وبذلك يكون الإنسان ذاكراً لله جل جلاله فعلاً وقولاً في جميع التصرفات وبمختلف الجوارح، فعليه أن تكون له في كل عمل نية امتثال أمر الله تبارك وتعالى قاصداً الخلاص من الحياة البهيمية التي تتجسد في القيام بالأعمال على نحو العادة والتحرك بمقتضى الطبع دون تفكير بطبيعة علاقتها وتأثيرها على الحركة التكاملية الإنسانية؛ في حين أنه مأمور ومكلف بالمعاملة مع الله تبارك وتعالى وإطارها العام والمستمر هو: «طهارة قلبه مما يكرهه مولاه

واستعمال جوارحه فيما يقربه من رضاه، فهذا أمرٌ مراد من العبد مدة مقامه في دنياه».

رفض مقولة وجود المباح الصرف:

وتقوم دعوة السيد ابن طاووس لهذه الشمولية في التعبد المستمر لله تبارك وتعالى على أساس الإيمان بأن الإنسان عبدٌ مملوك لله ولا ينبغي للمملوك التصرف بغير إذن مولاه ورضاه:

«فالأهم المتابعة لمالك الأشياء ولئلا يكون المملوك متصرفاً في ملك مالكه بغير رضاه...»، لذا فالمطلوب منه أن يجتهد في التعرف على ما يرضي مالكه وما يريده له فيعمل بمقتضاه ويهتم بحفظ وتعظيم حرمة الجلالة الإلهية.

من هنا نرى السيد رحمه الله حازماً في رفض مقولة وجود طائفة من الأعمال يصدق عليها عنوان «المباح المطلق» أي أن تكون خالية من أي أدب من آداب تعظيم الجلالة الإلهية:

«وقد كنت ذكرت في عدة مو اضع من تصانيفي أن هذا القسم الذي ذكر كثير من المسلمين أنه مباح للمكلفين وخال من أدب الله على نعمة الله فيه وتدبير الله في بعض معانيه، أنني ما وجدت هذا القسم بالكلية للعقلاء المكلفين بالتكاليف العقلية والشرعية، وإنما يصح وجوده لمن هو غير مكلف من البشر ومن الدواب...».

ويفصل السيد الحديث عن هذه النقطة في كتاب فتح الأبواب مستدلاً على قوله بالعديد من الأدلة العقلية والروائية:

«... إنني وجدت العبد المكلف حاضراً بين يدي الله جل جلاله

في سائر الحركات والسكنات وفي سائر الأوقات، والله جل جلاله مطلع عليه بإحاطة العلم به وبالإحسان إليه، ولله جل جلاله حرمة باهرة وهيبة قاهرة وجلالة ظاهرة ونعم متواترة يستحق من عبده أن يعرفها ويعبده بالقيام بحقها؛ لكونه جل جلاله أهلاً للعبادة بذلك، فلا ينفك العبد من تكليفه بأدب العبودية في سائر المواقف والمسالك، فأي حركة أو سكون يخلو فيها العبد من اطلاع الله ﷻ وإحسانه إليه، ومن لزوم علم العبد أنه بين يدي مولاه وأنه يراه حتى يكون متصرفاً فيها بإباحة مطلقة تصرف الدواب، وتكون خالية من التكليف بشيء من الآداب؟ هذا لا يقبله من نظر بعين الصواب واعتمد على الله ﷻ في صدق الألباب، فإن الإنسان يعلم من نفسه أن على العبد أدباً في العبودية متى كان سيده يراه، لا يجوز أن ينفك العبد منه، أما أدباً قليلاً أو كثيراً بخلاف حال العبد إذا كان سيده لا يراه وهذا واضحٌ لا يخفى على من عرف معناه.

جواب آخر على سبيل الجملة؛ إعلم أنني عرفت أن كل ما في الوجود مما يسميه الناس مباحات لم يزل ملكاً لله تعالى جل جلاله، فلما أطلقه للمكلفين وأجراه عليهم على جهة الإحسان إليهم وكان إطلاقه وإجراؤه مستمراً مع بقائهم؛ وجب عليهم استمرار أدب الاعتراف بحق هذه النعمة والقيام بشكرها، فإذا لم يكن للمكلف انفكاك من استمرار هذه النعم، فكيف صحّ أن يكون نعمة منها مستمرة في وقت من الأوقات خالية من استمرار أدب الاعتراف بها وشكرها حتى تصير تلك النعمة - كما يقولون - خالية من صفة زائدة على حسنها مثل إباحتها لغير المكلفين وللدواب؟ إن القول بذلك بعيد عن الصواب.

أما الجواب الآخر على سبيل التفصيل، فاعلم أنني اعتبرت الذي ربما ذكروا بأنه مباحات كالأكل والشرب ولبس الثياب والنوم ودخول بيوت الطهارات والمشي والركوب والجلوس والتجارة والأسفار والقدوم والنكاح وغير ذلك من تصرفات المكلفين بالمعقولات والمنقولات فما وجدت من هذه التي يسمونها مباحات إلا وعليها آداب من الألباب أو من المنقول في الكتاب أو السنة. . . أما آدب في هيئات تلك الحركات والسكنات أو فيما يُراد منها من الصفات أو في النيات أو بدعوات، وما وجدت شيئاً عارياً للمكلفين وخالياً من أن يكون عليه أدب أو ندب أو تحريم أو تحليل أو كراهية من سلطان العالمين بالعقل أو النقل، وهذا لا يخفى على العارفين، وإنما وجدت المباحات الخالية من الآداب مختصة بغير المكلفين من العباد، وبالحيوانات والدواب. . .»[١].

الطريق لشمولية التعبد:

إذن المقصود من شمولية التعبد لله تبارك وتعالى واستمراره في كل حين أن تكون جميع حركات الإنسان وسكناته صادرة على وفق التدبير الإلهي وبهدف رضاه والتقرب من،ه ويتحقق ذلك بأن يحرص العبد على عدم القيام بأي تحرك على نحو العادة، بل تكون له نية صالحة في امتثال أوامره في كل عمل يقوم به:

«إذا كان مع الله جل جلاله يتصرف بأمره في الصوم والإفطار، في السر والإعلان، فصومه طاعة سعيدة وإفطاره بأمر الله جل جلاله

(١) فتح الأبواب ص ١٦٧.

عبادة أيضاً جديدة. . .»، وكذلك حال الأكل فهو يصبح عبادة إذا كان بنية امتثال أمر الله والاستقواء على الطاعة.

هذا أولاً وثانياً تتحقق شمولية التعبد بالعمل بالآداب والدعوات والأذكار الشرعية الواردة بشأن مختلف حالات الإنسان كما يشير إلى ذلك السيد في نهاية المقطع الذي نقلناه آنفاً من كتابه فتح الأبواب؛ والذي تضمن الأمر الثالث الذي تتحقق به شمولية التعبد واستمراره، وهو حفظ أدب العبودية تجاه اطلاع الله تبارك وتعالى على حال العبد في كل آن والاعتراف بترادف نعمه عليه وشكره تعالى على إحسانه.

وبالنسبة للموارد التي يعجز الإنسان عن معرفة ما يرضي الله فيها، يصرح السيد ابن طاووس بأن الاستخارة سبيل شرعي لمعرفة الاختيار الإلهي للعمل به، فيكون عمله إلهياً يخلص الإنسان من أن يكون تحركه مثل الأنعام بدوافع الطبع والشهوات، وبالطبع فإن هذا الطريق يستلزم توفر الثقة بالله وحسن تدبيره في قلب العبد والاستلهام منه تعالى بالصدق في الدعاء وطلب التسديد الإلهي في الفعل والقول؛ وفي المقابل فإن المطلوب من العبد هو أن يجند عقله وقلبه ويوقفهما على طاعة الله تعالى، فإذا فعل ذلك أخذ الله بيده وأعانه: «إذا كان الرمي بالله ولله يتولاه الله»، يفسر السيد هذه النية من خلال مثال السفر بما يوضح التجسيد العملي لشمولية التعبد لله واستمراره فيقول:

«. . . فنحن نقصد بالسفر أننا نتوجه من الله جل جلاله، بالله جل جلاله، إلى الله جل جلاله، لله جل جلاله ، ونقصد بتفسير هذه النية أن يكون توجهنا من بين يدي الله جل جلاله سالكين أننا في مقدس

حضرته وفي عطايا مملكته، ونقصد بقولنا أو نيتنا بالله جل جلاله؛ أي بحوله وقوته ومواد رحمته، ونقصد حفظه وحراسته وحمايته وخفارته ونصرته بنيتنا إلى الله جل جلاله أننا متبعون في السفر إرادته وسائرون إلى مراده جلال جلاله من عبادته، فنحن في المعنى مسافرون منه إليه، ونقصد بنيتنا أو قولنا لله جل جلاله أن سفرنا خالصاً من ممازجة الطبع وكل ما يخرجنا عن حفظ حرمته وشكر نعمته وتذكارنا أننا في حضرته»[1].

وما يصدق على هذا النموذج يصدق على سائر حركات الإنسان وسكناته.

تفويض الأمر لله:

وإضافة إلى هذه السبل، نلاحظ السيد ابن طاووس يؤكد أن تفويض الأمر لله تبارك وتعالى هو أهم سبل الفوز بهذا المقام التعبدي الشامخ بل هو الأصل الذي تتفرع منه السبل الأخرى المذكورة آنفاً وغيرها، فهو الذي يعين المؤمن على سلوك السبل الأخرى وهو الذي يجعل جميع أفعاله وأقواله صادرة عن التدبير الإلهي وهو الذي يجعله راضياً - ودون أدنى حرج - بهذا التدبير وفي كل الأحوال كما تجلى ذلك وفي أسمى مصاديقه في أهل بيت النبوة عليهم السلام:

«إذا كنت عارفاً بما هم عليهم السلام عليه من ثبوت الاقدام وحال الإخلاص وكمال الاختصاص عرفت بذلك أن كل حركاتهم وسكناتهم ودعواتهم وصلوات حاجاتهم بحسب ما يريده الله جل

---

(١) الأمان ص ١٨.

جلاله منهم ويلقي في قلوبهم وينكت في آذانهم ويلهمهم على قدر كما رضاه عنهم لأنهم لما فوضوا إليه بالكلية بأفضل إخلاص الطوية وقاموا بمراده ورضوا بتدبيره في قليل أمرهم وكثيره، وكان أهلاً أن يقوم الله جل جلاله بتدبيرهم في جميع الأمور ويتولى جميع حركاتهم وسكناتهم في الظاهر والمستور، فإنهم أن قاموا فبفضله ولأجله، وإن جلسوا فبإذنه وبقوله، وإن تحركوا فبتأديبه وإن سكنوا فبتهذيبه. . .».

ومعلوم أن هذه المراتب السامية هي من مختصات المعصومين عليهم السلام كما يؤكد السيد نفسه في المقطع المذكور، ولكنه يؤكد أيضاً - كما سنفصل الحديث لاحقاً - إمكانية الإقتداء بهم وبلوغ بعض درجات مراتبهم ومقاماتهم السامية، لذا فإنّ بإمكان المؤمن أن يتحلى ببعض درجات التفويض لله تبارك وتعالى فيفوز ببعض مراتب استنزال الإلهام الإلهي في الفعل والقول بمعنى أن يكون تحركه صادراً عن التدبير الإلهي، أجل سلوك هذا الطريق والتفويض لأمر الله تعالى يحتاج لكي يعطي ثماره إلى الثقة بتدبير الله وحسن تدبيره، فيستلزم أولاً ترسيخ الثقة به، والاطمئنان إلى أن صلاحه هو في العمل على وفق التدبير الإلهي في جميع شؤونه والثقة بأنه سبحانه وتعالى قادر على أن يبلغك ما هو أهله من مقامات العارفين هذه، فيجعلك تقبل على العمل بكل ما هداك إليه ثقة بحسن تدبيره تعالى، وتطمئن أن تفويض الأمر إليه والتحرك على وفق إرادته كرامة ورحمة ونعمة إلهية جديرة بالتفاني في شكرها كما ينبه لذلك السيد خلال حديثه عن آداب السحور:

«. . . فمنها أن يكون لك حال مع الله جل جلاله تعرف بها أنه

يريدك أن تتسحر وبماذا تتسحر به، فذلك يكون من أعظم سعادتك حيث نقلك الله جل جلاله برحمته من معاملة شهوتك وطبيعتك إلى تدبيره جل جلاله في إرادتك. .».

الثقة بتدبير الله

ويبين السيد أن الثقة بتدبير الله تعالى - وهي مقدمة تفويض الأمر إليه والذوبان في إرادته - ، هي بدورها ثمرة الإيمان العملي بربوبيته ومعرفته وإدراك حاجة العبد إليه وعجزه عن الاستغناء عنه وأن صلاحه في إتباع إرادة ربه الحكيم والرؤوف الرحيم في كل ما يريده لعبده:

«اعلم أنني وجدت تدبير الله جل جلاله لمصالح عباده ما ليس هو على مرادهم بل هو مراده وما ليس هو على الأسباب الظاهرة لهم في المكروه والمأمول، بل هو لما يعلمه الله جل جلاله من مصالحهم التي لا يعلمونها أو لا يعلمون أكثرها إلا من جانبه جل جلاله من جانب الرسول ﷺ . . . وتيقنت أن تدبيره لي خيرٌ من تدبيري لنفسي. . . فلما علمت ذلك وصدقت قائله جل جلاله على اليقين هربت من اختياري لنفسي إلى اختياره لي. . . وعولت على أمره جل جلاله وشريف إشارته وصدقته جل جلاله في أنه لو اتبع الحق هواي فسد حالي ورأيي، فاعتمدت على مشورة الحق وعدلت عن اتباع أهوائي. . . إعلم أنني وجدت الموصوفين بالعقل والكمال يوكل أحدهم وكيلاً يكون عنده أميناً في ظاهر الحال ولا يطلع على سريرته فيسكن إلى وكيله في تدبيره ومشورته، ويشكره من عرف صلاح ذلك

الوكيل، ويحمدونه على التفويض إلى وكيله فيما يعرفه من كثير وقليل، وما رأيت أن مسلماً يجوّز أن يعتقد أن الله جل جلاله - في التفويض إليه والتوكل عليه بالاستخارات والمشورات والعمل بأمره المقدس - دون وكيل غير معصوم في الحركات والسكنات. . . .».

إذن يؤكد السيد ابن طاووس ﷺ أن تفويض العبد لأمر ربه الكريم الحكيم تجسيد لأعراضه عن الهوى والشهوات وتعبير عن إيمانه بحكمة ربه وكرمه وعلمه ورحمته وسائر صفاته الحسنى، وأنه لا يريد لعبده إلا صلاحه الذي لا يعرفه سواه تعالى، وأنه جل جلاله لا يدل العبد إلا على ما يريده له ولا يريد إلا الخير والصلاح، فهو الخير المطلق الذي يهدي إلى ما فيه خير العبد وصلاحه:

«فلولا أن الله جل جلاله أراد ذلك منك ما دلك عليه، وإذا عملت بما هداك الله جل جلاله إليه صارت حركاتك وسكناتك في أسفارك عبادة وسعادة لدار قرارك».

ويبين السيد أن تفويض العبد أمره لربه الحكيم الرحيم وتسليمه لتدبيره هو مقتضى أدب العبودية لربه بعدما دله العقل السليم والفطرة النقية وتصريحات الرسل والأولياء ﷺ أنه تبارك وتعالى أعظم رأفة ورحمة بالعبد من نفسه وأعلم منه بما يصلحه، لذا فإنّ علينا أن نتلقى ما يريده منا «بالقبول ولا نعارض الله جل جلاله ولا نرى تدبيرنا واختيارنا خيراً لأنفسنا من تدبيره»، وعملنا بخلاف ذلك يعني أن في إيماننا بالله وبربوبيته نقصاً وضعفاً، فمثل ذلك هو من سوء العبودية له تعالى وعلامة عبيد السوء هو أنهم جعلوا أنفسهم:

«في مقام شركاء لمالك حياتهم ومماتهم ينازعون إرادته وكراهاته

جل جلاله بإرادتهم وكراهاتهم وزاد سوء العبودية إلى أنهم عزلوا مولاهم عن مقام الإلهية وصاروا لا يرضون من تدبيره إلا ما وافق رضاهم وكأنهم يريدون أن يكون التدبير لهم وإليهم في دنياهم وآخرتهم، فمن يكون على هذا السبيل أو دونه بقليل يكون وجهه أسوداً عند المطلع على أسراره وصحيفته سوداء عند الله وعند الملائكة الحفظة له في ليله ونهاره...».

إذن يؤكد السيد رَحِمَهُ اللَّهُ أن معالجة أعراض العبد عن التفويض لله والتوكل عليه والتسليم لإرادته تكمن في تقوية الإيمان به وترسيخ معرفة صفاته الحسنى في القلب، كما ينبه إلى لزوم أن يكون العبد صادقاً في تفويض الأمر لربه، فلا يتعامل معه على أساس التجربة ورؤية ما إذا كان التفويض يحقق له ما يريد هو، ففي هذا نقضٌ لحقيقة التفويض لأمر الله الأعرف بما يصلحه، لأن التفويض يعني التسليم والرضا بتدبير الله، أي التعامل على أساس التجربة ليس صادقاً في التفويض أصلاً:

«ولكن التفويض والتوكل يحتاج إلى الصدق فيهما وقوة اليقين، وأن يكون المفوض والمتوكل واثقاً بالله جل جلاله وثوقاً أرجح من مشاهدة العين لما تراه، وأنه لا يكره ولا يضطرب عند اختيار الله جل جلاله في شيء من الإصدار والإيراد، فإنه إذا بلغ إلى هذه الغايات تولى الله جل جلاله تدبيره في الحركات والسكنات والاستخارات...».

إن علامة صدق التفويض لله والتوكل عليه هو أن يكون رضا العبد تبعاً لرضا ربه الكريم وليس العكس، أي أن يكون راضياً بما

يهديه إليه الله تبارك وتعالى حتى لو كان مخالفاً لما كان يرغب فيه قبل تلقيه الهداية الإلهية في مورد معين:

«ولولا وجوب التفويض إلى مالك الأشياء لأحببت سؤال عزرائيل في تعجيل مفارقة دار الفناء خوفاً من الشواغل عما يريده الله جل جلاله من عمارة دار البقاء ومن شرف حبه وتحف قربه وطلب رضاه، ولكني فوضت لما يختاره جل جلاله ويراه وحسب المحب أن يسلم زمام مطلوبه إلى محبوه».

ترسيخ معرفة الله ومحبته

وفي هذه الكلمات الناطقة بصدق قائلها قبل إفصاحها عن مضمونها؛ تنبيه إلى عامل آخر من العوامل المؤثرة في إيجاد حالة التفويض المطلوب للرب الكريم جل وعلا؛ وهو ترسيخ محبته في القلب، فالحب قائد للتسليم والمطاوعة للحبيب سعياً لرضاه، وكلما اشتد هذا الحب ضاعف حالة المطاوعة وتسليم زمام التحرك للمحبوب فيندفع لتنفيذ ما يريد مهما كانت طبيعة العوامل المضادة الصارفة عن العمل بتدبير الحبيب كما نلاحظ ذلك في سيرة السيد نفسه، فمثلاً ينقل السيد مخالفته لنصائح عارفين بدلالات النجوم - ورغم تأييد السيد لواقع أن لها دلالات - عملاً بهدايات التدبير الإلهي تفويضاً وتوكلاً على العالم بكل معلوم تبارك وتعالى:

«وما أحضر كم مرة حذرني المنجمون من حركةٍ لي فأقدمت وأمروا بالحركات فأحجمت، كل ذلك بتدبير من عليه توكلت وإليه فوضت وهو حسبي ونعم الوكيل».

إنّ ما يدعو له منهج السيد ابن طاووس (قده) هو أن يؤمن العبد عملياً بربوبية مولاه جلّ وعلا ويفوض أمره إليه ويتوكل عليه وعندها يتفضل ربه عليه بكل ما يريد، ولا يتحقق له ذلك ما دامت همته

متعلقة بإرضاء نفسه أو العباد وما دام سعيه لاعمار دار الفساد وما دام غافلاً عن إطلاع سلطان العالمين عليه وأكثر اهتمامه بدنياه وهواه، وأنى له بلوغ مقام التفويض الكريم مع بقاء حب الدنيا في قلبه وحبها يعمي القلوب والأبصار عن رؤية أبلغ الآيات والكرامات، فكيف يمكن أن يسمح له بالرضا بتدبير الله فضلاً عن تلقي هدايته.

أما إذا رسخ معرفة الله وحبه في القلب وفوض أمره إليه وتوكل عليه أعطاه الله كل ما يريد كما تجلى ذلك في سيرة السيد ابن طاووس رضي الله عنه ونجد في مصنفاته إشارات كثيرة تكشف عن بلوغه مراتب سامية في تفويض أمره لبارئه جل وعلا وظهور آثار هذا التفويض والتوكل في تولي ربه الكريم لأمر عبده الصالح المخلص هذا وهدايته له إلى شمولية التعبد له وتدبيره لأمره وهدايته إلى ما يصلح جميع حركاته وشؤونه ويرقيه في مقامات المقربين وإحساس لذائذها الخالدة التي لا توصف، ولعل في بلوغه هذا المراتب وشعوره بسعاداتها الحقيقية يكمن سر شدة إندفاعه في دعواته المتكررة للآخرين - والواردة في مختلف مصنفاته - إلى الاجتهاد في تفويض الأمر لخالقهم وبلوغ مرتبة أن يكون تحركهم صادراً بالكامل عن التدبير الإلهي ولكي يفوزوا بما فاز به من السعادات الخالدة في عبودية الله وقربه تبارك وتعالى. وهذا التفويض الصادق للتدبير الإلهي يشكل الخصوصية البارزة الثالثة من خصائص المنهج السلوكي للسيد ابن طاووس.

عبادة الأحرار:

الخصوصية الأخرى لهذا المنهج السلوكي التربوي الأصيل هي تأكيد لزوم أن يكون تفويض الأمر الصادق للتدبير الرباني، وهذا

التعبد الشمولي والمستمر لله تبارك وتعالى خالصاً لوجهه الكريم خالياً من أي شائبة من شوائب الطمع بالثواب أو الخوف من العقاب كدافع لأصل التعبد، بل ينبغي أن يكون مصداقاً لعبادة الأحرار حسب تعبير الأحاديث الشرعية، وهذا ما يشدد عليه السيد بأبلغ عبارات التأكيد دون أن يعني ذلك الدعوة إلى الغاء عاملي الطمع والرجاء والرغبة بما عند الله جل جلاله والخوف والرهبة من عقابه والإشفاق من هيبته، فهذان عاملان تربويان أساسيان لا غنى للمؤمن السالك عنهما في طيه معارج التكامل والتقرب إلى الله تبارك وتعالى، وهما من صفات المتقين، وقد حثت على التحلي بهما الكثير من النصوص الشرعية المعروفة، ونلاحظ في التراث الفكري للسيد أنه يشدد - وتبعاً للنصوص الشرعية - على لزوم التحلي بهما لكنه في الوقت نفسه يشدد على أن لا يكونا دافعاً للعبادة، بل ينبغي أن يكون المؤمن راجياً لفضل الله خائفاً من عقابه وهو يعبد ربه الكريم بدافع كونه أهلاً للعبادة مخلصاً في ذلك بالكامل فتكون عبادته خالصة لوجه الله جل جلاله أي لمجرد أنه أهلاً للعبادة.

ويلاحظ المراجع لمصنفات السيد في العبادات - الفرائض منها والمندوبات - أنه حيثما ذكر نية العبادة نبّه العابد إلى لزوم أن تكون نيته على هذا النحو:

«أقوم بهذه العبادة - ندباً أو وجوباً - لله جل جلاله لأنه أهلاً للعبادة».

فهو يعتبر تأكيد أن يكون الدافع للعبادة هو أن الله تبارك وتعالى مستحقاً لها هو جزء من نية العبادة.

يقول (قده): «أما نية الصلاة؛ فإنك إن كنت عبداً معاملاً لله جل جلاله في جميع الحركات والسكنات؛ عارفاً بمعنى قوله جل جلاله في محكم الآيات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فأنت إذا كنت كذلك لا زلت متهيئاً لأوامره فتمتثل أمره بالصلاة، وتعبده لأنه مستحق العبادة لذاته. . . ».

بل ويصرح السيد بعدم صحة العبادة إذا لم تكن بهذه النية:

«والذي وصل إليه معرفتي أنه لا تصح العبادة على التحقيق واليقين إلا إذا كانت العبادة لله جل جلاله خالصة لأنه أهل للعبادة من غير التفات إلى ثواب عاجل ولا آجل، فهو جل جلاله أهلٌ لذلك، وما يحتاج العبد معه إلى رشوة في العبادة إن كان من العارفين. . .».

أو هي على أفضل تقدير عبادة ناقصة:

«فكل من حج لأُجرة أو لنفع عاجلٍ أو آجل أو لطبع أو صورة غافل أو متغافل، فحجه أما باطل أو غير كامل».

لكنه على أي حال يشدد الوصية على المؤمن أن لا يكون دافعه للعبادة أو الطاعة أو أي عملٍ صالحٍ يقوم به السعي للحصول على ثوابه بحيث لولا هذا الثواب لما قام بالعمل الصالح ولما تعبد ولا أطاع، لنلاحظ هذه اللغة المشدّدة في خطابه التالي لولده بشأن طاعة الله في الإنفاق والزكاة:

«وإياك أن تخالف قولي! لا تطلب ثواباً أصلاً؛ لأن من ابتدأك بالإحسان قبل معرفتك به وخدمتك له وجعلك لذلك أهلاً، هل يقبل العقل أن لا يعطيك بعد المعرفة جزاءً وكرماً وفضلاً؟ بلى والله

ليعطين المخلصين له والمؤدين به عطاءً جزيلاً حتى يروا أعمالهم لا تقوم ببعض عطائه، كلا والله كلا...».

إذن فالثواب والفضل والإحسان الإلهي الذي يرجوه العبد من ربه الكريم متحقق وبأفضل صوره للمخلصين الذين لا يعبدون الله تبارك وتعالى بدافع الحصول على ثوابه ولو كان دافعهم للعبادة الحصول على هذا الثواب لما كانت عباداتهم وأعمالهم جديرة بحصول العبد على عشر معشار ذاك الفضل العميم والثواب الجزيل للمخلصين لله في عباداتهم؛ هذا على فرض أن تحظى بالصحة والقبول.

التخلص من عبودية النفس:

ولذلك نرى السيد رضي الله عنه يؤكد أن عبادة الأحرار المندفعة من كون الله تبارك وتعالى أهلاً للعبادة والطاعة هي السبيل الوحيد للوصول إلى السلامة والسعادة الحقيقية بالتخلص من عبودية ما سوى الله تبارك وتعالى:

«اعلم أنه ينبغي أن يكون العبد صادقاً في قوله «إياك نعبد» ومعنى قولي أن يكون صادقاً، لأنه إذا قال: «إياك نعبد» وكان إنما يعبد الله جل جلاله لما يرجو منه سبحانه من نفع عاجل أو ثواب آجل أو دفع محذور في الدنيا أو في يوم النشور؛ فإنما يكون على الحقيقة كأنك تعبد نفسك وتكون عبادتك لأجلها ولأجل شهواتك ولذاتك، ولا تكون «عابد الله» جل جلاله لأنه أهل للعبادة، فيكون قولك «إياك نعبد» كذباً وبهتاناً ومانعاً لك من الظفر بالسلامة والسعادة، ويثبت اسمك في ديوان الكذابين ويكون قد جعلت نفسك من الهالكين...».

وعليه يتّضح أن عبادة الأحرار - أي الخالصة لله - تنقذ الإنسان من عبودية النفس وأهوائها ولذاتها ورغباتها لان العبادة إذا كانت بدافع الحصول على الثواب أو دفع العقاب فهي تمثل في الحقيقة وسيلة لتحقيق أماني النفس ورغباتها فلا تكون خالصة.

يقول السيد رحمه الله في إحدى مواعظه وهو يتحدث عن عبادة الأئمة المعصومين عليهم السلام: «... ويكفيك ها هنا أنهم صلوات الله عليهم ما عبدوه خوفاً من ناره ولا شوقاً إلى جنته بل وجدوه أهلاً للعبادة فعبدوه لخالص عبادته، وأنت لولا الآمال العاجلة والآجلة لعلك ما عبدته ولا كان لك همّة إلى عبادته بفريضة ولا نافلة، فأنت في المعنى والتحقيق تعبد شهوتك ولذتك كالضال على غير التوفيق، فأين أنت من عبادة أهل التصديق..».

من هنا نفهم سر تسمية النصوص الشرعية لها بأنها عبادة الأحرار فأصحابها تحرروا من جميع العبوديات سوى عبودية ربهم الحق تبارك وتعالى، وعلامة صدقهم في ذلك أنهم يرجحون ويؤثرون رضاه على كل من سواه حتى النفس: «وإنما يُراد منك أنك تعتقد أنه جل جلاله واحد في نفس الأمر وأنه لا إله لك تعبده سواه ولا لك شيء تؤثره على رضاه فإنك إن آثرت شيئاً عليه جل جلاله كان ذلك الذي تؤثره أرجح منه جل جلاله عندك ومعبوداً لك من دونه فيما تؤثره فيه عليه وما تكون كامل الصدق في الشهادة بأنك لا إله لك سواه...»[1].

---

(١) فلاح السائل ص ١١٧.

عبادة أهل التصديق:

وعبادة الأحرار هي التي تنقذ الإنسان بالكامل من الحياة البهيمية، لأن عبادة الله لمجرد استجلاب النفع ودفع الضرر تعبّر عن مرتبة من مراتب الحياة البهيمية، لذا فأصحاب الهمة العالية تأبى أرواحهم الكريمة عن ذلك وتتطلع إلى العبودية الكريمة التي تعبر عن الصدق في التعامل مع الله سبحانه وتعالى كإله معبود وحده لا شريك له وهي عبادة «أهل التصديق» باستحقاق الله وحده للعبادة لأنه هو الخالق الرازق الذي أنعم على الإنسان بكل خير و«أن كل معبود دونه يشهد ضعفه عليه أنه لا يجوز عبادته ولا الاشتغال به عمن فطره وقوّاه».

ويؤكد السيد ابن طاووس - بكثرة ملحوظة - على أن أهلية الله جلّ وعلا للعبادة ناشئة من كونه هو المنعم على الإنسان، والعبادة هي وسيلة شكر المنعم؛ وكذلك شكره تبارك وتعالى على فتح أبواب عبادته وطاعته لعبده، فينبغي الإندفاع للقيام بها شكراً لله على نعمه هذه الخاصة والعامة ولذلك عبّرت النصوص الشريفة عن عبادة الله لأنه أهلاً للعبادة بأنها عبادته شكراً له.

وأكثر من ذلك يؤكد السيد أن فتح أبواب العبادة ممن هو أهلاً لها أمام العبد تشريف له، وتكريم والتكريم يستحق الشكر وليس طلب الأجر، أي أن السيد يؤكد - إضافة إلى النهي عن أن تكون العبادة بدافع طلب الثواب أو دفع العقاب - أن لا يطلب المؤمن أجراً على عبادته إخلاصاً لربه:

«وينبغي يا ولدي محمد أسعدك الله جل جلاله بإقباله ومكاشفة

جلاله، أن تعتقد أن يوم تشريفك بالتكليف كان من أعظم أيام الأعياد، وأن وقت تعريفه لك بعظمته واستخدامك في طاعته كان من أشرف أوقات الأسعاد والأرفاد كما قدمناه، فإياك أن يخطر ببالك ثواب أو جزاء على طاعتك أو خدمتك. فإنك ترى العقول قاضية بأن السلطان الكامل الذي يرجى إحسانه بالتقرب إليه يرشى وتبذل النفوس والرؤوس في التقرب منه والإنفاق عليه، فتعلم أن كل من أحسن إحساناً كثيراً إلى عبد من العباد فإنه يجد من نفسه لزوم خدمته والوفاء له ومتابعة إرادته بغاية الإجتهاد، فلأي حال كان الحال مع الله جل جلاله في العقول دون هذه الحال؟! تعالى الله جل جلاله عن المقابلة بهذه الضلالة»[١].

شرط تحقيق الإخلاص في العبادة:

من هنا يتضح مغزى تأكيد السيد أن عبادة الأحرار هي شرط تحقق الإخلاص في العبادة، وتحقق الإخلاص هو شرط حصول العبد على الفضل والثواب الموعود به كأجر على العبادات، وبعبارة أخرى فإن هذا الفضل العظيم مذخور للذين يندفعون لعبادة الله لأنه أهلاً لها، لا طلباً للثواب و«هذه عقبة صعبة تبعد السلامة منها»، ولكنها جديرة بأن يجتهد المؤمن في تخطيها مهما كانت صعابها فهي تهون في مقابل المراتب السامية من القرب التي يصلها بإخلاصه في عبادته لربه الكريم:

«وكن صادقاً في إخلاص العبادة بها والإقتفاء لآثارها واجتهد في

---

(١) كشف المحجة ص ٧٧.

تحصيل ما ترجو من الله جل جلاله بالإهتداء بأنوارها من شرف الإخلاص وتحف الإختصاص».

وعليه يتبين أن الفوز بهذه المراتب السامية من الإخلاص في العبادة هو نعمة إلهية جليلة تفتح أمام المؤمن آفاقاً واسعة للتكامل وطي مراتب الكرامة الإنسانية والفوز بشرف الإخلاص. ولذلك نلاحظ شدة اهتمام السيد على هداية المؤمن على سبل الفوز بهذا الإخلاص النقي في نية التعبد لله تبارك وتعالى.

وأهم هذه السبل التي ينبه لها السيد هو ترسيخ المؤمن معرفته بربه العظيم وكمال صفاته وعظمته لأن رسوخها في القلب يعمق فيه الشعور بأهلية الله تعالى للعبادة، ولذلك نلاحظ السيد يهتم - في تعليقاته ومواعظه المتناثرة في كتبه العبادية - بتعريف القارىء بمظاهر كمالات الله ﷻ وعظمته وكرمه وحكمته وكل ما يبعث في قلب المؤمن الشعور الوجداني بالتوجه إلى الله بالعبادة لأنه أهلاً لها؛ كما أن العلم بالله يقوي العبد على الإقبال على عبادته.

ومن هذه السبل التذكير بالأنعام والإحسان الإلهي لأن تذكر الإنعام الإلهي يفجر في الإنسان النوازع الفطرية لشكر المنعم فيندفع لعبادته شكراً له دون التفات إلى طلب الثواب أو دفع العقاب وهو يؤكد أن سبق الله تعالى للإنسان بالأنعام والإحسان والتدبير موجب لإقبال العبد على عبادة ربه المحسن شكراً له.

ومن هذه ترسيخ محبة الله جل وعلا في قلب المؤمن، والمحبة ثمرة المعرفة بمظاهر جلاله وجماله وصفاته الحسنى، حيث أنّ المحبة تجعل المحبوب هدفاً للمحب يتوجه إليه ويغفل عما سواه

وتدفعه إلى طاعته والإقبال على عبادته وخدمته سعياً لرضاه وقربه دون الإلتفات إلى طلب الأجر على العبادة.

إن الذي يبلغ هذه المراتب السامية من الإخلاص لله تبارك وتعالى وعبادته لأنه أهلاً لها يتذوق اللذائذ العظيمة لقرب الرب الكريم، ويدرك أن طلب الثواب أو دفع العقاب بالعبادة لله يحجبان الإنسان عن السعادة الحقيقية، وقد بلغ السيد هذه المقامات السامية ولذلك اندفع بقوة لتحذير المؤمنين من هذه الحجب الصادة لهم عما لا عين رأت ولا أُذن سمعت من الفضل الذي أعده الله قرة عين للمخلصين الذين يعبدونه بإخلاص، يقول ﷺ في حديث كاشف عن بلوغه تلك المقامات وحرصه لبلوغ الآخرين لها:

«فإنني لما رأيت بما وهبني الله جل جلاله من عين العناية الإلهية في مرآة جود تلك المراحم والمكارم الربانية، كيف أنشأني ورباني وحملني في سفن النجاة... وهداني إلى معرفته... وعرفني مراده جل جلاله مني وكاشفني عقلاً ونقلاً عما يرضيه عني وجدت المنة له جل جلاله في هدايتي لسعادتي في إخلاص العبادة لذاته من غير تعلق خاطر بطلب هباته أو خوف نقماته وتيقنت أنه جل جلاله ملك حياتي ولم يزل أحق بها مني، وكان جل جلاله أهلاً لأن يشغلني عظم جلاله وإقباله علي، وهل كان للألباب عدول عن هذا الباب لأن معرفة ذاته وصفاته ولزوم أدب حضرة وجوده ومراداته ومناجاته كانت قبل المعرفة بالثواب والعقاب.

فكل عاقل عارف بهذه الأسباب يعبده لأنه جل جلاله أهل للعبادة وهل كان ذلك الكمال والجلال يحتاج إلى بذل رشوة من

ثواب أو تخويف من عقاب عند المعترفين له بحق الملكية والسيادة؟! حوشي ذلك المالك الأعظم من أن لا يرغب مملوكه في حبه وقربه وخدمته إلا بالرشوات، بل يجب على مماليكه أن يبذلوا المجهود في قبولهم وتأهيلهم للخدمة والعبادات، فالعقول السليمة مشغولة بما لزمها بمعرفته من حق إنشائه وتربيته وهدايته ومغرمة بحفظ وجوده وهيبته ومتشرفة بما خلقها له من طلب كمال معرفته وعبادته.

ولقد وجدت من السعادة والإقبال بهدايته جل جلاله وما عرفني من ملاطفته ومكاشفته ولذة مشافهته المنزهة عن كل ما لا يليق بكمال ربوبيته ما لا أقدر على وصفه بمقال».

ترسيخ التوحيد الخالص:

إنَّ الإهتمام البالغ الذي يبديه السيد بإخلاص النية في العبودية لله تبارك وتعالى وتشديده الدعوة للمؤمن للجهاد في الوصول إلى مراتبه يرتبط بخصوصية أخرى من خصائص منهجه السلوكي هي خصوصية تعميق التوحيد الخالص لله جل جلاله في روح السالك إليه ثم في جميع سلوكياته، فلا يرجو إلا الله ولا ينظر إلى غيره ولا يرى سواه فاعلاً في حياته فلا يتوجه إلى غيره في أي شأن من شؤونه، فهو موحد له في العبودية وفي الربوبية، وإذا توجه إلى شيء من الأسباب فلا ينظر إليها على نحو أنها مستقلة في التأثير بل ولا يتكل عليها أصلاً إلا بالمقدار الذي يتعبد به لله ويمتثل أمره:

«والمهم في حمل الآلات واتخاذ الرفقاء في الطرقات أن يكون قصد المسافر. . . امتثال أوامر سلطان الحساب والعمل بمراسم

الآداب وحفظ النفس على مولاها الذي خلقها له في دنياها وأُخراها، **أقول**: وإياها أن يتعلق قلبه عند الاستعداد بالعدة والأجناد مع ترك التوكل على سلطان الدنيا والمعاد... ولا يعتمد على الآلات فارغ القلب من الخالق لها والمنعم بها والقادر على أن يغني عن كثير منها، بل يكون القلب متعلقاً على الله جل جلاله مشغولاً به جل جلاله عنها ليكون كما قال جل جلاله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطَّلَاق: ٣] فيقوّي الله جل جلاله قلبه ويشد أزره ويكمل نصره».

وتسري دعوة السيد للإخلاص التوحيدي على أسمى هذه الأسباب وأعظم الوسائل إلى الله كالمعصومين عليهم السلام

يقول رحمه الله ضمن حديثه عن آداب زيارة سيد الشهداء عليه السلام ليلة النصف من شعبان: «ومن أهم المهمات؛ إخلاص الزائرين في هذه وتطهير النيات وأن تكون الزيارة لمجرد أمر الله جل جلاله، فالعبادة له جل جلاله بها والطاعة له في الموافقة له في التعظيم لها ويكون إذا زار مع كثرة الزائرين، فكأنه زار وحده دون الخلائق أجمعين فلا يكون ناظره وخاطره متعلقاً بغير ربّ العالمين...».

وعلامة كون ناظر المؤمن وخاطره متعلقاً بربه الكريم هي حرصه على دوام التوجه له والعمل بجميع أوامره حينما يقصد التوسل بالوسائل إليه ومهما كانت مقدسة.

ينقل السيد: «ولقد كنا مرة يا ولدي في طريق مشهد الحسين عليه السلام، وكنا متيممين فنحتاج أن نصلي بالنوافل والفرائض بحسب ما هدانا الله جل جلاله إليه، فصار الرفقاء يستعجلون، فقلت لهم: نحن نقصد

الحسين عليه السلام لأجل الله جل جلاله أو نقصد الله جل جلاله لأجل الحسين عليه السلام ؟! فقالوا: بل نقصد الحسين لأجل الله تعالى، فقلت لهم: فإذا ضيعنا في طريق الله جل جلاله الذي نقصد الحسين عليه السلام لأجله، فكيف يكون حالنا عند الحسين عليه السلام، وبأي وجه يلقانا هو ويلقانا الله جل جلاله عند الحسين عليه السلام إذا تعرضنا لفضله؟...».

المراقبة واستشعار الحضور الإلهي

ومن الوسائل المهمة الموصلة لهذه المرتبة من التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى هو الاستشعار الوجداني المستمر للحضور الالهي ودوام إطلاعه ﷻ على حركات عبده وسكناته وفي جميع شؤونه، وهذا الأمر بدوره يشكل خصوصية بارزة أخرى من خصائص منهج السيد في السلوك إلى الله تمحورت حولها الكثير من مواعظه وتعليقاته، والهدف من هذا الاستشعار هو إعانة العبد على التحلي بفضيلة المراقبة لربه بمعنى أن يحفظ حرمة إطلاع ربه على حركاته وسكناته، بأن يجعل جميع هذه الحركات طوع إرادة ربه ساعياً فيها لمرضاته مجتنباً لما يسخطه، فيفوز بمقامات المقربين العابدين لله بدوام وشمولية.

كما أن المهم في هذا الاستشعار الوجداني للحضور الإلهي هو الاستذكار الدائم لمظاهر ربوبيته تعالى التي لا بقاء للعبد بدونها:

«إن أصل ما أنت فيه أن تكون ذاكراً أنك بين يدي الله جل جلاله وأنه مطّلع عليك، وأنك كل ما تتقلب فيه هو من إحسانك إليك... وأنت محتاج إلى جميل صحبته ورحمته... ومن ذا يحميك منه أن أعرض عنه أو أعرضت عنه؟ ومن الذي يحفظ عليك إذا ضيعت

نفسك وكل ما في يديك؟! ومن الذي إذا أخرجته من قلبك تتعوض به عن ربك جل جلاله؟ فأريد من رحمته أن يملأ قلبك من معرفته وهيبته ورحمته، ويستعمل عقلك وجوارحك في طاعته...».

كما أن هذا الاستشعار الوجداني لكون الإنسان في حضور ربه يعينه على التحلي بفضيلة الصدق في التعامل مع ربه الجليل ولا يخالط في إدعاء ما ليس فيه، والسامع مطلع على ما في قلبه، كما أنه يعينه على حضور القلب والتوجه إليه تعالى فيما يقوم به من أعمال وعبادات.

المحاسبة والاستظهار بالاحتياط:

وواضحٌ أن تحقق آثار المراقبة في حفظ حرمة المحضرالإلهي والاستشعار الوجداني لحضور الله جل جلاله مشروط بأن يتحلى المؤمن بفضيلة المحاسبة لكي يضمن إنطباق تحركاته مع إرادة ربه جل وعلا، وهذه خصوصية أخرى في المنهج السلوكي للسيد يؤكد لزوم اهتمام المؤمن بالعمل بها إذا أراد الفوز بالمقامات السامية للعبودية، وهو يؤكد أن المحاسبة تنقذ العبد من الغفلة وتنجيه من العقوبة الإلهية على المعاصي فهي تقود المؤمن إلى كرامتين، أما معرفة التقصير والذنب فيجبرها بالتوبة النصوح، وأما تذكر الطاعة فيكملها بحمد الله عليها فيفوز بكرامة الشكر لله وينجو من العجب بالعمل.

ونلاحظ أن السيد يؤكد اتساع نطاق المحاسبة للنفس ليشمل عقائدها وصدق إيمانها إضافة إلى محاسبتها على الأعمال التي تقوم بها.

ولأن المحاسبة للنفس تعين المؤمن على معرفة عيوب أعماله ونقائصها وتقصيراته، فإنها تدفعه إلى التزام عرى الاحتياط في أعماله، وهذه خصوصية مهمة أخرى لمنهج السيد في السير والسلوك إلى الله تبارك وتعالى يؤكد بكثرة ويعتبرها من كمال العقل: «وما زال الاستظهار والاحتياط في طلب المجاب من كمال ذوي الألباب»، والهدف الأول من هذا الاحتياط هو الاستعانة به: «إحتياطاً واستظهاراً فيما يقرب إلى مالك يوم الحساب، وما يزيد في حفظ النفوس المشغولة بمالكها رب الأرباب».

أهمية الاحتياط بالنسبة للسالك إلى الله تنبع من أهمية الهدف السامي الذي يسعى له، وهو جدير بأن يستخدم كل الوسائل الممكنة الضامنة للوصول وأبرزها الاحتياط لأنه يعبر عن صدق وجدية العبد في التحرك إلى الله تبارك وتعالى: «لأن الاستظهار والاحتياط للمبادرة إلى العبادات والطاعات قبل الفوات من دلائل العنايات» ويصرح السيد في الكثير من الموارد بأن سبب نقله لروايات عدة مختلفة في الألفاظ بشأن أعمال عبادية ترتبط بموضوع واحد هو الاحتياط في أمر الدين لضمان الوصول إلى المطلوب والآثار المترتبة عليها في التقريب من الله تبارك وتعالى.

الأعمال العبادية وسائل للقرب:

وقضيةالاحتياط في نقل الروايات المتعددة في أبواب العبادات تنقلنا للحديث عن خصوصية بارزة أخرى من خصائص منهج السيد ابن طاووس في السلوك إلى الله جل جلاله، وهي الاهتمام بالأعمال العبادية بالمعنى الخاص من أدعية وأذكار وصلوات وصيام ومندوبات

أخرى لمختلف حالات الإنسان وشؤونه وأوقاته، وهذا الأمر مشهود في مصنفات السيد ﷺ إذ أن أغلبها تهتم بهذا الجانب، وقد جمع فيها ما ورد عن أهل بيت النبوة عليهم السلام من روايات بشأن هذه الأعمال، وهي في الواقع تمثل مناهج عملية للسلوك إلى الله تعالى تمتاز بشرعيتها ونقائها لكونها صادرة عن الهداة إلى الله ومعادن الوحي الإلهي عليهم السلام، لذا فهي جميعاً نافعة وأدوية ناجعة ووسائل ناجحة لأنها صادرة من أطباء الأرواح، يُضاف إلى ذلك الأعمال من العبادات التوقيفية التي لا يصح أخذها سوى من ينابيع الوحي.

السيد ابن طاووس جمع هذه الأعمال وحفظها من الأصول المروية عن الأئمة عليهم السلام والتي ضاع الكثيرمنها بسبب الفتن والمحن التي مرّ بها المسلمون وكان له بذلك «حق عظيم على كافة المسلمين بما دلهم في تصانيفه إلى معرفة رب العالمين ورسوله النبي الأمين وأوصيائه الأئمة الميامين عليهم السلام وبما أرشدهم إلى طريق العبودية وكيفية السيروالسلوك إلى الله تعالى... آخذاً جميع هذه التعليمات عن معادن العلوم اللدنية وأهل بيت الوحي والعصمة المروية عنهم في الأصول والكتب المعتبرة التي هيأها الله تعالى له ولم يصل إلينا منها إلا النزر اليسير...» كما يقول العلامة الشيخ محمد محسن الشهير بآقا بزرك الطهراني ويضيف في مكان آخر مصرحاً بأنه: «يكفي لكل مؤمن مريد للوصول إلى قرب ربه التوصل بطريق ارتضاه الشارع وأثبته ابن طاووس في كتبه».

إذن هذه الأعمال العبادية - بالمعنى الخاص - هي مناهج السلوك والتقرب إلى الله تعالى وهي غاية خلق الإنسان، وهي أسمى

مصاديق الشكر لله تعالى على نعمه الجليلة التي أحاط بها الإنسان، ومن أسباب الصواب التي هيأها الله جل جلاله لعبده وبها شفاء الإنسان من الأمراض وأسقام الإنسان ونقائصه في الدين والدنيا وبها يفوز العبد بزيادة اليقين والمعارف الإلهية، وهي وسيلة معالجة أمراض العبد القلبية ومن ثم فهي وسيلة تطهيره وجعله يفوز بشرف الإخلاص لله تعالى وتحف اختصاصه تبارك وتعالى للعابدين له. وهي وسيلة الفوز بأنواع الثمار والبركات الدنيوية والأخروية الكثيرة التي تذكرها الأحاديث الشريفة، وهي عظيمة ينهى السيد عن استبعادها لكنه يؤكد أن حصولها مشروط باجتهاد العبد في إخلاص النية في القيام بها والتوجه إلى الله بحضور قلب والصدق في معاملة الله بها وتطهير القلب من الشواغل حين القيام بها، لأن الشواغل تحرم العبد من الإحسان الإلهي، ولأنه تعالى إنما يعطي الجوائز بقدر التزام أدب العبودية بين يديه والإخلاص في الإقبال عليه، والتحقق بمعاني الأعمال العبادية، وغير ذلك من شروط وآداب عبادة الله.

الجمع في حفظ الظواهر والأسرار:

ويُلاحظ في تعليقات السيد ومواعظه التي يوردها إلى جانب روايات الأعمال العبادية التي ينقلها في مصنفاته شدة اهتمامه بتنبيه المؤمن إلى اسرار هذه العبادات ودعوته إلى تجسيد مضامينها عملياً والتحقق بها مع حفظ الشكل الظاهري لها والإلتزام بآدابها بصورةٍ دقيقة، أي أنه يدعو إلى الجمع بين الالتزام بظواهر وكيفيات الأعمال العبادية على وفق ما وردت في الروايات الشريفة تعبداً بها، وبين السعي للتعرف على أسرارها ومضامينها الأصلية وتجسيدها عملياً.

وهو رَحِمَهُ اللَّهُ يؤكد أن المهم فيها أن يكون ذاكراً لله بصدق وعلى كل حال أثناء الأعمال العبادية هذه أو في غير ذلك، فالإقبال على ذكر الله ومناجاته هو المعيار الذي يستطيع به العبد أن يعرف منزلته عند ربه، فكلما اشتد إقباله على ذكر الله ومناجاته كان أكثر قرباً منه تعالى، بل أنه يؤكد أن الاشتغال بغير ذكر الله ذنبٌ ينبغي الإستغفار منه وأن الشرط لتحقق الذكر المطلوب لله تعالى هو حضور القلب، وبهذا الحضور والتوجه يكون هذا الذكر مصداقاً لذكر الله الأكبر، فالمطلوب هو الذكر القلبي المقرون بالتوجه إليه تعالى وبنية خالصة تتعبد إليه عَزَّوَجَلَّ بذكره ولذلك فهو يفضل تحميد الله وتهليله وتسبيحه على طلب الحاجات وإن كنا مأمورين بطلب الحاجات منه تعالى، ولكن المطلوب هو أن يندفع المؤمن لطلب الحاجات منه لأنه تعالى أمره بذلك، فيكون نظره إلى التعبد بأمر ربه وليس تحقق الحاجات المطلوبة، فهو يطيعه فيما أمر، سواء حصل على ما يريد أم لم يحصل.

وبالنسبة لسبيل الوصول إلى هذه المرتبة السامية من الإقبال على الله وذكره ينبّه السيد إلى ترسيخ معرفة الله وحبه في القلب لأنهما يدفعان العبد إلى ذكر محبوبه والإقبال على مناجاته، كما أن الذكر لله يقوي بدوره محبته في القلب، كما يؤكد أن تطهير القلب شرط للاتصال بالله ومناجاته لأن الذنوب تصد العبد وتمنعه من الورود في حضرة الله تبارك وتعالى.

الخلوة لتركيز التوجه لله:

ويوصي السيد ابن طاووس المؤمن بالخلوة لمناجاة ربه الكريم جل وعلا تركيزاً للإخلاص والتوجه والانقطاع إليه وينبهه إلى كثرة

فوائدها، وهذا في الواقع يعبّر عن خصوصية أخرى من خصائص منهجه السلوكي، فهو يدعو إلى تقليل مخالطة الناس قدر الإمكان لأنها «داء معضل وشغل شاغل عن الله ﷻ مذهل» ويفصّل الحديث ضمن وصاياه لولده:

«ومن بلغه كتابه من ذريته وغيرهم من الأهل والاخوان» عن مضار هذه المخالطة على إقبال العبد على ربه الجليل، ولغته في هذا الباب صارمة وتحذيراته شديدة للغاية.

أجل دعوة السيد للعزلة وترك مخالطة الناس لا تعني الاعراض عن الخدمة الاجتماعية وواجب الهداية وحضور الجماعات وزيارة الإخوان وعيادة المرضى وحضور الجنائز وغير ذلك مما أمرت به الشريعة، فإنّ الأعراض عن ذلك ينافي ما يدعو له السيد نفسه من شموليةالتعبد لله بالعمل بأوامره، أجل المطلوب أن يتقي العبد مضار المخالطة الكثيرة التي ينبه إليها السيد عندما يقوم بهذه الواجبات الاجتماعية وآداب العشرة الاجتماعية فيحافظ خلال القيام بها على إقباله على ربه وأنسه به وحفظه لحرمته وذكره له وما يقتضيه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدق في المعاملة وتقديم حبه تعالى والخوف منه والثقة به على كل شيء ورؤية مظاهر حضوره جل جلاله في كل تلك الحالات.

تحلية الكسب والتطهير بالإنفاق:

وثمة خصوصية مهمة أخرى في المنهج السلوكي للسيد ابن طاووس نراه يشدد الوصية بها بكثرة، وهي ترتبط بالجانب المالي

للمؤمن، فهو يؤكد لزوم الاهتمام بثلاثة أمور في هذا الجانب ويعتبرها لازمة لكي تحقق العبادات والطاعات آثارها المطلوبة في القبول والتقريب من الله تبارك وتعالى.

الأمر الأول: حلية الكسب وأن يكون على وفق الأوامر الإلهية والآداب الشرعية وأن يكون أيضاً عبادة خالصة لله جل وعلا إذ أن له دخلاً في طهارة قلب السالك وتؤهله للفيوضات الرحمانية ولذلك يشدد على الاحتياط في الكسب وحليته قدر المستطاع والاستعانة بالله تبارك وتعالى لتطهيره من الشبهات بسبب اختلاط الحلال بالحرام بعد غصب الخلافة من أئمة الحق عليهم السلام.

الأمر الثاني: حلية الطعام بالكامل واجتناب كل طعام فيه شبهة بل واجتناب كل طعام لم يُعّد بنية مخلصة في امتثال أوامر الله تبارك وتعالى واجتناب تناول حتى الطعام الحلال إلا بنية الاستقواء به على طاعة ربه وعبادته ومع رعاية الآداب الشرعية الواردة بشأن الأكل.

الأمر الثالث: الإنفاق والتصدق في سبيل الله بقدر المستطاع، وقلما تجد السيد يخلي ذكر أعمال الليالي والأيام الشريفة من تأكيد لزوم «التقرب لله بالصدقات المبرورات» إلى جانب ذكره الصلوات والعبادات الأخرى الواردة بخصوصها، وهو ينبه مكرراً إلى دور الصدقات في محور آثار الذنوب وإطفاء نيرانها وتطهير القلب وتأهيله للتقرب إلى ربه الكريم كان رحمه الله يتصدق بتسعة أعشار مما تجب فيه الزكاة مما يحصل عليه ويبقى له ولعياله العُشر.

الاقتداء بالمعصومين عليهم السلام:

الحث على الإقتداء بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بالأصالة وبالأئمة المعصومين من عترته الطاهرين عليهم السلام بالتبعية في تعبدهم لله تعالى؛ يمثل خصوصية بارزة أخرى في المنهج السلوكي للسيد ابن طاووس فهي الخصوصية الأولى للمناهج السلوكية الإمامية التي تؤكد أن التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى لا يتحقق إلا بالتمسك بأهل بيت النبوة ولا وصول للحق جل وعلا إلا بالتزام عرى ولايتهم، ولذلك لا يجيز عرفاء الإمامية للمؤمن العمل بغير ما ورد عنهم من عبادات وأذكار وبغير ما هدوا له من الرياضات الشرعية لأنهم هم «العارفون بأسرار رب العالمين وبأسرار سيد المرسلين».

وفي الواقع فإنّ ما جمعه السيد ابن طاووس في مصنفاته هو ما ورد عنهم عليهم السلام من أعمال عبادية وآداب شرعية لا غنى للسالك عنها للتقرب إلى ربه وليكون دائم العبودية والذكر له تبارك وتعالى في مختلف حالاته وأوقاته. والسيد يتميز بكثرة الحث على الإقتداء بالمعصومين عليهم السلام في أعمالهم وعباداتهم وآدابهم ويحذر بشدة من التخلف بأي ذريعة كانت: «إياك أن تخالف قوله تعالى في رسوله فاتبعوه واتبعوا النور الذي أنزل معه واسلك سبيل هذه الآداب فإنها مطايا وعطايا يفتح له أنوار سعادة الدنيا ويوم الحساب» وهو ينبه باستمرار لذلك ويكرر دعواته للمؤمن بالإقتداء بهم عليهم السلام فيما كانوا يتعبدون به لله تعالى عند ذكره للأعمال العبادية المروية عنهم فيقتدي بهم بالعمل على على وفق عملهم. وينبه إلى أن الهدف من ذكر الروايات الواردة بشأن أعمالهم وسلوكهم هو الاقتداء بهم عليهم السلام.

وهو رحمه الله يؤكد الدعوة للإقتداء بهم في القيام بأفعالهم ليس في شكلها الظاهري وحسب بل الاجتهاد في التأسي بهم في الكيفية أيضاً: «فانظر - رحمك الله - إلى الذين تقتدي بآثارهم وتهتدي بأنوارهم فكن في دعواتك وفي محل مناجاتك على صفاتهم في ضراعاتهم».

والمهم هنا هو شدة تأكيد السيد - والمستند إلى تجربة ذاتية عملية - لإمكانية الاقتداء بهم وقد صنّف كتاباً خاصاً بهذا المضمون سماه «تقريب السالك إلى خدمة المالك»، راداً بذلك على المثبطين للهمم العالية عن سلوك طريق الاقتداء بهم مؤكداً أن محبتهم ومولاتهم لا تكون حقيقية صادقة بدون الإقتداء بهم في سلوكهم وأعمالهم وتعبدهم لربهم.

أجل يؤيد السيد حقيقة أن الدعوة إلى الإقتداء بالمعصومين عليهم السلام لا ينبغي أن تؤدي بالمؤمن إلى توهم أن عبادته وأذكاره وصلاته متحدة في مرتبتها مع عباداتهم وأذكارهم وصلواتهم، فهذا وهم فاسد إذ أنهم هم أهل التصديق المحض والإخلاص الكامل لا يلحقهم في سمو مراتبهم في عباداتهم لاحق، ولكن ذلك لا يتنافى مع الإقتداء بهم والإجتهاد في السعي للتمثل بحالاتهم مع الإقرار بالفارق، بل على العكس أن الإقرار بهذا الفارق عامل إضافي لتواصل اجتهاد المؤمن في الإقتداء بهم لأنه يجعله واثقاً بعدم قدرته على اللحاق بهم وسبقهم في مراتبهم فيكونون له قدوة وباستمرار.

وبالطبع الإقتداء بالمعصومين عليهم السلام في أفعالهم وسلوكهم يستلزم الهمة العالية التي تحدثنا عنها كأولى خصوصيات منهج السيد

التربوي، ويستلزم الإستعانة بالله تعالى في ذلك والثقة به ﷻ وبأنه قادر على إيصال عبده إلى ما هو أهله من مقامات العارفين؛ والاستشفاع بهم عليهم السلام لإكمال نقائص الأعمال والتوسل بهم لقبول الله جل جلاله لها. وترسيخ حقيقة إطلاعهم على عمل الإنسان ولحظ حرمتهم عليهم السلام بتنقيتها والاجتهاد في القيام بها رغم الصعاب. وهذا الأمر يتأكد مع رسول الله ﷺ حيث وردت أحاديث كثيرة بعرض الملائكة أعمال أمته عليه باستمرار ولإمام العصر (عج).

الإرتباط بإمام العصر:

وللإرتباط بإمام العصر (عج) خصوصية خاصة في المنهج التربوي للسيد يؤكد لزومها للمؤمن لقبول أعماله ونجاح مساعيه في التقرب من الله، وهو يؤكد باستمرار ضرورة أداء حقوقه عليه السلام في جميع المجالات والتصدق عنه باستمرار بنية حفظه، وهو ينبه المؤمن إلى أن «الدعاء للمهدي عليه السلام من مهمات أهل الإسلام والإيمان»، بل وأن يقدم الدعاء له عليه السلام لأن بقاء الدين به ولأنه «أمامك وسبب سعادتك في دنياك وآخرتك، واعلم أنه عليه السلام غير محتاج إلى توصلك بصلاتك وصدقتك ودعائك في سلامته من شهره، لكن إذا نصرته جازاك الله جل جلاله بنصره وجعلك في حصن حريز، قال الله جل جلاله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحَجّ: ٤٠].

ولأن من كمال الوفاء لنائب خاتم الأنبياء أن تقدمه قبل نفسك في كل خيرٍ تقدم عليه ودفع كل محذور أن يصل إليه، وكذا عادة كل إنسان مع من هو أعز من نفسه عليه.

ولأنك إذا استفتحت أبواب القبول بطاعة الله جل جلاله والرسول يُرجى أن تفتح الأبواب لأجلهم، فتدخل أنت نفسك في ضيافة الدخول تحت ظلهم وعلى موائد فضلهم»[١].

(١) هذا البحث باكمله منقول من مجلة الفكر الإسلامي للكاتب العالم «عرفان محمود».

في رحاب الله تعالى

طلب الحوائج

يقول السيد الإمام العالم العامل الفقيه العلاّمة الفاضل الكامل رضي الدين ركن الإسلام جمال العارفين صدر العلماء أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن محمد الطاوس الحسيني: «كن على أقل المراتب عند العارفين في طلبك الحوائج من سلطان العالمين، كما يكون لو طلبت حاجة مهمّة من بعض ملوك الآدميين، فإنّك تتوصل في رضاهم بكل إجتهادك وقت حاجتك إليهم، فكذلك اجتهد في رضا الله ﷻ عند حاجتك إليه، ولا يكن إقبالك عليه دون إقبالك عليهم فتكون من المستهزئين الهالكين، فإنَّك إذا قصدت الله جل جلاله في حاجة قد عجزت عنها أنت أو ملوك الدُّنيا بالكلية، فكيف يجوز أن يكون إهتمامك برضا الجلالة الإلهية دون إهتمامك برضا من قد عجز عنها، ثمّ إذا كان منزلة الله جل جلاله عندك أقل من منزلة ملوك الدُّنيا الذين هم مماليكه، أما تكون مستخفاً ومستهزئاً ومصغراً لعظمة الله جل جلاله ومعرضاً عنها، وهيهات أن تظفر مع ذلك بحاجتك بصلوتك أو صومك بل أنت بعيد منها».

«ثمّ لا تكن في صوم الحاجة وصلواتها كالمجرّب الذي بظنه هل هذا الصوم والصلوة يكفي في قضاءها أم لا، فإنَّ الإنسان ما يجرب إلا على من يسوء ظنه به، وقد عرفت أن الله جل جلاله قال: «يظنون

بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء»، ولكن كن على ثقة كاملة من رحمة الله جل جلاله الشاملة ومن كمال جوده وإنجازه وعوده أبلغ مما تكون لو قصدت حاتم الجواد في طلب قيراط منه، مع ما تسمعه عنه من الكرام والإرفاد، فإنَّك تقطع على التحقيق أنه يعطيك القيراط لو طبته لك بكل طريق، واعلم أنّ حاجتك عند الله تعالى وجلّ جلاله أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، أهون وأقل من قيراط عند حاتم الذي وثقت بقصده، فإياك من ترك الثقة بقصد الله جل جلاله ورفده».

أقول: «ثمّ إذا سلمت من هذه المخافة، ونجوت من خطر هذه الآفة، وقمت لله جل جلاله بما يقدر عليه من حق الحرمة والهيبة والرّحمة والرّأفة، فليكن نيتك في صوم حاجتك وصلواتك لنازلتك، أنّك تقصد أنّك تصوم صوم الحاجة وتصلي صلوة الحاجة للأهم فالأهم من حاجتك الدينية، وأهمها حوائج من أنت في حفاة هدايته وحمايته من الصفوة النبوية، فتكون صومك وصلوتك لأجل قضاء حوائجه - صلوات الله عليه - ، ثمّ لحوائجك الدينية التي يجب تقديمها قبل حاجتك، ثم لهذه حاجتك التي قد عرضت لك الآن، وتكون في غيرها أفقر إلى الله جل جلاله وأحوج إليه.

مثال ذلك: أن تخاف على نفسك من القتل والبوار، فتصوم صوم الحاجة للسلامة من هذه الأخطار، وأنت تعلم أنَّ صومك لعفو الله جل جلاله ورضاه عنك وإقباله عليك وقبوله منك أهم لديك، لأنَّ قتل مهجتك إنّما يذهب به دنياك إذا كنت في القتل سليماً في دينك وسريرتك، ثمّ أنت إذا لم تقتل فلا بد أن تموت على كلِّ حال، وعفو

الله جل جلاله ورضاه إذا لم يحصل هلكت في الدنيا والآخرة، وحصلت في أهوال لا يقدر على إحتمالها قوة الخيال، فإذا اشتغلت بين يدي الله جل جلاله في صوم الحاجة وصلوتها بهذه التي قد تجدّدت لك الآن وتركت الاهتمام بالأهم، كنت مستحقاً للحرمان والخذلان، وربما يكون قد عرضت في نفسك الهوان، وإنّما قلنا تقدم حوائج الصفوة من العترة النبوية لأن بقاء الدُّنيا وأهلها بمن يكون لطفاً وقطباً وحافظاً للأمانات الإلهية والمقامات المحمدية، فإذا كنت محفوظاً بواحد على مقتضى إعتقادك فكيف تقدّم حوائجك على حوائجه بل يجب أن تقدّم حوائجه على حوائجك ومراده على مرادك.

أقول: واعلم أنه - صلوات الله عليه - مستغنٍ عن صومك وصلوتك لحاجاته، لأجل شرف مقاماته وجلالة مراقباته وكمال إخلاصه في طاعاته، وإنما تكون أنت إذا عملت بما قلناه أديت الأمانة وقدَّمت الأهم فالأهم كما ذكرناه، كما تستفتح أدعيتك بالصلوة عليهم عليهم السلام، فكذا تستفتح أبواب قضاء حاجتك بتقديم حوائجه، ثم الأهم من حوائجك عند نيتك»[١].

* * *

ويقول السيد رضي الدين: «وهذا آخر ما أردنا ذكره من صلوات ودعوات الحاجات، وقد قدَّمنا في عمل اليوم والليلة في الجزء الثاني منه، كما اخترناه عدة صلواتك للحاجات في السحر فانظرها حيث ذكرناه[٢]، فإنّها جليلة فيما أوردناه، بل قد قدّمنا من الدعوات

(١) جمال الاسبوع ص٢٠٦.
(٢) فلاح السائل: ص٧٣.

والتّعوذات الراقية والضراعات التي هي كالدروع الواقية في عمل اليوم والليلة وعمل الأسبوع وعمل ليلة الجمعة ويومها قبل الآن، وسيأتي في عمل الشهر من الأدعية ما يكون كالحصون للإنسان، وإذا عملت بذلك كما شرحناه رجوت أن تستغني عن صوم أو صلوة للحاجة، ويكفيك الله جل جلاله حوائجك قبل أن تصوم وتصلي لها إذا فوّضت إلى تدبيره ورضيت برضاه.

أقول: ولعلَّ الشيطان يخطر بقلبك فيقول - وهو عدو لك وللأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام - قد كانوا عالمين وعاملين بهذه الدعوات والدروع الواقيات، ومع هذا فقد كانوا يحتاجون إلى صلوات الحاجات، والجواب: إنني قد حذّرتك مراراً في هذا الكتاب أنّك تقيس نفسك بملوك الدنيا ويوم الحساب، فأنت بعيد من هذا المقام، لأنك إذا كنت عارفاً بما هم عليهم السلام عليه من ثبوت الأقدام وحال الإخلاص وكمال الإختصاص، عرفت بذلك أن كل حركاتهم وسكناتهم ودعواتهم وصلوة حاجاتهم بحسب ما يريده الله جل جلاله منهم ويلقى في قلوبهم وسكنت في آذانهم ويلهمهم على قدر كمال رضاه عنهم، لأنّهم لما فوَّضوا إليه بالكلية بأفضل إخلاص الطوية، وقاموا بمراده ورضوا بتدبيره في قليل أمره وكثيره، وكان أهلاً أن يقوم جل جلاله بتدبيرهم في جميع الأمور، ويتولى جميع حركاتهم وسكناتهم في الظاهر والمستور، فإنّهم إن قاموا فبفضله ولأجله، وإن جلسوا فبإذنه وبقوله، وإن تحركوا فبتأديبه، وإن سكنوا فبتهذيبه.

وأنت بعيد من هذه الحال لأنّك تعرف من نفسك أنّ همتك

متعلقة بدار الزوال وتطلب رضا العباد، وأن أكثر حرفاتك وحركاتك وسكناتك لأجل مصالح دار الفساد، وإذا كان لك خاطر مع سلطان العالمين فهو دون خاطرك مع هواك الآدميين، ودون خاطرك مع هواك أو دنياك، وهذا الذي أنت عليه عند من ذكرناه منهم عليهم السلام كالكفر والشرك الموجب للهلاك، فأين أنت وذاك؟ فلا تقس ميزانك التي يبعد أن يخلو من النقصان والعيوب، ولا قلبك الذي يبعد أن يخلو من دنس الذنوب بميزانهم عليهم السلام، الذين فوَّضوا وتوكَّلوا فيه، فتولاه لهم علام الغيوب، ولا تدخل قلبك المتقلّب بين دوام مراقبة تلك القلوب»[1].

(١) جمال الاسبوع ص٢٢٣.

معنى زيارة الله تعالى في عرشه

لعل المراد بزيارة الله في عرشه أن يكون لقوم من أهل الجنة مكان من العرش من وصَل إليه يُسمّى «زائر الله» كما جعل الله الكعبة الشريفة بيته الحرام من حجّها فقد حجّ إليه[١].

(١) اقبال الأعمال ص١٩٦.

التكليف الشرعي

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في صلاة المسافر في علل التشريف بتكليف الصوم:

«إعلم أن أصل علة التكليف أنه تشريف لعبادة من يستحق العبادة لأنه جل جلاله أهل لها، فهذه العلة الأصلية في التكليف الإلهية، وأما تعيين وجه اختيار الله جل جلاله من العبد أن تكون خدمته له بجنس من الطاعات وعلى وجه متعين في بعض الأوقات فهذا طريقه عن العالم بالغائبات على لسان رسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وعلى لسان ملائكته ومن شاء من خاصته عليهم أفضل الصلوات»[1].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في صلاة المسافر: «وإياه أن يأتي بفرائضه في الأسفار على عجلة تقتضي ترك الاستظهار، فإنّ الإنسان إذا فعل ذلك، كان كرجل عليه لسلطان أربعة وعشرون ديناراً، فرحمه فخفف عنه عشرين وقنع منه بأربعة دنانير، فكيف يحسن في العقل والنقل ومكافأة التخفيف، أن يأتي بأربعة دنانير ناقصة العيار وقيمتها دون المقدار! وإنما قلنا ذلك، لأن نوافل الزوال ثمان ركعات، وكانت الظهر في الحضر أربع ركعات، ونوافل العصر ثمان ركعات والعصر أربع ركعات، فهذه أربع وعشرون ركعة، فقنع الله جل جلاله منها

(١) الاقبال ص٢٤٨.

بأربع ركعات: الظهر ركعتان، والعصر ركعتان، فكيف يأتي بها على النقصان!.

أقول: وإياه أن يشتبه الأمر عليه في القصد بأسفاره، فيسافر بالطبع والطمع والشهوات والأمور الدنيوية، فيعتقد أن هذا طاعة الله جل جلاله ويقصر في صلاته وهو بهذه النية. وإياه أن يكون في جملة قصده بسفره الذي ظاهره طاعة مولاه، وهو عازم أن يعصي الله جل جلاله في شيء آخر بالسفر لفوائد دنياه، فتصير الطاعة معصية وإضاعة، ولا يصح له التقصير في صلاته، فلا يغالط نفسه، فإن الله جل جلاله مطلع على إرادته[١].

---

(١) الأمان ص٩٢.

التوبة

كيف يختم آخر أعماله وكيف يتحرّز من دعاء النبي ﷺ حيث قال: «من انسلخ عنه شهر رمضان ولم يُغفر له فلا غفر الله له» فإنّها من أصعب الدعوات وأخطر الهلكات فليعمل على ما حررناه في الجزء الأول من كتاب «المهمات والتتمات» عند آخر كل نهار من تدبير المحاسبات وإن لم يحضره كتابنا المشار إليه وطلب أن نذكر ههنا مما لا بدّ له مما يعتمد عليه، فمن ذلك أن يتوب إلى الله جل جلاله على قدر الخطر الذي بين يديه، فإن توقفت نفسه عن الصدق في التوبة والندم على ما فات وترك ما هُوَ آتٍ وعرف منها ركوب مطايا الإصرار، ولا يقدم أن يلقى الله جل جلاله بالبُهت وهو مطّلع على الاسرار فليطلب من أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين عفوه الذي عامل به المُسيئين وبسط به آمال المسرفين فقد يعفو المولى عن عبده وهو غير راضٍ عنه، وليكن طلبه للعفو على قدر ما وقع منه، فإن طلب العفو عن الذنب الكبير ما يكون مثل طلب العفو عن الذنب الصغير ولا يكون طلب العفو من مالك الدنيا والآخرة مثل طلب العفو من عبد من عبيده تؤول حاله إلى القبور الداثرة.

أقول: فإن صدق في طلب العفو على قدر سوء حاله وعلى قدر عظمة الله جل جلاله فإن الله جل جلاله أهل أن يرحمه ويصدقه في آماله.

أقول: وإن جنحت نفس العبد عن طلب العفو على قدر الذنب ومقدار ما يليق بالرب فليُعد نفسه إلى مجلس القود عنه إذا لم يطمع في العفو عنه ويكون عليه آثار صدق الحضور بين يدي من يستقيد من مهجته ونفسه خاضعة خائفة من الاستقصاء عليه في مؤاخذته.

أقول: فإن تعذّر عليه حصول الصدق في هذه الحال وأبت نفسه المعودة للإهمال إلا أن يكون حديثها لله جل جلاله وبين يديه بمجرد اللفظ والمقال والقلب خالٍ من الإقبال فليشرع في دعاء أهل البلاء والابتلاء فقد بلغ إجابة الدعاء إلى إبليس المُصرِّ على الذنوب حيث قال عنه علاّم الغيوب في سؤاله «اجعلني من المنظرين» فقال له في حال الغضب عليه «إنّك من المُنظرين إلى يوم الوقت المعلوم».

ويجتهد على عبرات تطفي نيران الغضب، وعلى دعوات معروفة بلزوم الأدب، وتسليم العمل الذي عمله في شهره إلى من كان قد جعله خفيراً وحامياً ومالكاً لأمره فلعل الله جل جلاله لعنايته بخاصته يقبل العمل من يد نائبه الحافظ لشريعته ويتمّم ما فيه من النقصان وتربح ما اشتملت عليه بضاعته من الخسران إن شاء الله تعالى[1].

---

(١) الاقبال ص٥٧١.

التوكل على الله

قال عن آداب المسافر: «وإياه أن يتعلق قلبه عند الاستعداد بالعدة والأجناد، مع ترك التوكل على سلطان الدنيا والمعاد، فيكون كما قال الله جل جلاله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

ولا يعتمد على الآلات، اعتماد فارغ القلب من الخالق لها والمنعم بها، والقادر على أن يغني عن كثير منها، بل يكون القلب متعلقاً على الله جل جلاله ومشغولاً به عنها، ليكون كما قال جل جلاله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٣] فيقوي الله جل جلاله قلبه، ويشد أزره، ويكمل نصره»[١].

وقال رحمه الله: «في صلاة المسافر فإن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام لما وصف الدنيا في نهج البلاغة وذكر أن النبي صلى الله عليه وآله أبغضها وحقّرها وصغّرها فإن الله جل جلاله كذلك أبغضها وكرهها لأوليائه وخاصته وأحبائه فقال عليه السلام: «ولو لم يكن فينا إلا حبنا ما أبغض الله وتعظيمنا ما صغّر الله لكفى بذلك محادّة لله وخروجاً عن أمره».

---

(١) الأمان ص٥٥.

قلت أنا: فكيف إذا زدنا على هذه المصائب بأن يكون توكلنا على حولنا وقوتنا والمال والأمل الخائب أقوى من سكوننا إلى الله جل جلاله المالك للمواهب، وتكون ثقتنا بوعود العباد أقوى في نفوسنا من ثقتنا بوعد سلطان المعاد وخوفنا من وعيد بعض الأنام أشق علينا من وعيد سلطان الليالي والأيام، ومرادنا من حب بعضنا لبعض أحلى عندنا وأقوى من حبنا لله أو حبه جل جلاله لنا، وقرب بعضنا من بعض أهم علينا من تقرّبنا إليه جل جلاله أو قربه منا، وإقبال بعضنا على بعض أتمّ عندنا من إقبالنا عليه جل جلاله، أو طلب إقباله علينا، ومدح بعضنا لبعض أوقع في نفوسنا من مدحنا له جل جلاله أو طلب مدحه لنا، وذم بعضنا لبعض أصعب عندنا من ذمه لنا جل جلاله أو ذم بعض أعدائه له جل جلاله، فإنا قد نصاحب من الكفار من يذمه ولأنسنا بمصاحبة من يعمل في حقنا ما يعمل أعظم من ذلك في حق الله جل جلاله، وأنسنا بعضنا ببعض أتمّ علينا من الإنس بجلاله وحضوره، وإحسان بعضنا إلى بعض أعظم في نفوسنا من إحسانه الذي نعجز عن شكر يسيره، وطلب الحوائج منّا والقيام فيها لعباده أخف علينا من القيام في فروضه أو مندوباته أو اتباع مراده وغير ذلك من سقم الألباب التي يضيق عنها مضمون هذا الكتاب، وما هكذا تضمن كتابه جل جلاله فيما بين أهل هذه الملة، قال جل جلاله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤] (١).

(١) فلاح السائل ص ٣٥٩.

شكر الله تعالى

أقول: إنَّ الطعام ما يحضر بين يدي الإنسان، إلا بعد أن يولي الله جل جلاله بيد قدرته وحكمته ورحمته وداعيته واختياره وإرادته، إنشاء السماوات والأرضين والبحار والأنهار والغيوث والغيوم والأمطار، وفصول الصيف والشتاء والربيع والخريف، وما فيها من المنافع والأسرار، ويستخدم في ذلك من يختص بهذه المصالح من الملائكة، ومن يقوم بتدبير الخلائق من الأنبياء والأوصياء، والرعايا والولاة، وأصحاب الصنائع والأكرة والحدادين والنجارين، والدواب التي يحتاج إليها لهذه الأسباب، ومن يقوم بمصالح ذلك ومهماته، من ابتدائه إلى حين طحنه وخبزه وحمله إلى بين يدي من يأكله أوقات حاجاته.

فالمنة فيه لله جل جلاله أعظم من (المؤنة على مائدة) بني إسرائيل، فيجب أن يكون العبد عارفاً وذاكراً وشاكراً لهذا الإنعام الجزيل الجليل، وجالساً عند أكله بين يدي الله جل جلاله ليأكل من طبق ضيافته، كما يجلس العبد بين يدي سلطان، قد عمل له طعاماً، واستخدم فيه نفسه وخواصه، ومن يحتاج إليه من أهل دولته، والسلطان ناظر إلى الذي يأكل، كيف شكره لنعمته؟ وكيف حفظه

لحضور السلطان وحرمته؟ وكيف يتأدّب في جلوسه بين يديه؟ وكيف يقصد بأكل الطعام ما يريد به السلطان مما يقرّ به إليه؟

ثم يكون العبد ذاكراً وشاكراً أنه إذا أكل الطعام، أنّه لولا ما وهبه الله جل جلاله من الجوارح التي تعينه على حمله وأكله ومضغه، والريق الذي يأتي بقدر حاجته، من غير زيادة على اللقمة، فكانت الزيادة تجري من فمه، ولا نقيصة فكانت اللقمة تكون يابسة أو غير ناعمة.

وليكن ذاكراً وشاكراً أنه إذا صار الطعام في معدته، فإن الله جل جل يطحنه بحرارة المعدة، وبقدرته حتى يصير صالحاً لتفريقه في الجوارح والأعضاء، فيبعث جل جلاله لكل جارحة ولكل عضو بقدر حاجته، من غير زيادة، فتكون الزيادة ضرراً عليه، أو نقيصة فتكون سقماً وضعفاً وخطراً لا يقوى العبد عليه.

ولو أن الله تعالى عرّف العبد ما يحتاج كل عضو إليه، ومكّنه من قسمه ذلك على أعضائه، عجز عنه وكّره الحياة لأجل المشقة التي تدخل بذلك عليه، وكيف يحل أو يليق بالتوفيق، أو يكون ذاهلاً وغافلاً عمّن كفاه هذا المهم العظيم؟ وتولاه جل جلاله بنفسه، وهو أعظم من كل عظيم.

وينبغي أن يكون يكون ذاكراً وشاكراً كيف استخلص من الطعام ما لا يصلح للأعضاء والجوارح، وأفرده جل جلاله وساقه بيد القدرة، وأخرجه في طرقه، والعبد في غفلة عن تدبير هذه المصالح.

ولو أن العبد أنصف من نفسه مولاه، ومالك دنياه وأخراه، ومن أنشأه وربّاه، وستر عمله القبيح عن أعين الناظرين وغطّاه، ورأى

بعين عقله كيف إمساك الله جل جلاله للسماوات والأرضين لأجل العبد الضعيف، وكيف إمساكه لوجوده وحياته وعقله ونفسه وعافيته بتدبيره المقدس الشريف، ما كان العبد على هذه الحال من الإهمال وسوء الأعمال، والاشتغال بما يضره أو بما لا ينفعه من جميع منافعه منه، وكيف استحسن لنفسه الأعراض عنه!

واعلم أننا روينا من كتاب (مسائل الرجال) لمولانا أبي الحسن علي بن محمد الهادي عليه السلام، قال محمد بن الحسن: قال محمد بن هارون الجلاب: قلت له: روينا عن آبائك أنه «يأتي على الناس زمان، لا يكون شيء أعز من أخ أنيس أو كسب درهم من حلال» فقال لي: «يا أبا محمد، إن العزيز موجود، ولكنك في زمان ليس شيء أعسر من درهم حلال وأخ في الله عز وجل».

وإذا كان الحلال عسراً ومتعذراً في ذلك الزمان، وهو قريب العهد بابتداء الإسلام والإيمان، فكيف يكون حال الحلال والطعام مع اختلاف أُمور الحلال والحرام؟

وإنني لما رأيت الأمر قد بلغ إلى هذه الغايات، رأيت أن الاستظهار بإخراج الخمس والحقوق الواجبات، مما اختص به من سائر المهمات، أقرب إلى النجاة والسلامة في الحياة وبعد الممات»[1].

* * *

وقال رحمه الله: «وإذا كان نجاة سفينة نوح بأهلها، وهم أصل كل من بقي من ولد آدم عليه السلام فلا عجب إذا صلى الإنسان عليهم عند

(١) الأمان ص ٥٧.

ركوب كل سفينة، شكراً لعلو مقاماتهم، وما ظفرنا به من النجاة ببركاتهم، وإن اختار كل من ركب في سفينة وخاف من أخطارها ومعاطبها، أن يكتب على جوانبها، في المواضع التي كانت أسماؤهم في سفينة نوح عليه السلام توسّلاً وتوصّلاً في الظفر بما انتهت في النجاة سفينة نوح إليه، أو يكتبه في رقاع ويلصقها في جوانب سفينة ركوبه، فلا يبعد من فضل الله جل جلاله أن يظفره بمطلوبه، وإدراك محبوبه، إن شاء الله تعالى[1].

(١) المصدر نفسه ص١٢٠..

العبودية لله تعالى

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو أن الله جل جلاله ما أعطى أحداً من الخلائق، في المغارب والمشارق، دابة إلا أنت، وكان الناس كلهم عزيزهم وذليلهم وغنيّهم وفقيرهم، إذا سافروا مشوا في أسفارهم على أقدامهم، وحملوا قماشهم على ظهورهم وظهور غلمانهم، وأنت معك دابة تركب عليها، وتحمل قماشك للسفر عليها، كيف كنت تكون في سرورك بها، وتعظيم الواهب لها!؟

فالأمر الآن على هذه الحال، لأنّك تعلم أن خلقاً كثيراً ما لهم دابة في الأسفار ويمشون على أقدامهم، ويحملون قماش سفرهم على ظهورهم، وأما من حصل له منهم شيء من الدواب كما حصل لك، فلا يجوز في عقل ولا نقل يليق بالصواب، أن يكون إنعام الله جل جلاله على غيرك بدابة مثل دابتك، أن يسقط عنك حق الدابة التي وهبك إيّاها وجعلها من جملة نعمتك، فكيف ساغ في المعقول والمنقول أن يكون لسائسك، والذي يسرج دابتك، موضع من خاطرك، وذكر في سرائرك أو ظواهرك، والله جل جلاله المنشىء لها والمنعم بها والمسخّر لها، قلبك خال منه، ومن هديتها لك ومسيرها بك. هذا لا يليق بالتوفيق، وأنت مخاطر في ركوبها في الطريق.

أقول: ولقد كنت قد خرجت في بعض الأسفار، ومعنا جماعة من ذوي الألباب، قد تبادروا إلى ركوب الدواب، ولسان حالهم يشهد عليهم أنهم غافلون عن رب الأرباب، فقلت لهم: لو أنّ هذه الدواب تكلمت وقالت لكم: إنّما سُخرت لكم لأجل ما وهبكم الله تعالى من العقول، وشرفكم به من التكليف المقبول، فإذا كنتم قد اطرحتم في ركوبي حكم العقل وأدب النقل، وركبتم بالطبع والغفلات، فقد صرتم مثلي في سلوك الطرقات، فينبغي في العدل والإنصاف، أن تجروا أنفسكم مجرى الدواب، وتركبوني تارة وأركب عليكم تارة، وإلا فأنا ما سخّرت لأمثالكم ممن قد عزل الله جل جلاله عن ربوبيته، وأسقط حق نعمته، وعرّفتهم ما حضرني من كيفية السفر الذي يكون طاعة للمراضي الإلهية[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما رأيت بما وهبني الله جل جلاله من عين العناية الإلهية في مرآة جود تلك المراحم والمكارم الربانية كيف أنشأني ورباني وحملني في سفن النجاة على ظهور الآباء، أودعني في البطون وسلمني مما جرى على من هلك من القرون وهداني إلى معرفته وهو ربي الذي يقول للشيء كن فيكون ونظرت به جل جلاله في معنى تاريخ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] وعرّفني مراده جل جلاله مني وكاشفني عقلاً ونقلاً عما يرضيه عني وجدت المنّة له جل جلاله في هدايتي بسعادتي في إخلاص العبادة لذاته من غير تعلق خاطر بطلب هباته أو خوف نقماته.

وتيقنت أنه جل جلاله ملك حياتي ولم يزل أحق بها مني وكان

---

(١) الأمان ص ١٠٧.

جل جلاله أهلاً لأن يشغلني عظم جلاله وإقباله عني وهل كان للألباب عدول عن هذا الباب لأن معرفة ذاته وصفاته ولزوم أدب وجوده ومراداته ومناجاته كانت قبل المعرفة بالثواب والعقاب.

فكل عاقل عارف بهذه الأسباب يعبده لأنه جل جلاله أهل للعبادة وهل كان ذلك الكمال والجلال يحتاج إلى بذل رشوة من ثواب أو تخويف من عقاب عند المعترفين له بحق الملكة والسيادة؟!.

حوشي ذلك المالك الأعظم والمقام المعظم من أن لا يرغب مملوكه في حبه وقربه وخدمته إلا بالرشوات، بل يجب على مماليكه أن يبذلوا المجهود في قبولهم وتأهيلهم للخدمة والعبادات.

فالعقول السليمة مشغولة بما لزمها بمعرفته من حق إنشائه وتربيته وهدايته ومغرمة بحفظ حرمة وجوده وهيبته ومتشرفة بما خلقها له من طلب كمال معرفته وعبادته.

ولقد وجدت من السعادة والإقبال بهدايته جل جلاله وما عرفني من ملاطفته ومكاشفته ولذة مشافهته المنزهة عن كل ما لا يليق بكمال ربوبيته ما لا أقدر على وصفه بمقال.

ألا ترى أن كل ملك وسلطان إذا بالغ مع مملوكه في الإحسان أدخله حضرة وجوده وشرّفه تارة في الأذن له في الخطاب وتارة بالجواب.

ولقد كان بعض العارفين يكثر الخلوات فقيل له: أما تستوحش لمفارقة الأهل والجماعات؟ فقال: «أنا جليس ربي أن أحببت أن يحدثني تلوت كتابه وإذا أحببت أن أحدثه دعوته وكررت خطابه».

قلت أنا: وكم من مطلب عزيز وحصن حريز في الخلوة بمالك القلوب وكم هناك من قرب محبوب وسر غير محجوب؟!.

فلما رأيت فوائد الخلوة والمناجاة وما فيها من مراده لعبده من العز والجاه والظفر بالنجاة والسعادة في الحياة وبعد الوفاة وجدت في المصباح الكبير الذي صنّفه جدي لبعض أمهاتي أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي رَحِمَهُ اللَّهُ شيئاً عظيماً من الخير الكثير.

ثم وقفت بعد ذلك على تتمات ومهمات فيها مراد من يحب لنفسه بلوغ غايات ولا يقنع بالدون ولا يرضى بصفقة المغبون.

وعرفت أن لسان المالك المعبود يقول لكل مملوك مسعود: أي عبدي قد قيدت السابقين من الموقنين والمراقبين والمتقين وأصحاب اليمين يأملون فلا يقدرون على زيادة الدرجات الآن وأنت مطلق في الميدان فما يمنعك من سبقهم بغارة الإمكان أو لحاقهم في مقامات الرضوان، فعزمت أن أجعل ما اختاره الله جل جلاله مما رويته أو وقفت عليه وما يأذن جل جلاله لي في إظهاره من أسراره (كما يهديني إليه وما أجده من كيفية الإخلاص وما يريه الله جل جلاله لعقلي وقلبي من مقامات الاختصاص وما ينكشف لي بلطف مالك الكشف من عيوب الأعمال وإحضار الغفلة والإهمال وما لم يخطر الآن على بالي معناه ولا يحضرني سره وفحواه وأجعل ذلك كتاباً مؤلفاً اسميه كتاب «مهمات في صلاح المتعبد وتتمات لمصباح المتهجد»[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكيف لا يشكو لسان الحال إذا لم يقع الشكوى

(١) فلاح السائل ص ١٠.

من بيان المقال ونحن على ما شرحنا بعضه من سوء الأعمال، ولقد بلغ جهل مماليكه وعبيده إلى أنه خلقهم وحده جل جلاله وما شركه أحد في خلقهم وتقديرهم، فقال جل جلاله منبّهاً لهم على إنفراده بإنشائهم وتدبيرهم ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١] ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٧-٥٩].

وقال جل جلاله: وما خلقهم حتى هيّأ لهم الأرضين مهاداً والسماء سقفاً ولم يجعل لها عماداً والجبال للأرض أوتاداً وأجرى لهم الأنهار وغرس لهم الأشجار ورتب لهم الليل والنهار وبالغ في عمارة هذا المسكن والدار، وكلما يحتاجون إليه مدة الأعمار، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] إن الإنسان لظلوم كفار ثم رباهم بالرفق والإكرام ثم صاحبهم بعد البلوغ بالجميل والاحترام وقال جل جلال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولما أساؤوا لعبودية عاملهم بالعفو والتستر، فلا حق الإنشاء عرفوا ولا بحقوق التربية اعترفوا، ولا عند حقوق الصحبة الجميلة وقفوا، ولا من ستره وحلمه استحيوا أو أنصفوا ولا بحق الملكة والسيادة قاموا لجلاله ولا بحق العبودية نهضوا لإقباله، ولا لأجل جوده ووعوده ولا لأجل تهديده ووعيده، وبلغ الأمر إلى أن تصرفوا في أنفسهم تصرف الأحرار فلا ترى على الوجوه والحركات والسكنات أنهم في حضرة مولاهم الذي يراهم فيكون عليهم ذل العبودية والانكسار وكان هذا من أصعب الأخطار.

ثم أعارهم داراً إلى وقت معلوم، وعرفهم أنه يخرجها منهم إلى غيرهم بتقدم ورسول ومرسوم فتصرفوا فيها تصرف المالكين، ولما جاء رسوله ملك الموت بتقدم خرجوا منها خروج المنازعين له والكارهين، وأعارهم مالاً لينفقوه في رضاه فتصرفوا فيه تصرف من ليس على يده يد أخرى ولا مولاه يراه، وتملكوا عليه حتى بلغ سوء أدبهم بين يديه إلى أنه إذا كتب إليهم كتاباً وبعث محمداً رسولاً يطلب من أمواله كثيراً أو قليلاً ليصرفها في عمارة دار أخرى كرهوا إخراجها عن أيديهم وكأنه يخرجها إلى سواهم وصاروا كأنهم هم المالكون لها وكأن الله جل جلاله هو المستعير، فكان هذا من الهلاك العظيم الكبير، وبلغ سوء العبودية بهم إلى أن صاروا في مقام شركاء لمالك حياتهم ومماتهم، ينازعون إرادته وكراهاته جل جلاله بإراداتهم وكراهاتهم وزاد سوء العبودية إلى أنهم عزلوا مولاهم عن مقام الإلهية وصاروا لا يرضون من تدبيره إلا ما وافق رضاهم، وكأنهم يريدون أن يكون التدبير لهم وإليهم في دنياهم وأُخراهم فمن يكون على هذا السبيل أو دونه بقليل، أما يكون وجهه أسود عند المطلع على أسراره وصحيفته سوداء عند الله وعند الملائكة الحفظة له في ليله ونهاره[١].

(١) المصدر السابق ص ٣٦١.

حفظ الأمانة الإلهية

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إعلم أنّ الإنسان على نفسه بصيرة، ونفسه لله جل جلاله، وهي في يد العبد أمانة يجب حفظها لمالكها من الأخطار الكثيرة واليسيرة، فإذا وصل إلى قنطرة أو جسر مخوف، فينزل إن كان راكباً عن دابته، ويستظهر في سلامته، ولا يمتنع من النزول إما للكسل أو للرياء والسمعة، حتى لا يراه أحد قد نزل، أو لئلا يقال: إنّه ذليل أو ضعيف أو جبان، فإنّ الاحتياط للسلامة والأمان أليق بالعاقل الكامل، من أن يرضى بركوب الخطر من النقصان والتفريط بنفسه، التي هي أمانة لمولاه، وأنّه جل جلاله مسائله عن حفظها يوم يلقاه»[1].

الحضور في المحضر

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ العقل يشهد أنّك إذا أردت دخول حضرة ملك من ملوك الزمان أو لقاء النبي ﷺ أو أحد أئمتك العُظمى الشأن فإنك تستعد للدخول عليهم بكل ما يقربك إليهم، ومهما عرفت أنهم يؤثرون أن يكون عليك من الكسوات أو تكونُ عليه من الصفات أو

(١) الأمان ص ١١٣.

يرتضونه من ألفاظ التسليم عليهم أو القيام أو الجلوس بين يديهم، فإنّك تجتهد في العمل على مرادهم بغاية اجتهادك مع علمك بأنهم لا يطلعون على ضميرك وفؤادك، فكيف يجوز ألا تكون مع سلطان دنياك ومعادك على هذه الصفات وهو مطلع على الخفيات وحاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى كل من تحضر بين يديه.

فليكن الإستظهار لأُخراك أرجح عندك من الاحتياط لدنياك، فلو أن سلطاناً جعل لرعيته يوماً يحضرون بين يديه ويعرضون حوائجهم عليه وكانت الرعية مفتقرة في كل شيء إليه واختلف عليهم خواص السلطان فيما عينه الملك من لفظ الكلام الذي يعرض عليه وقت الحضور بين يديه لطلب ما يحتاجون إليه من الإحسان، أما كانوا يستظهرون لكل طريق في الاحتياط والاستظهار بذكر الألفاظ جميعها التي ذكرها لهم الخواص عن الشفيق.

وأقول: يا أيها الرجل المتشرف بنور المعقول والمنقول وهداية الرسول أنت تعلم أنك لو تعلمت تلك الألفاظ جميعها على التفصيل ثم دخلت إلى بين يدي ذلك السلطان الجليل وتلوتها بلسانك وأنت معرض عنه أو مشغول بغيره عن الالتفات إليه وأدب القرب منه، فإنك تشهد على نفسك بالجهل بقدر السلطان وإنك قد عرضت نفسك للحرمان أو الهوان، فإذاً لا يجوز أن تدخل حضرة السلطان إلا وأنت مُقبلٌ عليه بالقلب واللسان وجميع الجنان والأركان.

فكذا ينبغي أن يكون حالك مع الله جل جلاله المطلع على الأسرار، فتكون عند تلاوة هذه الأذكار حاضراً بعقلك ولُبك ومعظماً للألفاظ والمعاني بلسانك وقلبك ومجتهداً أن يصدق فعالُك مقالك.

فإذا تلوت: «**الله أكبر**» فيكون على سرائرك وظواهرك آثار أنه لا شيء أعظم من الله جل جلاله الذي تتلفظ بتكبيره فلا تشغل قلبك في تلك الحال بشيء غيره من قليل أمرك أو كثيره، وإذا تلوت تحميده وقلت «**الحمد لله**» فقد شهدت أن الحمد ملكه وأنه أحق به من سواه، فلا يكن في خاطرك محمود عندك ممن أحسن إليك في دنياك أرجح مقالاً ولا أصلح إخلاصاً وإقبالاً، وإذا تلوت تسبيحه وتنزيهه فليكن خاطرك منزّهاً له عن أن تؤثر عليه سواه وأن يشغلك عنه في تلك الحال غيره ممن ترجوه أو تراه، وإذا تلوت تهليله وقرأت «**آية الكرسي**» و«**قل هو الله أحد**» فليكن عليك تصديق الاعتراف له بأن إلهك الذي لا يشغلك عنه هواك ولا دنياك وأنك مملوكه وعبده المفتقر إليه المشغول به اشتغالاً يشهد بتحقيقه سرّك ونجواك، وإذا قرأت «**سورة ليلة القدر**» فليكن قلبك معظماً للفظه الشريف الذي جعلك نائباً لتلاوته بين يديه وكأنك تقرأ لفظه المقدس وآله، فاذكر أنهم غير محتاجين إلى دعائك لهم بالصلاة عليهم بعد ما تعرفه من أن الله تعالى جل جلاله صلى هو وملائكته عليهم لكن قد ورد في الحديث أن أبواب الإجابات تفتح لطلب الصلوات عليهم في الدعوات وإذا فتحها الله جل جلاله لقبول الصلاة عليهم في مناجاتك كان أرحم وأكرم أن يغلقها عما تدعوه عقيب ذلك من حاجاتك ومهماتك[1].

* * *

(١) الاقبال ص ٦٤٩.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إعلم: إنَّ العقل والنقل والفصل كشف أن المتشرف بالتكليف لا يخلو من إحاطة علم الله جل جلاله به، وأنه كالأسير في قبضته، والمشمول باتصال نعمته، باستمرار وجوده وحياته وعافيته، والمأمور بحفظ حرمة مقدس حضرته، ولزوم الأدب لعظيم هيبته.

فكما أن الإنسان إذا حضر بين يدي سلطان عظيم الشأن، عميم الإحسان، وتقيدت إرادته وحركاته وسكناته بلزوم الأدب مع ذلك السلطان، حيث هو في حضرته، ولا يكون معذوراً إذا وقع منه شيء مخالف لإرادته، ولا تهوين بحفظ حرمته، فكذا ينبغي أن يكون العبد مع الله جل جلاله بل أعظم وأعظم وأعظم، لأجل التفاوت العظيم بين الله جل جلاله رب الأرباب ومالك الأسباب، وبين سلطان خُلق من تراب، ومن طين وماء مهين يؤول أمره إلى الخراب والفناء والذهاب.

فيكون سفر الإنسان لا يخلو عن امتثاله لأجل الله جل جلاله في أسفاره، ويتخذه حامياً وخفيراً[1] في ساعات ليله ونهاره، ولا أرى له أن يعزل الله جل جلاله عن ولايته عليه، ويعتزل هو بنفسه عن الأدب بين يديه، ويجعل الطبع أو الشهوات هي الولاة عليه جل جلاله وهذا مما أعتقد أن الإنسان يخاطر به مع مالك دنياه وأُخراه، ويخرج عن حماه، ويصير ضائعاً متلفاً بذلك لنفسه ولجميع ما وهبه وأعطاه.

ومتى اعتبر الإنسان آداب المنقول والأدعية والأوامر عن الله جل جلاله والرسول، رأى أنه ما يخلو سفر من الأسفار إلا وله مدخل في

---

(١) الخفير: المجير (الصحاح - خفر ٢: ٦٤٨).

العبادة والسعادة في دار القرار، فهذا ما رأيناه بالله جل جلاله التنبه عليه، فمن أراد الاحتياط لآخرته اعتمد عليه، ومن أراد أن يكون عند الطبع فيكون دركه وثوابه عليه»[١].

* * *

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فنحن نقصد بالسفر أننا نتوجه من الله جل جلاله، بالله جل جلاله، إلى الله جل جلاله، لله جل جلاله.

ونقصد بتفسير هذه النية، أن يكون توجهنا من بين يدي الله جل جلاله ذاكرين أننا في مقدس حضرته، وفي مملكته، ومن رعايا مملكته؛ ونقصد بقولنا أو نيتنا بالله جل جلاله أي بحوله وقوته، ومواد رحمته ونعمته، ومن حفظه وحراسته وحمايته وخفارته؛ ونقصد بنيتنا إلى الله جل جلاله أننا متبعون في السفر المقدس إرادته، وسائرون إلى مراده جل جلاله من عبادته، فنحن في المعنى مسافرون منه إليه؛ ونقصد بنيتنا أو قولنا لله جل جلاله أن سفرنا خالصاً من ممازجة الطبع وكل ما يخرجنا عن حفظ حرمته، وشكر نعمته، وتذكارنا أننا في حضرته[٢].

---

(١) الأمان ص ٢٩.

(٢) الأمان ص ٣١.

فضل الله

أقول: وإذا وقفت على كتابنا هذا فلعلك تجد فيه من الهداية إلى جلاله والدلالة على وجوب العناية بإقباله، وكشف طريق التحقيق لأهل التوفيق، ما يدلك على أن هذا ما هو من كسبنا واجتهادنا، بل هو ابتداء من فضل المالك الرحيم الشفيق.

فإذا انتفعت بشيء من تلك الأقوال والأعمال فاقتصر على الشكر لله جل جلاله وتعظيم ذلك الجلال، ولا تشتغل عنه بذكري ولا شكري، فيكون ذلك اشتغالاً منك بالمملوك عن المالك ومخاطرة منك في المسالك وتعرضاً للمهالك فإنه جل جلاله قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النُّور: ٢١].

وقال جل جلاله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: ٥٣] وقد تحقق مملوكه مؤلف هذا الكتاب الذي خلقه سبحانه من العدم ونقله إلى القوة بعد الضعف والقلة أنه لولا فضل مولاه عليه ورحمته له ما وصل إلى شيء مما وصل إليه مما دلّه عليه أبداً، وأن ما به من نعمة فمن فضل ذلك المالك المعبود ومن أبواب الرحمة والجود.

فإذا اتفق المالك والمملوك على صحة هذه الحال فكيف تخالفهما أنت في المقال وتقول: إنها من فضل المملوك الذي خلق

من تراب وطين وحمأ مسنون وماء مهين ونطفة وعلقة ومضغة وجنين وراضع ويافع وفي كل الطبقات كان هذا المملوك جاهلاً لذاته، لولا أن مولاه تفضل عليه برحماته، ثم تمم ما كان تفضل به وأنعم وعلّم الإنسان ما لم يعلم[١].

(١) فلاح السائل ص ٢٨.

خدمة الخالق

وقد ذكرت في كتاب «تقريب السالك إلى خدمة المالك» طرفاً من صفات من ذكرت ومن لم أذكر من الذين يُقتدى بهم وكانوا على هذا السبيل من الاجتهاد الجليل الجميل.

فإذا لم يحصل لك قوة ولا توفيق للسلوك بمطايا الليل على هذا الطريق، فكن كما قال مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام وتقضيه معرفتك بمولاك الذي أنت بين يديه فإنه قال عليه السلام «إذا ضعفت من الخير فأضعف عن الشر».

واعتبر صدق دعواك من بطلانها فإن نفسك تريد النوم وتتكاسل عن خدمة مالكها وسلطانها، بأنه لو جاءك واحد من أصدقائك أو بعض خدم ملوك دار الغرور أو جاءك حويجة من حويجات دار السرور التي تطلبها من الدنيا التي تفنى لذاتها وتبقى تبعاتها، أما كنت تترك الكسل والنوم بالكلية، فإذا عرفت ذلك فأبك عليها فأنك مريض في قلبك أو ضعيف في عقائدك الدينية، فتب إلى الله جل جلاله واسأله العفو وأن يكمل جل جلاله لك ما هو من السعادة الدينية والدنيوية فإنهما حاصلتان في مراقبة تلك الجلالة الإلهية.

فإذا جاء النوم وصرت كالمغلوب فإنك إن كنت كذلك كنت

معذوراً، ما لم يكن نومك لذنب طردك به علّام الغيوب عن مقام خلوة المحب بالمحبوب.

فقد جاء في الحديث أن الله جل جلاله ينوّم العبد عن خدمته عقوبة له بطريق الذنوب، فانظر هناك فيما رواه أبو محمد زكريا المؤمن في كتابه الذي رواه عن مولانا الصادق عليه السلام بإسناده عن عبد الصمد عن أبي عبد الله عليه السلام قال له رجل: أوصني، قال: «أوصيك بتقوى الله وإذا أويت إلى فراشك فاذكر ما كسبت في يومك من خير أو شر واذكر ما أدخلت بطنك من طيّب أو خبيث[1].

(١) فلاح السائل ص ٤٦١.

كيف تقرأ القرآن الكريم

قال رحمه الله: «اعلم أنَّ المراد من قراءتك القرآن أن تستحضر في عقلك وقلبك أن الله جل جلاله يقرأ عليك كلامه بلسانك، فتسمع مقدس كلامه وتعترف بقدر إنعامه وتستفهم المراد من آدابه ومواعظه وأحكامه.

فإن قلت: لا يقوم ضعف البشرية والأجزاء الترابية بقدر معرفة حرمة الجلالة الإلهية، فليكن أدبك في الاستماع والانتفاع على مقدار أنه لو قرأ عليك بعض ملوك الدنيا كلاماً قد نظمه وأراد منك أن تفهم معانيه وتعمل بها وتعظمه فلا ترضى لنفسك وأنت مقر بالإسلام أن يكون الله جل جلاله دون مقام ملك في الدنيا يزول ملكه لبعض الأحلام.

وإن قلت: لا أقدر على بلوغ هذه المرتبة الشريفة فلا أقل أن يكون استماعك وانتفاعك بالقراءة المقدسة المنيفة كما لو جاءك كتاب من والدك أو ولدك القريب إليك أو من صديقك العزيز عليك فإنك إن أنزلت الله جل جلاله وكلامه المعظم دون هذه المراتب فقد عرضت نفسك الضعيفة لصفقة خاسر أو خائب»[1].

---

(١) الاقبال ص ٣٨٨.

آداب الصلاة

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الطهارة: «المهم لمن يريد الطهارة بالماء أن يبدأ بتطهير الأعضاء من وسخ الذنوب ودنس العيوب قبل غسلها بالماء، فإنه إذا غسلها وهو غافل عن تطهيرها مما يكرهه مولاه الذي يريد وقوفه بين يديه، وكان في حال غسلها بالماء غائباً عن الله جل جلاله في سفر غفلته وجرأته عليه كان كالمستهزىء حيث ترك الأهم واشتغل بالدون ولا يأمن أن يتناوله تهديد قوله جل جلاله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

أما بلغك أن مولانا زين العابدين علي بن الحسين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان إذا شرع في طهارة الصلوات اصفر وجهه وظهر عليه الخوف من تلك المقامات، فهل يجوز في ميزان العقل أن يخاف هو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو مستقيم وتأمن أنت وأنت سقيم؟ فإن كل من يريد الدخول إلى حضرة ملك لمناجاته يتأهب بإصلاح كل ما يقع نظر الملك عليه وبكلما يكون أقرب إليه، وهو المعلوم أن نظر الله جل جلاله المنزه، واعتباره بطهارة القلوب من الذنوب والجوارح من الجرائح ولأنه إذا اهتم بتطهيرها من دنس استعمالها في غير ما خُلقت له من عبادته أما بأن يطلب العفو من مالك رحمته أو بتوبة خالصة بصادق نيته فيكون اهتمامه بذلك الأهم لطفاً له وادعى إلى تطهيرها بالماء على التمام،

وإذا طهرها بالماء بعد تطهيرها من الآثام كان أقرب إلى أن يدخل حضرة المناجاة بسلام ويجد روح أرج ذلك المقام.

المهم عند العارفين في الاغتسال قبل الشروع تقديم غسل القلوب من الذنوب بماء الخشوع، وغسل الجوارح من العيوب بماء الدموع، ونية غسل التوبة بوسيلة الإخلاص والدخول عند الغسل إلى مقام الاختصاص»[١].

ذكر نية الصلاة:

أما نية الصلاة فإنك إن كنت عبداً معاملاً لله جل جلاله في جميع الحركات والسكنات عارفاً بمعنى قوله جل جلاله في محكم الآيات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريَات: ٥٦].

فأنت إذا كنت كذلك لا زلت متهيئاً لأوامره فتمتثل أمره بالصلاة وتعبده لأنه يستحق العبادة لذاته كما لو كنت متهيئاً لدخول شخص عزيز عليك، فإنك حيث تراه تقوم لإكرامه وتقبل عليه بمقتضى مشاهدة ذاته، أو لو كنت متهيئاً لقدوم رسول إليك ممن يعزّ عليك فأنه إذا وقع نظرك عليه ونظره عليك وسمعت رسالة الرسول فأنك تبادر إلى قبوله من غير تردد فكر ولا روية ولا تحتاج إلى تجديد زيادة نية.

وأما إن كنت عن ربك غافلاً ولدنياك وهواك معاملاً فتحتاج عند الحضور للصلوات أن تحضر شارد قلبك بزمام عقلك ولبك وتقفه بين يدي مولاك، وتذكره أنه دعاك وأنه يراك، وتقصد بعقلك وقلبك أنك

---

(١) فلاح السائل ص ٩١.

تعبده لأنه أهل للعبادة، وتدخل حضرة مناجاته دخول أهل السعادة وهذه الصلاة إن كانت واجبة أداء فتقصد العبادة لوجه وجوبها أداء وإن كانت قضاءً فتقصد ذلك وإن كانت أداء أو قضاء فتقصد بذلك العبادة لله جل جلاله»[١].

ذكر تكبيرة الإحرام:

ينبغي إذا قلت «الله أكبر» أن يكون هذا القول منك معاملة لله جل جلاله وعبادة ولا يكون تلفظاً بالغفلة على العادة وتكون صادقاً فيه، فأما قولك «الله أكبر» فقد روى ابن بابويه عن الصادق عليه السلام في كتاب التوحيد بإسناده أن رجلاً قال عنده يعني عند الصادق عليه السلام «الله أكبر» فقال «الله أكبر» من أي شيء؟ فقال: من كل شيء، فقال أبو عبد الله عليه السلام: حددته، فقال الرجل: كيف أقول، فقال قل: الله أكبر من أن يوصف.

ومعنى قولي أن يكون هذا قولك عبادة ومعاملة، أي أن يكون الله جل جلاله في قلبك وعند عقلك عظيماً على قدر ما وهبك من معرفة ذاته وصفاته الكاملة، فتقصد بهذا الاعتقاد في عظمته وبهذا اللفظ في قولك «الله أكبر» مجرد عبادته لأنه أهل للعبادة.

وأما قولي أن يكون «صادقاً« فأريد بذلك أن يكون فعلك لقولك موافقاً بحيث إذا قلت «الله أكبر» تكون سريرتك موافقة لعلانيتك في أنه لا شيء أعظم منه جل جلاله في قلبك وعقلك ونفسك ونيتك ويكون شيء أعز عليك منه ولا يشغلك في تلك الحال شيء عنه كما

---

(١) فلاح السائل ص ٩٧.

قال جل جلاله في تهديده لمن يؤثر عليه بصريح القرآن المبين: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فإذا وجدت عقلك وقلبك ونفسك تؤثر على الله جل جلاله غيره فاعلم أنك داخل تحت تهديد سلطان العالمين، ولعلك تكون ممن قد غضب الله جل جلاله عليك، فلا يهديك لفسقك وسمّاك من الفاسقين»[1].

وجهت وجهي

وقد كان فرضنا جميعاً أن نخاف الله جل جلاله للهيبة والحرمة التي يستحقها لذاته، فبلغت الغفلة بنا إلى أننا لا نخاف لذلك ولا نخاف لأجل خوف المعصومين الذين نقتدي بهم في عباداته، ولا نخاف لأجل ما تجدد منا من مخالفاته في إرادته، وتهويننا بجلالة أمره ونهيه وبمقدس حبّه وقربه ومناجاته، وهذا جهل عظيم منا بالمعبود كاد أن يقرب من جهل أهل الجحود، فإذا قال العبد «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض» ينبغي أن يتحقق أنه في مقام العرض وأنه ما مراد الله جل جلاله منه ومراد رسوله ﷺ بقوله «وجهت وجهي» أي وجهت صورة وجهي إلى القبلة فحسب للذي فطر السماوات والأرض، ولكن المراد منه أن يكون قد وجه قلبه

(١) فلاح السائل ص ١٦٩.

وعقله عن الالتفات إلى سواه جل جلاله من سائر المرادات والمكروهات.

ولقد قيل لبعض العارفين: ما أحسن ما تقبل بوجهك على الصلوات، فقال: إن كان وجهي لا يلتفت فإن وجه قلبي كثير الالتفات.

فإذا كان وجه القلب مقبلاً ومتوجهاً إلى الله جل جلاله بالكلية كانت الجوارح مقبلة على الله جل جلاله فيما خلقت له، لأنها مع القلب كالرعية وعند هذه الحال يكون دخوله في هذه الصلاة دخول أهل الإقبال، فإن استمر على ذلك إلى حين الفراغ من الصلاة فقد ظفر ببلوغ الآمال، وإن تعثر في أذيال الإلتفات عن مولاه وهو يراه فحاله حال أهل التعثير الذين يقع أحدهم تارة ويقوم تارة في خطاه، وربما أفسده تعثيره عليه دنياه وأخراه وفاته إقبال ربه جل جلاله ورضاه.

وإن قال «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض» وهو في تلك الحال غافل أو متغافل عن هيبة العرض وحرمة الفرض فيكون في قوله «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض» كاذباً قد افتتح صلاته بالجنايات بالكذب والبهتان، وكيف حال من أول صلاته تصريح بالكذب والزور والعدوان، أما يكون مستحقاً للهوان.

وإن كان في حال قيامه إلى الصلاة ودخوله فيها على صفة المتكاسل والمتثاقل فلينظر حال الذين يقومون إلى الصلاة كسالى في صريح القرآن ويفكر أنه لو دخل عليه قبل أن يدخل في تلك الصلاة صديق أو بعض من يحبه من أعوان السلطان كيف كان يقوم إليه ويقبل

عليه بغير تكاسل ولا تثاقل وليتحقق من نفسه أن الله جل جلاله أهون عنده من عبد من عبيده ويا له من خطر هائل»[١].

الحمد لله قد مضى في خطبة كتابنا أن التحميد والتمجيد من وظائف من خلص فيما بينه وبين الله جل جلاله من الجنايات فأما من كان عليه فرض مضيق من المهمات فالبدأة لازمة له بالأهم فالأهم والأهم عليه التوبة وأداء الفروض المتعينة قبل الدخول في الصلاة والتحميدات والتمجيدات، سواء كانت الفروض على قلبه أو بدنه أو ماله أو في شيء من أعماله.

ومن أدب الإنسان عند تحميده وتمجيده أن يكون تلذذه وتعلق خواطره بحمد الله جل جلاله وتمجيده ومدح الله جل جلاله على ذلك وشكره له سبحانه الذي عنده، وأحب إليه من مدحه لكل من يعزّ عليه من العباد، ومن مدح أهل الدنيا وثنائهم عليه في الإصدار والإيراد، ويكون ترجيح حبّه لمدحه الله جل جلاله وشكر الله جل جلاله بقدر ما بين الله جل جلاله وبين عباده من تفاوت جلالته وحق انعامه وإرفاده، فإن عجز العبد عن هذا المقام فلا أقل من أن يكون حبه لمدحه الله جل جلاله ولشكر الله جل جلاله أرجح في قلبه من مدحه لأهل الأنعام من الأنام أو لشكر من يشكره من ملوك الإسلام.

فأما إن نقص حال العبد عن هذا المقام وكان في مدح الله جل جلاله وشكره سبحانه أهون من مماليكه وعبيده فقد استخف استخفافاً عظيماً بتحميده وتمجيده وكان مستحقاً لما تضمنه هوله ووعيده وتهديده[٢].

---

(١) فلاح السائل ص ١٧٥.

(٢) فلاح السائل ص١٧٧.

ذكر أدبه عند قول «مالك يوم الدين»

أعلم أن يوم الدين يوم الحساب والعرض على سلطان العالمين وإظهار السرائر بمحضر من كان يسترها من الخلائق أجمعين، فينبغي أن يكون عند هذه الحال خائفاً لما يخافه على نفسه يوم الحساب والسؤال.

فقد روى محمد بن يعقوب الكليني ما معناه أن مولانا زين العابدين وهو صاحب المقام المكين كان إذا قال «مالك يوم الدين» يكررها في قراءته حتى يظن من يراه أنه قد أشرف على مماته وما لخوف منه يحذرون ولا الخنا عليهم ولكن هيبة هي ما هي.

وقد عرفت أن مولانا زين العابدين قدوة لك في أمور الدنيا والدين فسر في آثاره بهداية الله جل جلاله وبأنواره على مطايا اليقين فإن الله جل جلاله قادر أن يبلغك ما هو سبحانه أهله من مقامات العارفين»[1].

ذكر أدب العبد في قوله «إياك نعبد وإياك نستعين»

أعلم أنه ينبغي أن يكون العبد صادقاً في قوله «إياك نعبد» ومعنى قولي أن يكون صادقاً لأنه إذا قال إياك نعبد وكان إنما يعبد الله جل جلاله لما يرجوه منه سبحانه من نفع عاجل أو ثواب آجل أو دفع محذور في الدنيا أو في يوم النشور فإنما يكون على الحقيقة كأنك تعبد نفسك، وتكون عبادتك لأجلها ولأجل شهواتك ولذاتك، ولا تكون عابد الله جل جلاله لأنه أهل للعبادة، فيكون قولك «إياك نعبد»

---

(١) فلاح السائل ص ١٧٨.

كذباً وبهتاناً ومانعاً لك من الظفر بالسلامة والسعادة ويثبت اسمك في ديوان الكذابين ويكون قد جعلت نفسك من الهالكين، أما تسمع كلام المقدس الميمون ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

وكذا ينبغي أن تكون صادقاً في قولك «وإياك نستعين» فلا يكون في قلبك عند ذلك القول مستعان لك سواه جل جلاله على التحقيق واليقين، فإنك إن كنت مستعيناً عند تلك الحال بحولك وقوتك ودنياك أو مالك أو رجالك أو غيره من آمالك وأحوالك فأنت في قولك «إياك نستعين» إذا قصدت به أنه لا مستعان لك سواه، كاذب مخاطر، مستخف، مباهت، مستحق لما يستحقه العبد المستخف بمولاه[1].

(١) فلاح السائل ص ١٧٧.

أدب الخطاب لرب العالمين

قد قدمنا طرفاً مما يحتاج إليه أهل الضراعات مما شرحناه بالعقول والمنقول من الروايات فإياك أن تهمل تهذيب نفسك وقلبك خاصة عند مخاطبة مولاك وربك، فإنك إذا دعوت الله جل جلاله وقلبك في تلك الحال فارغ منه أو مشغول بالغفلة عنه أو بقصور احترام وتهوين منك بجلالة ذلك المقام كنت كأنك تخاطب ملكاً من ملوك الدنيا في حاجة إليه وظهرك إليه.

أما تعلم أنك إذا خاطبت الملوك وظهرك إليهم أو أنت مشغول عنهم بالغفلة والتهوين بهم عن الإقبال عليهم فإنك تعلم أنك تستحق أن يكون جوابك منهم أن يخرجوك من حضرتهم مطروداً وعن رحمتهم مصدوداً وربما لو حملوك إلى الحبوس وزيادة البؤس اعتقدت أن الذنب لك فيما يجري عليك منهم من النكال.

ورأيت مع أن الذنب منك أنك مستحق للمؤاخذة على ما وقع منك من الإهمال، فلا يكون عندك حرمة مالك الدنيا والآخرة أقل من حرمة الملوك الذين هم مماليكه في هذه الدنيا الحقيرة الدائرة، وإذا تأخرت عنك إجابة الدعوات وأنت على ما ذكرناه من الغفلات فالذنب لك وقد أحسن الله جل جلاله إليك كيف عفى لك عن عقاب تلك الجنايات.

وإياك أن يخطر بقلبك أو تقول بلسانك كما تسمع من بعض الغافلين الذين ما دخل في قلبهم حقيقة الإيمان والدين فيقولون قد دعونا الله وما نرى الإجابة كما ذكر في القرآن.

ويقولون هذا على سبيل الاستزادة، وكأنّ الله جل جلاله عندهم قد أخلف وعده بإجابة الدعاء، وهذا كالكفر عند أهل الإيمان، فإنهم لو كانوا عارفين بالله جل جلاله على اليقين ما أقدموا على أن يقولوا بحضرته المذهلة للألباب أنك وعدتنا بإجابة الدعاء واخلفتنا في الجواب.

وإنما هذا قولهم بذلك على أنهم ما كانوا عند الدعاء عارفين أو ما كانوا ذاكرين عند الموافقة منهم لله جل جلاله أنهم بحضرة مالك الدنيا والدين.

وهؤلاء أهل أن يعرض الله جل جلاله عن دعواتهم وإجاباتهم وحسبهم عفو الله جل جلاله عن مؤاخذتهم على غفلاتهم وجهلاتهم.

وقد روي عن مولانا الصادق عليه السلام أنه قيل له: ما بالنا ندعو الله جل جلاله فلا يستجاب لنا؟ فقال: لأنكم تدعون من لا تعرفون»[1].

(١) فلاح السائل ص ١٨٠.

أدب تلاوة القرآن الكريم

إعلم أن من أدب العبد في تلاوته كلام مولاه الذي يعلم أنه يراه أن يكون ذاكراً لجلالته وأنه في حضرته ويكون متشرقاً ومتلذذاً باستماع محادثته ومتأدباً مع عظمته، فيتلو كلامه المقدس بنية أنه نائب عن الله جل جلاله في قراءة كلامه وأن الله جل جلاله مقبل عليه يستمع كلامه المقدس منه، فلا يكن حالك عند تلك التلاوات دون حالك لو قرأت بعض الكتب المصنفات على من صفنها ممن تريد التقرب إليه في قراءة تصنيفه عليه وأنت محتاج في كل أمورك إليه، فأنك تعلم أنك كنت تبذل جهدك في إحضار قلبك بغاية إمكانك وتبالغ في تهذيب لسانك وتقبل عليه وعلى قراءة تصنيفه بجميع جنانك وبحفظ نفسك في الحركات والسكنات، فلا يكن الله جل جلاله عندك في قراءة كلامه دون صاحب المصنفات، فإنك إن جعلت الله جل جلاله دون هذه الحال كنت أقرب إلى الهلاك واستحقاق النكال، واقتد بمن تذكر أنت وتدّعى أنك مهتد بأنواره ومقتد بآثاره»[1].

---

(١) فلاح السائل ص ١٨١.

أدب الركوع

ينبغي للعبد إذا كبّر تكبيرة الركوع أن يركع بذل واستكانة وخضوع ويكون مستحضراً بقلبه ونيته أنه معامل في عبادته وركوعه لله مالك دنياه وآخرته، فيقابل في حال ركوعه كمال تلك الجلالة الإلهية بذلّ العبودية، ولله در القائل.

إذا كان من تهوي عزيزاً ولم تكن ذليلاً له فاقر السلام على الوصل

أفلا ترى أن من أدب العبد مع الملوك في دار الزوال أنهم إذا تلقوهم وأقبلوا عليهم يركعون لهم على سبيل التعظيم والإجلال ويكونون في تلك الحال مستحضرين أنهم بين أيديهم وأنهم يقصدونهم بذلك التعظيم، فكيف تركع أنت وتخضع للعالم بالاسرار وهو أعظم من كل عظيم وقلبك خال من حضورك بين يديه ومن ذلك له ومن إقبالك عليه.

ومن أدب الراكع في الصلاة إذا كان ممن يقول في ركوعه «لك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت وأنت ربي خشع لك سمعي وبصري ومخي وعصبي وعظامي وما أقلّته قدماي لله رب العالمين» أن يكون العبد ذاكراً أنه قد أدعى في هذا القول صفات المقبلين على مالك يوم الدين بجميع جوارحه على الحقيقة واليقين،

وصفة المستسلمين والمتوكلين، فإياك أن يكون شيء منك غير خاضع ولا خاشع أو غير مستسلم لله جل جلاله أو غير متوكل على الله في شيء من أمور الدنيا والدين فتكون في قولك من الكاذبين، فأي صلاة تبقى لك إذ صليتها بالكذب والبهت لمالك الأولين والآخرين؟!.

ومن أدب الراكع في الصلاة أنه لا يستعجل برفع رأسه من الركوع قبل استيفاء أقسام ذل العبودية لمولاه، كما رويناه عمن يُقتدي به، وكما رويناه بإسنادنا إلى أبي جعفر بن بابويه فيما رويناه من كتاب زهد مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام، عن الحسين بن سعيد عن عثمان بن سعيد عن الفضل بن صالح عن أبي الصباح عن أبي عبد الله قال: «كان علي عليه السلام يركع فيسيل عرقه حتى يطأ في عرقه من طول قيامه».

أقول: أنا لك: فيا أيها المشفق على روحه وقلبه وجسده وكبده، أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده.

ومن أدب الراكع أنه إذا رفع رأسه بعدما ذكرناه، فليكن رفع رأسه بوقار وسكينة فإن مولاه يراه، فإذا قال «سمع الله لمن حمده» أهل الكبرياء والعظمة والجود والجبروت، أنه يمدّ يديه عند ذكر الكبرياء والعظمة والجبروت بالذل للمعبود ويبسطهما بالرجاء عند ذكر الجود.

أدب السجود

أعلم أنه من أدب العبد في سجوده أن يكون على زيادة عما ذكرناه في الركوع من الذل لمعبوده، فإياه أن يكون قلبه خالياً من أذكار نفسه أنه حاضر بين يدي الله جل جلاله وأنه جل جلاله على ما هو عليه من العظمة والجلالة التي لا يحيط بها مقال كل ذي مقالة، وأن هذا العبد على صفة من الضعف والفقر والمسكنة والذنوب التي قد أوقعته في الرذالة فيهوي إلى السجود على أبلغ ما ذكرناه في الركوع من الذل والخضوع والخشوع.

فإنه إن سجد وقلبه خال من الذكر لهذه الحال وإنما يسجد على العادة ومراعاة صورة السجود من غير استحضار لمعاملة مولاه بالإقبال عليه وبين يديه، فهو كالذي يلعب في سجوده أو كالمعرض أو كالمستهزىء بمالكه ومعبوده، وقد عرف أهل العلم أن ذلك الركوع وهذا السجود من أركان الصلوات وأنهما متى تركهما العبد في صلاته عامداً أو ناسياً بطلت صلاته بمقتضى الفتوى والروايات وصاحب الشريعة صلوات الله عليه وآله، ما بعث إلى العباد بمعاملة وعبودية لغير معبود، فإذا خلا خاطرك من المقصود بهذه الذلة والعبودية عند الركوع والسجود فما الفرق بينك وبين أهل الجحود، وما الفرق بينك وبين الساهي واللاهي، وإنما جاء محمد ﷺ يدعو

إلى المعبود قبل العادة، فإياك أن تكون ممن خلا قلبه من ذل العبودية له وصار يقوم ويركع ويسجد فارغ القلب منه جل جلاله بحسب العرف والعادة.

وإن كنت ممن يقول في سجوده «اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت وأنت ربي سجد لك سمعي وبصري وشعري وعصبي ومخي وعظامي سجد وجهي البالي الفاني للذي خلقه وصوّره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين».

فإنك إن قلت هذا وأعضاؤك غير ساجدة جميعاً على معنى الذل والاستسلام والتوكل والخضوع والخشوع للمعبود فكأنك غائب عن معنى السجود، ويكون قولك ودعواك كذباً وبهتاً لمولاك، فكيف تصح صلاتك يا مسكين إذا كان عبادتك بالكذب والبهت والتهوين؟!.

حب الله تعالى

ثم أقول لك: إن كنت تجد في سجودك ما يجده المحب من الروح والسرور إذا قرب من أهل الحب، وإلا فسجودك ذميم مدخول وقلبك سقيم معلول، لأنك قد عرفت أن صريح القرآن تضمن «واسجد واقترب» فجعل السجود من علامات القرب إلى علام الغيوب، فطالب نفسك بأنها تجد عند السجود ما يجد المحب بقرب المحبوب، فإن حبك لله جل جلاله من ثمرة معرفتك بجلاله وعظيم نواله وأفضاله.

قال الله جل جلاله في قوم يثني عليهم ممن كانوا يعرفونه ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال جل جلاله في وصفه لأهل النجاة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] ولا يغرنك قول من يقول إن حبك لله جل جلاله طاعته، فإن ذلك أن كان قاله من قول قدوة، فلعله لتقية أو لضعف السامع عن معرفة الأسرار الربانية، لأن حبك لله جل جلاله إن كنت عارفاً به كان قبل طاعتك له، لأنك عرفته منعماً فأحببته ثم وجدته يستحق الطاعة فأطعته، وإلا فكيف عقلت معنى الرواية المتفق عليها «جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها» فتكون القلوب على حب العبد المحسن مجبولة وتكون عند إحسان الله جل جلاله عن حبه معزولة، هذا لا تقبله إلا عقول سقيمة معلولة.

وقد عرفت أن حبك لله جل جلاله من عمل القلوب وطاعتك له تكون من عمل القلب فحسب، ومن عمل القلب ومن عمل الجوارح الظاهرة، وكيف صارت الطاعة التي تكون تارة بالقلب وتارة بالقلب والجوارح الظاهرة وهما قسمان قسماً واحداً، هذا كالمكابرة للعيان، وكيف صار العمل بالجوارح الظاهرة هو العمل بالقلوب، هذا مستحيل عند من عقله غير محجوب.

ثم وقد يعمل الإنسان الطاعات وهي تشق عليه ويكون قلبه كارهاً لها أو للتكليف بها، فلو كان حب العبد جل جلاله طاعته كان في هذه الحال كارهاً لحب الله بل كارهاً لله جل جلاله بل باغضاً لله جل جلاله لأن ضد الحب البغض، فإذا بغض العبد طاعة الله جل جلاله فقد بغض حب الله جل جلاله وصار باغضاً لله جل جلاله فيكون على هذا كل من كره طاعة الله جل جلاله، باغضاً لله جل جلاله ويكون كافراً، فهل تجد لك على هذا القول من المسلمين العارفين عاذراً أو ناصراً، وهل يقبل عقلك أن معنى قوله جل جلاله الذي قدمناه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] أو عقل عاقل إن قوله أحب إليكم من هذه الأشياء التي عددها سبحانه أن المراد به الطاعة.

وهبك جوّزت هذا في آبائهم وأبنائهم وإخوانكم وأزواجهم وعشيرتهم، فهل تجوّز في قوله جل جلاله «وأموال افترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها» أن الحب لهذه الأشياء بمعنى

الطاعة، فإياك أن تحمل على العقول ما لا يدخل تحت الاستطاعة، ودع عنك تقليد من قال: إن حب العبد لله جل جلاله طاعته وأقبل الحق ممن قاله فقد انكشف لك براهينه وحجته.

فهذا بيان أن حب العبد لله جل جلاله بالقلوب، وهو مما يثمره قوة معرفة بالله جل جلاله وقوة المعرفة بإحسانه، الذين يسوقان عقل العبد وقلبه إلى حب مولاه قبل أن يعرف العبد هل هو مكلف بحب الله جل جلاله أم لا، فكيف إذا عرف أنه مأمور أيضاً بحبه عقلاً ونقلاً، لأن الكامل في ذاته محبوب لكماله، والمحسن محبوب لإحسانه وأفضاله قبل معرفة التكليف بهذا الحب المذكور، والله جل جلاله أعظم شأناً وأعم إحساناً من أن يحيط بجلاله وصفنا لكماله ووصفنا لإحسانه ولأفضاله بل هو جل جلاله أعظم كمالاً وأبلغ إحساناً وإفضالاً فوجب أن يكون محبوباً بالقلوب إلى من عرفه على اليقين وعرف إحسانه في أمور الدنيا والدين.

وأما حب الله جل جلاله لعبده إذا أطاعه، وغضبه عليه إذا عصاه، فلعلك تجد في الروايات والمقالات أن حب الله جل جلاله للعبد أو رضاه عنه هو ثوابه له، وأن غضب الله جل جلاله على عبده العاصي هو عذابه له، فأما المقالات لذلك فلا يجوز تقليدهم في المعقول وأما حديث الرواية والمنقول فإن سلمت من الطعن عليها وكانت عن معصوم فلعل ذلك قالوه على سبيل التقية، فإنهم عليهم السلام كانوا في تقية هائلة، وقد كشفنا تقيّتهم فيما ذكرنا في الاعتذار لمضمون كتاب الكشي، فإن هذا القول كثير في مذهب المخالفين لهم أو لعل ذلك قالوه للتقريب على السائلين والسامعين، فإن كثيراً من

المستمعين تقصر إفهامهم عن أسرار صفات سلطان العالمين فلعلهم خافوا عليهم أنهم إذا قالوا لهم: إن الله جل جلاله يحب ويرضى ويغضب ويسخط، أن يسبق إلى خواطر من يسمع ذلك أنه جل جلاله يحب ويرضى مثل الحب والرضا من الطباع البشرية أو يغضب ويسخط مثل الغضب والسخط من القلوب الترابية، فحدّثوا عليهم السلام بما تبلغ اليه عقول السائلين والسامعين، وإذا اعتبرت بعض الروايات في ذلك وجدتها شاهدة بأنهم نفوا عن الله جل جلاله الحب والرضا والغضب والسخط الذين تتغير الأمزجة بهما ولا يصحان إلا على الأجسام القابلة لهما حتى قربوا على بعض السائلين وقالوا لهم ما معناه: إن غضب الله جل جلاله ورضاه أشارة إلى غضب أوليائه وخاصته ورضاهم، وهذا صحيح عند العارفين وإن خواصه جل جلاله ما يغضبون وما يرضون إلا بعد غضبه سبحانه ورضاه؛ لأنهم عليهم السلام له جل جلاله تابعون «لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون».

وإلا فالعقول الصحيحة شاهدة وجداناً وعياناً أن معنى لفظ الحب والرضا غير معنى لفظ الثواب، وكذلك معنى الغضب غير معنى العقاب، سواء كان ذلك في العباد أو رب الأرباب.

وقد عرفنا ذلك قوله جل جلال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢].

وقوله جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصَّف: ٤].

وقوله جل جلاله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] عن قوم كانوا حقاً ويقيناً يعرفونه.

وقال جل جلاله في الغضب: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وذكر جماعة من أهل اللغة ومن المفسرين أن معنى قوله جل جلاله أي أغضبونا، فقال الجوهري في كتاب الصحاح ما هذا لفظه: «وأسف عليه أسفاً أي غضب وأسفه أغضبه».

وقال الطبرسي في تفسير القرآن «فلما أسفونا» أي أغضبونا وغضبه سبحانه إرادة عقابهم، وما قال الطبرسي إن غضبه عقابهم فجعل الله جل جلاله في هذه الآية الأسف الذي هو الغضب منه جل جلاله عليهم قبل عقابه لهم الذي هو الانتقام.

وهذا واضح كيف يخفى مثله على ذوي الإفهام، وقال جل جلاله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النّساء: ٩٣].

أفلا ترى أنه جل جلاله قدّم الغضب على العذاب بل قبل أعداد عذابه بجهنم في صريح الكتاب على مقتضى مفهوم الألباب.

ويزيدك بياناً أنك ترى الأحاديث والأدعية متظاهرة بما معناه أو لفظه «اللهم إن لم ترضى عني فاعف عني فقد يعفو المولى عن عبده وهو غير راض عنه».

ثم أو ما تعلم أن الكفار الذين علم الله جل جلاله منهم أنهم يموتون على كفرهم كانوا يستحقون في حكم العقل عقوبتهم في حال حياتهم.

ثم تعلم أن الله جل جلاله غضبان عليهم في حال كفرهم قطعاً إن كنت مسلماً، فعفى الله جل جلاله عن تعجيل عقوبتهم وأخر عقابهم

إلى بعد وفاتهم مع كونهم مذ كفروا وعلم استمرارهم على كفرهم كان قد غضب عليهم.

فهذا يكشف لك أن الغضب من الله جل جلاله قبل العقاب، لأنه إذا كان الله جل جلاله يعفو عن عقاب العبد وهو غير راض عن العبد كما تضمنته الأدعية في عفوه عن المؤمن وهو غير راض عنه وحال الكفار الذين يموتون على كفرهم وتأخير عقوبتهم وهو غضبان عليهم كما قلناه لأنه إذا كان غير راض كان غضباناً، ولا يخلو عن مقام الرضا والغضب في وقت واحد على وجه واحد، فلو كان الغضب هو العقاب استحال أن يعفو عن عبد ويكون في حال عفوه عنه غضباناً عليه وكان متى عفى عن العبد المسلم أو الكافر قبل وفاته زال غضبه عنهم، وهذا خلاف المعلوم من دين أهل الحق والصدق.

ولكن حبه جل جلاله أو رضاه حيث قد نطق القرآن الصريح والنقل الصحيح بهما وبغضبه وسخطه جل جلاله وثبوت هاتين الصفتين له جل جلاله فإنه يكون لحبه سبحانه أو رضاه وغضبه أو سخطه وجه معلوم غير ما نعرفه من رضا الأجسام وحبها وغضبها وسخطها، وغير ما فسروه بأن حبه ورضاه ثوابه، وغضبه عقابه، كما كان تفسير سائر صفاته جل جلاله غير صفات الأجسام.

فإن كون أحدنا قادراً يقتضي قوة زائدة وحالاً متجددة غير كونه عاجزاً، وكذا كون أحدنا عالماً وحيّاً وسائر صفاتنا يقتضي تجدد حالات وتغيرات علينا، وهذه المعاني مستحيلة على الله جل جلاله، ولكن هذه الصفات في الله كما يليق بذاته المقدسة التي لا مثل لها وكما يليق بصفاته المنزهة التي لا شبه لها، وكذا يكون تفسير الحب

منه جل جلاله والرضا والغضب والسخط، وهذا يكشف ما قلناه لأهل الريب ويزيل العجب.

ووجدت بعد تصنيف هذا الكتاب بسنتين في الجزء الأول من تفسير القرآن للطبري عن قوم من المفسرين أنهم ذكروا في غضب الله كما ذكرناه واخترناه»[١].

(١) فلاح السائل ص ١٨٩.

أدب السجود

ومن أدب العبد في السجود أنه لا يستعجل في رفع رأسه من ذلك الخضوع والخشوع للمعبود فقد قلنا لك معنى ما ذكره الله جل جلاله في كتابه أن السجود من مقامات القرب إلى مولاك، فعلى أي شيء تستعجل أوتكره قربه وهو يراك، وكما أنك لا تكره قربك من محبوبك في دنياك ولا تستعجل بالتباعد عنه فكذا كن مع ربك جل جلاله الذي لا بدّ لك منه كما رويناه بإسناده إلى محمد بن يعقوب الكليني فيما رواه بإسناده إلى الفضيل بن يسار وهو من أعيان الأخيار وخواص الأطهار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان علي بن الحسين عليه السلام إذا قام إلى الصلاة تغير لونه فإذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقا»[1].

ذكر الشهادة لله جل جلاله بالوحدانية في الصلاة

المهم أن يكون تلفظك بالشهادة معاملة لله جل جلاله وعبادة ولا يكون قصدك أنه جل جلاله في نفس الأمر واحد فحسب، وإنما يراد منك أنك تعتقد أنه جل جلاله واحد في نفس الأمر، وأنه لا إله لك تعبده سواه، ولا لك شيء تؤثره على رضاه، فإنك إن أثرت شيئاً عليه

(١) فلاح السائل ص ١٩٨.

جل جلاله كان ذلك الذي تؤثره أرجح منه جل جلاله عندك ومعبوداً لك من دونه فيما تؤثره فيه عليه، وما تكون كامل الصدق في الشهادة بأنك لا إله لك سواه، أفلا ترى قوله جل جلاله فيمن رجح عليه هواه فقال سبحانه ﴿اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ﴾ [الفُرقان: ٤٣]؟!.

وروي في تفسير قوله جل جلاله: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبَة: ٣١] أنهم ما صاموا ولا صلوا لهم ولكن أطاعوهم في معصية الله فصار حكمهم بذلك حكم من اتخذهم آلهة.

فإياك أن تشرك به جل جلاله أو تكفر به بإيثارك عليه هواك أو دنياك أو غيره سبحانه فيحصل فيك استحقاق الهلاك.

فقد روينا في بعض أسانيدنا لما سُئل الصادق عليه السلام عن الصدق، فقال: ما معناه «هو أن لا تختار على الله غيره فإنه تعالى قال هو اجتباكم فإذا كان اجتباك فأجتبه أنت ولا تختر عليه هواك ولا دنياك».

وقال الشيخ السعيد أبو جعفر بن بابويه رضوان الله جل جلاله عليه حدثنا أبي رضي الله عنه قال: حدثنا سعد بن عبد الله عن يعقوب بن يزيد عن محمد بن أبي عمير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة، وإخلاصه أن يحجزه لا إله إلا الله عما حرم الله عز وجل» هذا لفظ الحديث ومعناه.

أدب التشهد

المهم أن يكون صادقاً في الشهادة برسالته، ومعنى قولي صادقاً أن يصدّق فعلك قولك في الاتباع لنبوته، فإنك تجد في القرآن المبين أن قوماً شهدوا له بالرسالة ولم يكن القلب موافقاً للقول فسمّاهم جل جلاله كاذبين، أنت تعلم أنه لو جاءك رسول من بعض الملوك يبذل لك على كلمة تقولها ألف دينار وعلى كلمة إن قلتها يعذبك بالنار، ثم إنك ما قلت تلك الكلمة وأخذت الألف دينار، ولا تركت تلك الكلمة وهونت دخول النار ثم قلت للرسول أشهد أنك رسول الملك الذي لا غناء لي عما بذله من المبار ولا قوة لي على ما يهددني به من النار فإن الرسول وغيره من العقلاء يقولون لك: فعلك يكذب ظاهر مقالتك، لو كنت قد صدقته بسريرتك قلت تلك الكلمة وأخذت الألف دينار وتركت تلك الكلمة وسلمت من النار، لأننا كذا نراك في حركاتك وسكناتك في دار الفناء تبادر إلى ما ينفعك إذا وثقت بمنفعته وتهرب مما يضرك إذا صدقت من يخبرك بمضرته.

وقد كنت قلت لبعض من قال لي: إنه قد صدّق محمداً ﷺ، فقلت له ما معناه: لو أن يهودياً أخبرك أن في بعض الطرقات ما يؤذيك وفي بعض الطرقات ما ينفعك، أما كنت تترك الطرقات التي تخاف منها الضرر وتسلك الطريق الذي ترجو منها النفع، فقال: بلى.

فقلت له: فإن قال لك محمد عليه السلام أنه قد حذّرك من طريق النار وعرّفك بطريق دار القرار فلو صدقته كنت قد عملت مثل الذي عملت مع خبر اليهودي، فهل ترى إلا أن تصديقك للذمي أرجح من تصديقك للنبي ﷺ، وذلك شاهد بأنك ما صدّقته في رسالته ومقالته.

ومما ينبغي لك عند الشهادة له ﷺ بالرسالة أن تعتقد أن لله جل جلاله وله المنة العظيمة في هدايتك إلى مقام السعادة والجلالة، وأن بذلك نفسك ومالك وعيالك بين يديه لتحصيل السعادة أبد الآبدين من أياديه ونعمه عليك مع بقاء مالك يوم الدين، قال الله جل جلاله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] (١).

(١) فلاح السائل ص ٢٠١.

الصلاة على محمد وآله

قال السعيد أبو جعفر محمد بن بابويه رضوان الله عليه في كتاب «معاني الأخبار» حدثنا أحمد بن عبد الرحمن المقري قال حدثنا أبو عمرو محمد بن جعفر المقري الجرجاني قال حدثنا أبو بكر محمد بن الحسن الموصلي ببغداد قال حدثني محمد بن عاصم الطريقي قال حدثنا أبو زيد بن عباس بن زيد بن الحسن بن علي الكحال مولى زيد بن علي قال حدثني أبي زيد بن الحسن قال حدثني موسى بن جعفر عليه السلام قال قال الصادق عليه السلام: «من صلى على النبي وآله فمعناه أني أنا على الميثاق والوفاء الذي قلت حين قوله: الست بربكم قالوا: بلى»[1].

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٣.

أدب التسليم

وذكر الشيخ السعيد أبو جعفر بن بابويه رضي الله عنه في الكتاب المشار إليه قال حدثنا أحمد بن الحسن القطان قال حدثنا أحمد بن يحيى ابن زكريا القطان قال حدثنا بكر بن عبد الله بن حبيب قال حدثنا تميم بن بهلول عن أبيه عن عبد الله بن الفضل الهاشمي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن معنى التسليم في الصلاة، فقال: التسليم علامة الأمن وتحليل الصلوات، قلت: وكيف ذلك جعلت فداك، قال: كان الناس فيما مضى إذا سلّم عليهم وارد أمنوا شره، فإذا ردوا أمن شرهم، فإن لم يسلم لم يأمنوا وإن لم يردوا عليه السلام لم يأمنهم، وذلك خّلق في العرب فجعل التسليم علامة للخروج من الصلاة وتحليلاً للكلام وأمناً من أن يدخل في الصلاة ما يفسدها والسلام إسم من أسماء الله عز وجل وهو واقع من المصلي على الملائكة الموكلين به».

وربما قيل إن التسليم يكون على الملائكة جميعهم، ومما يرجّح ما قلنا ما رويناه أن الملكين الموكلين به هما يقبضان العمل منه ويكتبانه ويعرضانه وهما حضرا كالمشرفين عليه وهما الحاضران، فاختصاص التسليم عليهما أقرب إلى الصواب.

فإذا عرفت معنى التسليم فأذكر أنك قد عملت عملاً لله جل

جلاله العظيم وتريد تسليمه إليه وتعرضه عليه، فإن كنت غفلت في شيء منه أو كنت مشغولاً بقلبك بسواه أو معرضاً عنه فتب من ذلك توبة الإخلاص والإنابة أو سلّم العمل تسليم الجناة وأهل الخيانة.

ولقد رأيت في كتاب جدي ورام قدس الله جل جلاله روحه ونور ضريحه حديثاً معناه «أن عبداً ممن يراقب الله جل جلاله ويخشاه» قال: قضيت صلاة ثلاثين سنة وما كنت تركت فريضة منها، ولقد كنت أصليها في الصف الأول ولكن لمصيبة وجدتها كنت قد غفلت عنها، فقيل له ما معناه: وما تلك المصيبة؟ قال: كنت أصلي في الصف الأول مع الإمام فجئت يوماً فما وجدت لي في الصف الأول موضعاً، فصليت في الصف الآخر فوجدت نفسي قد خجلت واستحيت من الأنام أن يروني وأنا في ذلك المقام، فعلمت أن ذلك التقدم في الصف الأول ما كان لله جل جلاله على اليقين وإنما كنت أقصد به التميز عند الحاضرين»[1].

---

(١) فلاح السائل ص ٢٠٣.

إجابة داعي الله تعالى للصلاة

يقول السيد الإمام العالم العامل الفقيه العلامة رضي الدين ركن الإسلام جمال العارفين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن محمد الطاووس الحسيني شرف الله قدره وعصم من كل وسمة ذكره.

أيها العبد الضعيف الذي ينسى من حيث لا يدري، وينام مغلوباً من حيث لا يدري ويمرض من حيث لا يدري، ويهرم من حيث لا يدري، ويصاب بالنوائب من حيث لا يدري، ويفجع بفقد الحبائب من حيث لا يدري، ويموت في آخر الأمر من حيث لا يدري، ما الذي قواك وأقدمك على سوء الأدب على سلطان العالمين وأنت سمعت نداءه مراراً تلويحاً لتقوم إلى خدمتك فهوّنت بذلك ولم تلتفت إلى دعوته فأعاد النداء تصريحاً وقال مراراً في الأذان والإقامة «حي على الصلاة حي على الفلاح حي على خير العمل» وأنت مع ذلك تسمع بأذنيك أي مسكين فلا تلتفت إلى إجابته، فإذا كان اليهود والنصارى يسمعون هذا ولا يلتفتون وأنت تسمع مثلهم ولا تلتفت بأبلغ ما يَحون فما الفرق بينك وبينهم في التحقيق فهل يخفى عليك وعلى عاقل أن صفاتك ما هي صفات أهل التصديق، ويحك لو كنت من ذوي البصائر يكفيك في تعجيل القيام والاهتمام بالخواطر

والسرائر تجويز أنه يمكن أن يكون هذا النداء من سلطان الأوائل والأواخر، فإنك لو سمعت نداء من وراء دارك وقال لك قائل لا تعلم صدقه: هذا نداء الخليفة والملك فلان أو من ترجو منه بلوغ شيء من إيثارك، أما كنت أي سقيم تترك أشغالك وتقوم إلى النداء، فما قام عندك نداء جميع الأنبياء والأوصياء وكافة الدعاة إلى سلطان الأرض والسماء مقام قول واحد لا تعلم صدقه على اليقين، داو نفسك فإنك إن كنت من ذوي العقل فأنت سقيم وبك داء دفين أو من الهالكين، فإياك إذا سمعت هذا النداء أن تتخلف عنه بل تقوم قيام مستبشر قد أهّله مولاه للدخول إلى حضرة مشافهته والإقبال عليه والقبول منه، وما أجد لك عذراً في النصيحة لك والشفقة عليك، فأقول لك إن كنت معذوراً لأنك تعلم أن صاحب هذه الصلاة كلف القيام بها حتى لمن كان محارباً وجريحاً وغريقاً ومريضاً ومأسوراً وما عذر فيها صحيح العقل فارحم روحك فإن بين يديك يوماً عسيراً وخطراً كثيراً»[1].

(١) فلاح السائل ص ٢٥٨.

القيام للصلاة

«إذا فرغ العبد من الإقامة والدعاء بعدها، وكان كما حررناه وهو بين يدي الله جل جلاله بقلبه وقالبه كما يكون العبد بين يدي مولاه إذا كان مولاه يراه.

فينبغي أن يكون على خاطره زيادة على ما قدمناه أن هذه الصلاة يطفي بها نيراناً قد أوقدها على حريق مهجته وحريق كلما يملكه في دنياه وآخرته، وأنها قد شرعت في الحريق فيكون اهتمامه بالصلاة على أتم التوفيق كما لو وقعت النيران في داره في الدنيا أو قماشه وأحرق ولده أو أحرق عياله العزيزين عليه وكادت أن يصل حريقها إلى جسده»[١].

* * *

عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من صلاة يحضر وقتها إلا نادى ملك بين يدي الناس قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها على ظهوركم فأطفئوها بصلاتكم»[٢].

ومن مهمات الذي يريد الصلاة، ألّا يدخلها كارهاً ويخرج عنها

(١) فلاح السائل ص ٢٦٣.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٦٤.

مستقبلاً فإن الله جل جلاله يقول عن بعض من خيّب آمالهم ومحى إقبالهم «ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم».

ومن جملة ما أنزل الله جل جلاله ذكر الصلاة، فلا تكن من الكارهين فتكون من الهالكين، وإياك أن تقبل قول من يقول لك إنها تكليف والتكليف ثقيل على القلوب، فإن هذا القول بعيد من رضا علام الغيوب.

أيقول هو جل جلاله «حبّب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان» فترد أنت عليه هذا القول المقدس الصريح في القرآن وتقول أنت بخلاف ذلك، وتقدم على البهتان، أيقبل قولك أنه جل جلاله يريد منك أن تحبه جل جلاله وتدعي أنك قد أحببته جل جلاله تكره خدمته والتقرّب إليه فهل يصح في العقل أن المحب يستثقل العمل في طلب رضا محبوبه أو يكره شيئاً مما يقرّبه إليه»[1].

* * *

أفلا تسمع قول الصادق عليه السلام المنقول الموافق للمعقول «ما أحب الله من عصاه» فإذا كان العاصي له غير محب لجلاله فكيف يكون المستثقل لما يقرب إليه سبحانه محباً أو عارفاً بفوائد إقباله؟!.

وأنظر الحديث الآخر وما تضمّن من قسمه الباهر بقوله عليه السلام «أم والله لو أحباني لأحبا من أحب» وهل للعقول مدفع عن هذا الاعتقاد فإياك والمغالطة بالمعاذير الباطلة التي لا تنفعك عند من يعلم السرائر إذا حاسبك عليها، وأنت قائم بين يديه مكشوف الرأس بمحضر

(١) فلاح السائل ص ٢٦٧.

الأوائل والأواخر، فكيف يجوز أن تكون كارهاً أو متثاقلاً وتكون عارفاً بجلالة من دعاك إليها وحثك عليها أما عرفت أنه دعاك بلسان حال المؤذنين والرواة المخبرين حتى تواتروا وبلغ الأمر إلى أنك كأنك سمعت ذلك من لسان سيد المرسلين ثم لم يقنع جل جلاله بذلك حتى شافهك بالدعاء إليها والمحافظة عليها، فقال منه جل جلاله إليك مقبلاً بالجلالة والحرمة والهيبة عليك «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين» فإذ ا لم تفرح وتستبشر وتعرف جملة ما دعاك إليه من سعادة الدنيا والدين فكيف تكون من المسلمين المصدقين.

وأما استقالتك منها بطلب تعجيل الخروج عنها، ليت شعري إلى أين تخرج أي معثّر، أي مسوّد الوجه والصحائف، أي من رمى نفسه بيده في المتالف، تستقيل من سعادتك لتخرج إلى غفلتك وشقاوتك.

ذكر محمد بن يعقوب الكليني في كتاب الكافي قال محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن علي بن الحكم عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا قام العبد في الصلاة فخفف صلاته قال الله تبارك وتعالى لملائكته أما ترون إلى عبدي كأنه يرى قضاء حوائجه بيد غيري أما يعلم أن قضاء حوائجه بيدي».

وذكر محمد بن يعقوب رحمه الله عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن الحسين بن سعيد عن صفوان بن يحيى عن العيص بن قاسم قال أبو عبد الله عليه السلام: «والله إنه ليأتي على الرجل خمسون سنة وما قبل الله منه صلاة واحدة فأي شيء أشد من هذا، أنكم لتعرفون من جيرانكم وأصحابكم من لو كان يصلي لبعضكم ما

قبلها منه لاستخفافه بها، أن الله ﷻ لا يقبل إلا الحسن فكيف يقبل ما يُستخفّ به؟».

فإذا سلم العبد من هذه الأخطار وكان عبداً مسّلماً مؤمناً مصدّقاً سليم القلب والأسرار ذاكراً أنه بين يدي مالك عزيز عظيم قاهر قادر جبار قد أخجله بكثرة المراحم والمكارم والمبار فيوشك أن يكون حاله عند الصلاة كما رواه محمد بن يعقوب تغمده الله جل جلاله بالرحمات عن محمد بن الحسن عن سهل بن زياد عن ابن محبوب عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا قام العبد المؤمن إلى صلاته نظر الله إليه أو قال أقبل الله إليه حتى ينصرف وأظلته الرحمة من فوق رأسه إلى أفق السماء والملائكة تحفه من حوله إلى أفق السماء، ووكّل الله به ملكاً قائماً على رأسه يقول: أيها المصلي لو تعلم من ينظر إليك ومن تناجي ما التفت ولا زلت من موضعك أبداً»[1].

(١) فلاح السائل ص ٢٦٨.

سجود الشكر

فإذا فرغت من ذلك فاسجد سجدة الشكر سجدة، من يعرف أنه يريد زيادة القرب من المالك المعبود بالخضوع والسجود، ولكن متأهباً كما يتأهب العبد الحقير إذا أراد التقرّب من مولاه العظيم الكبير، فكن على أقل المراتب حاضر القلب مجتمع الخواطر، وإلا فأنت سجدت على الغفلة كالهالك أو المخاطر وأنظر كيف كان سجود مولانا الكاظم عليه السلام وما تضمن من الذل والعبودية كما نرويه لك، وهو قدوة يدعو إلى الله جل جلاله ويهدي إليه.

ولا تقل ما أقدر على سلوك ذلك السبيل وقل لنفسك، ويحك كيف تقولين ما أقدر ولو وقفت بين يدي سلطان جليل كنت على صفة عبد ذليل، فمثل ما تذلين للملوك من مماليك مولاك كذا يكون تذللك له، فإنك إن كنت ما ترينه فإنه يراك، فلو كنت ما تقدرين ما عملت ذلك التذلل مع المملوك من مماليك سلطان العالمين.

ولو قالوا لك ما عليك منّا خوف وأنت من الآمنين ما زادك ذلك إلا تذللاً لهم وخضوعاً في حضرتهم لتتقربي إليهم وإلى محبتهم، فلا تعذر نفسك إذا كانت منزلة المملوك من العباد أرفع عندها من حرمة سلطان الدنيا والمعاد، وإذا الخواص يكون سجودهم على ما سيأتي

ذكره من الخضوع فينبغي أن تكون أنت أي صاحب الجنايات على أضعاف ذلك من الخوف والخشوع[١].

(١) فلاح السائل ص ٣١٤.

الدعاء

فيما نذكره من فضيلة الدعاء من صريح القرآن

فمن ذلك قول الله جل جلاله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧].

فلم يجعل لهم لولا الدعاء محلاً ولامقاماً، فقد صار مفهوم ذلك أن محل الإنسان ومنزلته عند الله جل جلاله على قدر دعائه وقيمته بقدر اهتمامه بمناجاته وندائه.

وعساك تجد من يقول لك إن المراد بالدعاء في هذه الآية العبادة.

والحق ما رواه الثقات عن أهل الأمانة والسيادة من أن المراد بالدعاء في هذه الآية هو الدعاء المفهوم بعرف الشرع من غير زيادة.

ومن الآيات قول الله جل جلاله: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٣] فنبه الله جل جلاله على أنهم لو تضرعوا أزال بأسه وغضبه وعقابه عنهم وكشف كروبهم، وما قال ولو أنهم إذ جاءهم بأسنا صلوا أو صاموا أو حجوا أو قرأوا القرآن، وفي ذلك بيان لأهل الإفهام من الأعيان.

ومن ذلك وعده المقدس بأن الدعاء مفتاح بلوغ الآمال والأماني في قوله جل جلاله : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦].

ومن ذلك قوله جل جلاله : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غَافر: ٦٠] فنبه جل جلاله على أن ترك الدعاء استكبار عن عبادته وسبب لدخول النار والعذاب المهين.

وقد روى الحسين بن سعيد بإسناده عن الصادق عليه السلام أن المراد بالعبادة التي يستكبر الإنسان عنها في هذه الآية هو الدعاء، وأن تاركه مع هذا الأمر به من المستكبرين. وفي بعض ذلك كفاية للعارفين.

ولو لم يكن في فضيلة الدعاء إلا قول الله جل جلاله لسيد الأنبياء صلى الله عليه وآله : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨] وهذا عظيم لأنه صدر على مقتضى المدح لهم، وكان دعاهم بالغدوةوالعشي سبب أمر الله جل جلاله لرسوله عليه السلام بملازمتهم وإلا تعدو عيناه الشريفتان عن صحبتهم»[1].

(١) فلاح السائل ص ٤٤.

صفات الداعي

والذي ينبغي أن يكون الداعي عليه، أن يعرف أنه عبد مملوك لمالك قادر قاهر مطلع عليه، وأن هذا العبد لا غنى له عن سيده ولا يخلو أبداً من الحاجة إليه، وأن هذا المالك جل جلاله في أعظم الجلالة والمهابة وعلو الشأن وأن هذا العبد في أدون الرذالة والمهانة والنقصان وأن أصله من التراب ومن طين ومن حمأ مسنون ومن ماءٍ مهين ثم يده صفر من حياته ومن وجوده ومن عافيته ومن تدبير أصول سعادته في دنياه وآخرته.

فإذا أضاف هذا العبد إلى هذا الأصل الضعيف السقيم المهين الذميم مخالفة مولاه المحسن إليه القادر القاهر المطلع عليه، وهوّن بجلاله وإقباله وعارضه في فعاله ومقاله ورأى غير ما يرى من مصالح أحواله فيجب أن يكون حاله عند الدعوات والمناجات كما يكون العبد الخائن الذليل بين يدي مولاه، يخاطب خطاب الذليل، العزيز الجليل، وخطاب الحقير الفقير للمالك الغني العلي الكبير، وخطاب الضعيف السخيف للمولى المرهوب المخوف، وخطاب أهل الجنايات والخيانات لأعظم مالك قادر على الانتقام في سائر الأوقات، وأن يكون مراده جل جلاله من دعائك له في مقدس حضرة وجوده مقدماً على مرادك من رحمته وجوده، فيكون تلذذك بحمده

وتعظيم شأنه والاعتراف بإحسانه أحب إليك في أوقات الدعاء من ذكر حوائجك ولو كانت من مهماتك في دار الفناء أو لدفع أعظم البلاء، فإنك أيها العبد لو عرفته جل جلاله على اليقين عرفت أن اشتغالك بحفظ حرمته وحق رحمته أبلغ فيما تراه من إجابته ومساعدته.

كما روينا بإسنادنا إلى محمد بن يعقوب الكليني عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله عز وجل يقول من شغل بذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي من سألني».

أما عرفت هذا المقام عن أهل القدوة من أئمة الإسلام أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «أفضل الدعاء دعائي ودعاء الأنبياء قبلي» ثم ذكر تهليلاً وتمجيداً وتحميداً، فقيل له ما معناه: أين هذا من الدعاء؟ فقال صلوات الله عليه وعلى آله وعلى من تقدم وتأخر عنه من الأصفياء ما معناه: فأيما أعرف بمراد الداعي والسائل وأكمل في طلب الفضائل الله جل جلاله أو عبد الله بن جذعان حيث مدحه أمية بن أبي الصلت فقال:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك ان شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً ... كفاه من تعرضه الثناء

فجعل المادح ثناء الممدوح يكفي في قضاء حاجته، فالله جل جلاله أحق بذلك لكمال وجوده ورحمته، فإذا رأيت قلبك وعقلك ونفسك بين يدي الله جل جلاله على هذه الصفات عند الضراعات فأعلم أنك في حضرة وجوده وجُودِهِ، فيا لها من عنايات ومفتاح

سعادات وتعجيل إجابات، وإذا رأيت قلبك غافلاً وعقلك ذاهلاً ووجدت نفسك لها عن الله جل جلاله شغلاً شاغلاً وكأنك تدعو وليست بحضرة أحد على اليقين ولا أنت بين يدي مالك عظيم الشأن مالك العالمين، ولا على وجهك ذل العبودية، ولا خوف الهيبة المعظمة الإلهية، ولا رعدة الجناة العصاة إذا رأى أحدهم مولاه، فاعلم أنك محجوب بالذنوب عن علام الغيوب ومعزول بالعيوب عن ذلك المقام المحبوب وممنوع بخراب القلوب عن بلوغ المطلوب.

واحذر أن يكون الله جل جلاله قد شهد عليك أنك لا تؤمن به، ومن شهد عليهم الله جل جلاله بعدم الإيمان فإنهم هالكون، أما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

فابك على نفسك بكاء من أطّلع مولاه على سوء عبوديته وخبث سريرته وسوء سيرته فطرده عن أبوابه وأبعده من أعتابه، وجعل من جملة عقابه أن شغله بدنياه عن شرف رضاه، فإذا تأخرت عنك إجابة الدعوات وأنت على ما ذممناه من الصفات، فالذنب لك على التحقيق، وما كنت داعياً لمولاك على التصديق، ولا وقفت عنده على باب التوفيق»[1].

---

(١) فلاح السائل ص ٥٤.

أحوال الداعي

روى سعيد بن يسار قال، قال الصادق عليه السلام هكذا الرغبة وأبرز راحتيه إلى السماء، وهكذا الرهبة وجعل ظهر كفيه إلى السماء، وهكذا التضرع وحرك أصابعه يميناً وشمالاً، وهكذا التبتل يرفع أصبعه مرة ويضعها مرة وهكذا الابتهال ومدّ يده تلقاء وجهه إلى القبلة وقال لا تبتهل حتى تجري الدمعة».

وفي حديث آخر عن الصادق عليه السلام: «الاستكانة في الدعاء أن يضع يديه على منكبيه حين دعائه».

ومما لعله يمكن أن يكون المراد بهذه الإشارات أن بسط اليد في الرغبة أقرب إلى حال من يكون رجاؤه لله جل جلاله وحسن ظنه بأفضاله يزيد على خوفه من جلاله، فالراغب يسأل الأمان فيبسط كفه لما ينزل فيها من الإحسان.

وأما الرهبة وكون ظهر الكفين إلى السماء، فلعل المراد بذلك أن العبد يقول بلسان حال الذلة لمالك دار الفناء ودار البقاء أنا ما أقدم على بسط كفي إليك فقد جعلت وجه كفي إلى الأرض ذلاً وخجلاً بين يديك.

ولعل المراد بتحريك الأصابع يميناً وشمالاً في المتضرع أنه على

عادة الثاكل عند المصاب الهائل تقلب يديها وتنوح بها إدباراً وإقبالاً ويميناً وشمالاً.

ولعل المراد بالتبتل يرفع أصبعه مرة ويضعها مرة أن معنى التبتل الانقطاع فكأنه يريد قد انقطعت إليك وحدك لما أنت أهله من الإلهية ويشيرباصبعه وحدها من دون الأصابع على سبيل الوحدانية، وهذا مقام جليل فلا يدعيه العبد إلا عند العبرة ووقوفه موقف العبد الذليل واشتغاله بصاحب الجلال من طلب الآمال والتعرض للسؤال.

ولعل المراد بالابتهال ومدّ يده تلقاء وجهه إلى القبلة نوع من أنواع العبودية والذلة.

ولعل المراد بالاستكانة وترك يديه على منكبيه أنني قد غللت يدي إلى عنقي كما يفعل العبد الجاني إذا حمل إلى مولاه تحت الأسر في القيود والأغلال ووضع بين يديه»[1].

* * *

«إعلم أن من شروط إجابة الدعوات أسباباً قد ذكرنا طرفاً منها في الجزء الأول من كتاب «المهمات» ونبهنا على ذلك بالمعقول والمنقول فلا تهون بالطلب لها والعناية بها كيلا تتأخر إجابة دعائك فيخيّل به الشيطان لك أن الله قد أخلفك في وعودك ورجاءك.

ونذكر ههنا أن يكون قلب الداعي عند الدعوات موصوفاً بالإقبال على الله جل جلاله في طلب الحاجات كما أنك تقدر أن تقبل على شهوة من الشهوات التي أكثرها ضرر في الحياة وبعد الممات.

---

(١) فلاح السائل ص ٥٩.

وأن يكون امتداد يدك إلى الله جل جلاله أرجح من امتداد يدك إلى طعام أو شراب فإنك إذا مددتها إلى رب الأرباب وإلى ما عرض عليك من دوام نعيم دار الثواب فإنه أهم من كل ما تمدها إليه، فأحضر عقلك وقلبك لمدها بقدر تعظيم من تعرض عليه، ومتى نقصت الله جل جلاله عن هذا الحال في التعظيم والإجلال، فبالله عليك كيف ترجو وأنت مستخف في الفعال والمقال أن تظفر بإجاب الإبتهال، فهل رأيت عاصياً يتقرب إلى سلطانه بعصيانه أو طالباً يتقرب إلى من يطلب منه بهوانه»[1].

* * *

«إذا أراد دعاء الرغبة يبسط راحتيه ويدعو، وإذا أراد دعاء الرهبة يجعل باطن كفيه إلى الأرض وظاهرهما إلى السماء، وإذا أراد دعاء التضرع حرك أصابعه يميناً وشمالاً وباطن كفيه إلى السماء، وإذا أراد دعاء التبتل رفع إصبعه مرة وحطها مرة ويكون عند العبرات، وإذا أراد دعاء الإبتهال رفع باطن كفيه حذاء وجهه، وإذا أراد دعاء الإستكانة جعل يديه على منكبيه.

ومن صفات الداعي أن يبدأ بتحميد الله تعالى جل جلاله والثناء عليه والصلاة على محمد وآله ثم يذكر حاجته.

ومن صفات الداعي أن يعلم أن دعائه في السّر أرجح من دعائه في الجهر.

ومن صفات الداعي أن لا يكون قلبه غافلاً ولا لاهياً.

---

(١) مهج الدعوات ص ٤١٢.

ومن صفات الداعي أن لا يكون مطعمه حراماً أو ملبسه حراماً أو غذي بحرام.

ومن صفات الداعي أن يكون طاهراً من مظالم العباد.

ومن صفات الداعي أن يكون عند الدعاء تقياً ونيته صادقة.

ومن صفات الداعي أن لا يكون داعياً في دفع مظلمة عنه وقد ظلم هو عبداً آخر بمثلها.

ومن صفات الداعي أنه يجتنب الذنوب بعد دعائه حتى تقضى حاجته.

ومن صفات الداعي أن يكون عند دعائه آئباً تائباً صالحاً صادقاً.

ومن صفات الداعي أن لا يكون داعياً في قطيعة رحم.

ومن صفات الداعي أن لا يكون دعاء محب على حبيبه فإن الحديث ورد عن النبي ﷺ أنه سأل الله جل جلاله ألا يستجيب له فيه.

ومن صفات الداعي ألا يدعو على أهل العراق فإني رويت في الجزء الأول من كتاب التحميل من ترجمة محمد بن أحمد بن حاتم أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم عليه السلام أن لا تدعو على أهل العراق وذكر في الحديث سبب ذلك.

ومن صفات الداعي أن يطهر طعامه من المحرمات والشبهات عند حاجته إلى إجابة الدعوات.

ومن صفات الداعي أن يكون في يده خاتم فضة فيروزج فقد روي عن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ قال الله سبحانه

«لأستحي من عبد يرفع يده وفيها خاتم فضة فيروزج فأردها خائبة».

ومن صفات الداعي أن يكون في يده خاتم عقيق لأننا روينا عن الصادق عليه السلام أنه قال: «ما رفعت كفّ إلى الله عزوجل أحب إليه من كفّ فيها خاتم عقيق»[1].

(١) مهج الدعوات ص ٤٢٣.

لمن يدعو المؤمن

قال السيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنتُ في ليلة جليلة من شهر رمضان بعد تصنيف هذا الكتاب بزمان وأنا أدعو في السحر لمن يحب أو يحسن تقديم الدعاء له ولي، ولمن يليق بالتوفيق أن أدعو له، فورد على خاطري أن الجاحدين لله جل جلاله ولنعمِهِ والمستخفين بحرمته والمبدلين لحكمته في عباده وخليقته ينبغي أن يبدأ لهم بالدعاء بالهداية من ضلالتهم فإن جنايتهم على الربوبية والحكمة الإلهية والجلالة النبوية أشدّ من جناية العارفين بالله وبالرسول ﷺ، فيقتضي تعظيم الله وتعظيم جلاله وتعظيم رسوله ﷺ، وحقوق هدايته بمقاله وفعاله أن يقدم الدعاء بهداية من هو أعظم ضرراً وأشد خطراً حيث تعذر أن يزال ذلك بالجهاد ومنعهم من الإلحاد والفساد. **أقول**: فدعوت لكل ضال عن الله بالهداية إليه، ولكل ضال عن الرسول بالرجوع إليه، ولكل ضال عن حق بالاعتراف به والاعتماد عليه.

ثم دعوت لأهل التوفيق والتحقيق بالثبوت على توفيقهم والزيادة في تحقيقهم، ودعوت لنفسي ومن يعنيني أمره بحسب ما رجوته من الترتيب الذي يكون أقرب إلى من أتضرّع إليه وإلى مراد رسوله ﷺ، وقد قدّمت مهمات الحاجات بحسب ما رجوت أن يكون أقرب إلى الإجابات.

أفلا ترى ما تضمنه مقدّس القرآن من شفاعة إبراهيم عليه السلام في أهل الكفران، فقال الله جل جلاله: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود: ٧٤-٧٥].

فمدحه جل جلاله على حلمه وشفاعته ومجادلته في قوم لوط الذين قد بلغ كفرهم إلى تعجيل نقمته.

أما رأيت ما تضمنه أخبار صاحب الرسالة وهو قدوة أهل الجلالة كيف كان كلما آذاه قومه الكفّار وبالغوا فيما يفعلون قال صلى الله عليه وسلم: «اللهم اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون».

أما رأيت الحديث عن عيسى عليه السلام: «كن كالشمس تطلع على البر والفاجر» وقول نبينا صلى الله عليه وسلم: «إصنع الخير إلى أهله وإلى غير أهله فإن لم يكن أهله فكن أنت أهله».

وقد تضمن ترجيح مقام المحسنين إلى المُسيئين قوله جل جلاله «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين» ويكفي أن محمداً صلى الله عليه وسلم بعثُ رحمة للعالمين»[1].

(١) الاقبال ص ٥٠٥.

المناجاة

يقول السيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني رأيت من فوائد المحافظة على المناجاة أن ذكر الله جل جلاله يصير أغلب على العقل، فيصير سبباً لأنس العبد بالرب ويشتغل به عن الخواطر الدنيوية والأسباب الردية، فيكون ذلك داعياً إلى المراقبة لمولاه والسلامة من المجانبة والظفر برضاه.

ورأيت من فوائد المحافظة على المناجاة أن العبد يستدل بها على منزلة ربه من قلبه، فإنه إن رأى نفسه راغباً إلى تكرار الأذكار عرف أن الله جل جلاله عنده منزلة تكون وسيلة إلى السلامة من الأخطار، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره.

ورأيت من فوائد المحافظة على المناجاة أن الله جل جلاله يقول ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ومن المعلوم أنه لو قال بعض ملوك الدنيا الفانية لأحد مماليكه الذين يعرفون قدر منزلته العالية اذكرني حتى أذكرك وكان في حضرة الملك كما هو في حضرة الله جل جلاله، فإنه كان يجتهد في دوام ذكره غاية الاجتهاد ليذكره مولاه ويشرّفه بذكره في الدنيا والمعاد.

ألا ترى معنى قول الشاعر:

يودّ بأن يمسي مريضاً لعلها إذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويهتزّ للمعروف في طلب العلى لتذكر يوماً عند سلمى شمائله

فالعبيد العارفون المؤدبون يجتهدون في الإكثار من ذكر مولاهم الذي يراهم ليذكرهم أو لعله بفضله يرضى عنهم أو يرضاهم.

ووجدت من فوائد المحافظة على المناجاة بالمنقول عدة فوائد شريفة المأمول.

منها، أن الإلهام للدعاء يدل على قصر البلاء كما رواه محمد بن الحسن عن محمد بن الحسن الصفار عن يعقوب بن يزيد عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم قال، قال أبو عبد الله عليه السلام: «تعرفون طول البلاء من قصره؟ قلنا: لا، قال: إذا ألهمتم أو أُلهم أحدكم بالدعاء فليعلم أن البلاء قصير».

ومنها، أن تقديم الدعاء قبل الإبتلاء دافع للإبتلاء، وبعد البلاء قد لا يحصل به بلوغ الرجاء، كما رواه محمد بن الحسن بن الوليد عن محمد بن الحسن الصفار عن أحمد بن محمد بن عيسى عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي الحسن عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: «من تقدّم في الدعاء قبل أن ينزل به البلاء ثم دعا استجيب له، ومن لم يتقدم في الدعاء ثم نزل به البلاء لم يستجب له».

ومنها، أن الملائكة تحجب دعاء العبد إذا دعا في البلاء ولم يكن ممن يدعو في الرخاء، كما رواه محمد بن الحسن ابن الوليد عن أحمد بن إدريس عن سلمة بن الخطاب عن محمد بن بكر عن زكريا عن سلام النخاس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا دعا العبد في

البلاء ولم يدع في الرخاء حجبت الملائكة صوته وقالوا: هذا صوت غريب أين أنت كنت قبل اليوم».

ومنها، أن الدعاء على الإلحاح مفتاح النجاة، كما رواه محمد بن الحسن أحمد عن محمد بن الحسن بن الصفار عن أحمد بن محمد بن عيسى عن محمد بن مروان عن الوليد بن عقبة الهجري قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «والله لا يلح عبد مؤمن على الله في حاجة إلا قضاها له».

وعن الحسين بن سعيد عن ابن أبي عمير عن الحسين ابن عثمان عن غير واحد من أصحابه عن أبي عبد الله وأبي جعفر عليهما السلام أنهما قالا: «والله لا يلحُّ عبد مؤمن على الله إلا استجاب له».

ويقول السيد: وقد تقدم صفات الداعي بالمعقول والمنقول فينبغي أن يكون الإلحاح في الدعاء مبنياً على تلك الأصول[1].

---

(١) فلاح السائل ص ٧١.

الإستخارة

قال السيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنني وجدت العبد المؤدب والمملوك المهذّب، يجتهد أن لا يقع منه شيء إلا بإذن مولاه ومالك نعمته، ليسلم بذلك من معاقبته أو معاتبته، وليكون ضمان درك أعمال العبد على مولاه الذي تابعه في إشارته، وكان معه في إرادته.

ووجدت العمل بالمشاورة لله جل جلاله بالاستخارة قد دلني العقل والنقل عليها، وأنّها طريق إلى ضمان درك حركاتي وسكناتي بها على من وفقني لها، وعرفت أن الله جل جلاله العالم بالعواقب يدلّني بالمشاورة له على عواقب المطالب، ويكشف لي عن مصالحي فيما أُشاوره فيه من كل أمرٍ، حاضر وغائب، ويؤمنني بذلك من الغلط في المسالك والمذاهب.

فلو وجدتُ ذلك عند ملكٍ مقرب روحاني، أو نبي أو وصي، أو تابع لهما بشرِي، أو منجّمٍ دنيوي، لعذرني على المشاورة له عقلاء المسلمين، بل ما كان يعذرني على ترك مشاورته أحد من الفاضلين، ولا أعلم كيف قال قوم واعتقدوا أن مشاورة الله جل جلاله - وهو أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، المحسن إلى المسيئين، الذي لا يُتّهم في مشورته وإشارته على اليقين، العالم بعواقب ما يشير به من

أُمور الدنيا والدين، تكون دون مشاورة ملكٍ روحاني، أو نبيٍّ، أو وصيٍّ، أو غيرهما من العالمين، إنّ هذا بعيد من مذاهب العارفين[١].

التدبير الإلهي والإستخارة

يقول السيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إعلم أنني وجدت تدبير الله جل جلاله لمصالح عباده ما ليس هو على مرادهم، بل هو على مراده، وما ليس هو على الأسباب الظاهرة لهم في المكروه والمأمول، بل هو لما يعلمه الله جل جلاله من مصالحهم التي لا يعلمونها، أو أكثرها، إلا من جانبه جل جلاله ، ومن جانب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، ولو كان العقل كافياً في الاهتداء إلى تفضيل مصالحهم، لما وجبت بعثة الأنبياء، حتى أنّ في تدبير الله جل جلاله في مصالح الأنام ما يكاد ينفر منه كثير من أهل الإسلام.

فلما رأيت تدبيري ما هو على مرادي، ولا على الأسباب الظاهرة في معرفتي واجتهادي، وعرفت أنني لا أعرف جميع مصلحتي بعقلي وفطنتي، فاحتجتُ لتحصيل سعادتي في دنياي وآخرتي، إلى معرفة ذلك ممن يعلمه جل جلاله ، وهو علام الغيوب.

وتيقنت أن تدبيره لي خيرٌ من تدبيري لنفسي، وهذا واضح عند أهل العقول والقلوب، ورأيت مشاورته جل جلاله بالاستخارة باباً من أبواب إشارته الشريفة، ومن جملة تدابيره لي بألطافه اللطيفة، فاعتمدت عليها، والتجأت إليها»[٢].

---

(١) فتح الأبواب ص ١١٢.
(٢) فتح الأبواب ص ١٢١.

«وأعلم أنني وجدت الله جل جلاله يقول عن الملائكة - الذين اختياراتهم وتدبيراتهم من أفضل الاختيارات والتدبيرات، لأنهم في مقام المكاشفة بالآيات والهدايات - أنهم عارضوه جل جلاله لما قال لهم:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فقال جل جلاله لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٣٠].

فعرّفهم بذلك أن علومهم وأفهامهم قاصرة عن أسراره في التدبير المستقيم، حتى اعترفوا في موضع آخر، فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البَقَرَة: ٣٢].

فلما رأيت الملائكة عاجزين وقاصرين عن معرفة تدبيره، علمتُ أنني أعظم عجزاً وقصوراً، فالتجأت إليه جل جلاله في معرفة ما لا أعرفه إلا من مشاورته جل جلاله في قليل أمري وكثيره.

ثم وجدت الأنبياء الذين هم أكمل بني آدم عليهم السلام، قد استدرك الله عليهم في تدبيراتهم عند مقامات، فجرى لآدم عليه السلام في تدبيره في أكل ثمرة الشجرة ما قد تضمنه صريح الآيات.

وجرى لنوح عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هُود: ٤٥] مما لا يخفى عمن عرفه من أهل الصدق.

وجرى لداود عليه السلام في بعض المحاكمات ما قد تضمنه الكتاب، حتى قال الله جل جلاله ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]، وجرى لموسى عليه السلام لما اختار سبعين رجلاً من

قومه للميقات، ما قد تضمنه صريح الآيات[١].

فلما رأيت الأنبياء - الذين هم أكمل العباد في الإصدار والإيراد - قد احتاجوا إلى استدراكٍ عليهم في بعض المراد، علمت أنني أشد حاجة وضرورةً إلى معرفة إرشادي، فيما لا أعرفه من مرادي إلا بمشاورته سبحانه وإشارته، فالتجأت إلى تعريف ذلك بالاستخارة من أبواب رحمته.

ثم وجدت صريح القرآن قد تضمن عموماً عن بني آدم بواضح البيان، فقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ﴾ [القَصَص: ٦٨].

وقال جل جلاله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ [الرُّوم: ٤].

وقال جل جلاله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وهذا تصريح عظيم بالشهادة من الله جل جلاله بقصور بني آدم الذين تضمنهم محكم هذا القرآن، وعزلهم عن الخيرة، وأن له جل جلاله الأمر من قبلُ ومن بعدُ، وأن الحق لو اتبع أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، وأن أهواءهم كانت تبلغ بهم من الفساد إلى هذا الحد.

---

(١) وهي قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [١٥٥].

فلما علمت ذلك، وصدقت قائله جل جلاله على اليقين، هربت من اختياري لنفسي إلى اختياره لي، باتباع مشورته.

ورأيته قد عزلني عن الأمر، فعدلت عن أمره لنفسي، وعوّلت على أمري جل جلاله ، وشريف إشارته، وصدقته جل جلاله في أنه لو اتبع الحق هواي، فسد حالي ورأيي، فاعتمدت على مشورة الحق، وعدلت عن اتباع أهوائي، وهذا واضحٌ عند من أنصف من نفسه، وعرف إشراق شمسه»[1].

* * *

«إعلم أنني وجدت الموصوفين بالعقل والكمال، يوكل أحدهم وكيلاً، يكون عنده أميناً في ظاهر الحال، ولا يطلع على سريرته، فيسكن إلى وكيله في تدبيره ومشورته، ويشكره من عرف صلاح ذلك الوكيل، ويحمدونه على التفويض إلى وكيله فيما يعرفه من كثير وقليل، وما رأيت أن مسلماً يجوز أن يعتقد أن الله جل جلاله - في التفويض إليه، والتوكل عليه بالاستخارات والمشورات، والعمل بأمره المقدس - دون وكيل غير معصوم في الحركات والسكنات.

ووجدت الموصوفين بالعقل والفضل يصوّبون تدبير من يشاور أعقل من في بلده، وأعقل من في محلته، وأعلم أهل دينه ونحلته، مع أن ذلك الذي يُشاورُ في الأشياء لا يدعي أنه أرجح تدبيراً من الملائكة والأنبياء، بل ربما يكون المستشار قد غلط في كثير من تدبيراته، وندم على كثير من اختياراته، ومع هذا فيشكرون هذا المستشير، ويستدلون بذلك على عقله وسداده، ويقولون: هذا من

(١) فتح الأبواب ص ١٢٣.

أحسن التدبير، أفيجوز أن يكون في المعقول والمنقول مشاورة الله جل جلاله وتدبيره لعبده دون عاقل البلد، وعاقل المحلة، وعالم النحِلة؟! كيف يجوز أن يعتقد هذا أحدٌ من أهل الملة[1]؟

* * *

وإذا عَلِمَ المُكلّف ورود الأخبار بالمشاورة لله جل جلاله واستخارته، كما سوف نذكره في الأبواب، ونكشف عن حقيقته فما يحتاج إلى التهديد من الله جل جلاله على ترك مشاورته إلى إيراد أخبار عنه جل جلاله وعن خاصته، وإنما أوردنا هذا المقدار من الأخبار لنوضح أن النقل ورد معاضداً للعقل.

وبيان ذلك أنك لو عرفت أن الله جل جلاله قد آتى رجلاً من الحكمة والعقل والرأي مثل ما أُوتي لقمان، وجعل له قدرة - مثلاً - على خلق إنسان، وخلق ما يحتاج إليه هذا الإنسان من مصالحه ومراشده، وأن هذا الحكيم عارفٌ بتدبير هذا الإنسان، وبما يسلمه من مهالكه ومفاسده، فبنى هذا الحكيم داراً لهذا الإنسان قبل أن يخلقه، وأتقنها وكمّلها، وما يعرف أسرار بنائها وتدبيرها جميعاً غير هذا الحكيم، ثم عاد إلى الإنسان الذي يريد أن يسكنه فيها، ففطره من عدم محض، وجعله تراباً، ثم ألف من التراب جوهراً إلى جوهر وعرضاً إلى عَرَض، وجعله جسماً، وركبه تركيباً عجيباً وكمله تكميلاً غريباً، ولا يطلع على جميع تدبير هذا الحكيم لهذا الإنسان إلا الحكيم وحده.

فلما بلغ هذا الإنسان وتكمّل بقدرة الحكيم المذكور، وأسكنه

---

(١) فتح الأبواب ص ١٢٧.

داره بما فيها من عجائب الأمور، صار يعدِلُ عن الحكيم في معرفة أسرار الدار، وأسرار جسده وتدبيره الذي لا يحيط بجميع قليله وكثيره سوى الحكيم المشار إليه، من غير إساءة وقعت من الحكيم، ولا تقصير يحتجُّ به هذا الإنسان عليه.

أما كان كل عاقل يعرف ذلك يبلغ من ذمّ هذا الإنسان الغايات، ويعتقد أنه يستحق من الحكيم أن يعاجله بالنقمات، وأن يخرّب الدار التي بناها له، ويُخرجه عنها، ويخرّب جسده الذي عمرهُ بقدرته، ويستعيد حياته التي لا بدَل له منها.

فالله جل جلاله كان في بناء دار الدنيا وتدبير جسد الإنسان وتأليفه وإنعامه الذي وقع منه ابتداءً وتفضلاً والله أتمُّ وأعظم من ذلك الحكيم الذي لولا أقدار الله جل جلاله ما قدر على شيء مما ضربناه مثلاً، فكيف صار ذلك الإنسان بمفارقة الحكيم مستحقاً للتهديد والذم والانتقام، ولا يكون من عدل عن مشاورة الله جل جلاله، كما قال الصادق عليه السلام شقياً مذموماً عند أهل الإسلام»[1].

* * *

لو أن ملكاً من ملوك الدنيا محجوبٌ عن أكثر رعيته، ولا يقدر على الحضور في خدمته ولا مشاورته إلا بعض خاصته، فبلغت سعة رحمته إلى أن جعل في كل شهرٍ أو أسبوع، أو عند صلاة ركعتين بخشوع وخضوع، أو في وقت معين، يوماً معيناً يأذن فيه إذناً عاماً، يدخل فيه إليه من شاء من رعاياه وأهل بلاده، يحدّثونه بأسرارهم، ويشاورونه مثل ما يشاوره خواصه وأعزّ أولاده، ويعرفهم جواب

(١) المصدر نفسه ص ١٣٢.

مشاورته في الحال، ويكشف لهم عن مصالحهم الحاضرة والمستقبلة بواضح المقال، أما كان يوصف ذلك الملك بالرحمة الواسعة والمكارم المتتابعة، ويحسد رعيته غيرهم من رعايا ملوك البلاد، ويجعلون ذلك اليوم الذي يشاورونه فيه من أيام الأعياد.

وكذا حال المشاورة لله تعالى في الأسباب، ورحمته في تعجيل الجواب، فإن هذا كان مقام الأنبياء والمرسلين، والخواص من عباده المسعودين، يطلبون منه الحاجات، فيوحي إلى الذين يوحى إليهم على لسان الملائكة، ويُلقي في قلوب من يشاء منهم، ويُسمع آذان من يريد، ويرفع الحجاب عنهم، وكان هذا المقام لهم خاصة، لا يشاركهم فيه من لا يجري مجراهم من العباد. فصار الإذن من الله جل جلاله لكل أُمة محمد ﷺ في مشاورته تعالى فيما يحتاجون إلى المشاورة فيه من كل إصدار وإيراد أبلغ من رحمة ذلك الملك في تعيين وقتٍ لدخول كافة رعيته، وإذنه لهم في مشاورته، فما أدري كيف خفي هذا الأنعام الأعظم، والمقام الأكرم، على من خفي عنه؟ وكيف أهمل حق الله تعالى وحق رسوله ﷺ فيما قد بلغت الرحمة منه؟ ولقد صار العبد المؤمن والرسول المهيمن والوصي المستخيرين يقف هو وهما بين يدي الله تعالى على بساط المشاورة لجلاله، وينزل إليك الجواب متعجلاً كما يبرز إليهما عليهما السلام»[1].

* * *

وقال رحمه الله: «إنني كنت إذا حصل ميقات زيارات أجد قلبي ونفسي تنازع إلى الزيارة، لأجل ورود الأخبار بثواب ذلك الميقات،

---

(١) المصدر نفسه ص ١٧٩.

وإلا فلأيّ حال ما توجهت إلى الزيارة قبل تلك الأوقات، فأخاف أن يكون عملي لمجرد الثواب والزيارة، ولا يكون خالصاً لوجه الله جل جلاله ، ولا لأنني أعبده لأنه جل جلاله أهل للعبادة على التحقيق، والذي وصل إليه معرفتي أنّه لا تصح العبادة على التحقيق واليقين إلا إذا كانت العبادة لله جل جلاله خالصةً لأنّه أهل للعبادة، من غير التفات إلى ثواب عاجل ولا آجل، فهو جل جلاله أهل لذلك، وما يحتاج العبد معه إلى رشوةٍ في العبادة إن كان من العارفين، وقد كشفت ذلك كشفاً واضحاً في كتاب «تتمات مصباح المتهجد ومهمات في صلاح المتعبد».

فكنت أعالج نفسي وقلبي على أنها عند التوجه إلى الزيارات، أو عند غيرها من المندوبات التي تصح فيها الاستخارات أن لا يكون الباعث لها فوائد الثواب في الزيارات فلا تُسارع إلى القبول مني، وأجد مشقة في إخلاص ذلك، ووقوعه على وجه يرضى به الله جل جلاله عني، فوجدت بالاستخارات في الزيارات وغيرها مما استخرت فيه سلامة عظيمة من هذه الآفات، وذلك أنني عند وقت الميقات لا أعلم مصلحتي أنني أُقيم عند عيالي، ومن يكون مقيماً في البلد من إخواني لمصلحتهم، وأنني أكون أكثر تفرغاً وأمكن من الخلوة بالزيارة من داري، أو تكون المصلحة في الزيارة ومفارقة عيالي، ولقاء من يكون هناك من إخواني، وأن تكون الزيارة مع الجماعات أرجح من الزيارة في الدار مع الخلوات، ولأنني لا أدري ما يتجدّد عليَّ في السفر من الحادثات والعوائق والشواغل عن العبادات، وكذلك ما أدري ما يتجدّد عليّ إن أقمت من العوائق

والحوائل التي ليست محسوبات، فهذا ما لا أعلمه إلا من جانب العالم بالعواقب والخفيات، فإذا شرعت في الاستخارة في الزيارة ما يبقى ذلك الوقت عندي إلتفات إلى ثواب ما ورد في الروايات، وإنما يبقى خاطري متعلقاً بما يتقدّم به الله جل جلاله الآن في الاستخارات، فإذا جاءتت الاستخارة (إفعل) امتثلت ذلك الأمر المقدس، وعبدته بالامتثال لأنه جل جلاله أهل لهذه الحال.

ومما وجدت من طرائف الاستخارات: أنني طلبني بعض أبناء الدنيا وأنا بالجانب الغربي من بغداد، فبقيت اثنين وعشرين يوماً أستخير الله جل جلاله كل يوم في أن ألقاه في ذلك اليوم، فتأتي الاستخارة (لا تفعل) في أربعٍ رقاع، أو في ثلاث متواليات، وما اختلفت في المنع مدة اثنين وعشرين يوماً، وظهر لي حقيقة سعادتي بتلك الاستخارات، فهل هذا من غير عالم الخفيات؟

ومما وجدت من عجائب الاستخارات: أنني أذكر أنني وصلت الحلة في بعض الأوقات التي كنت مقيماً بدار السلام، فأشار بعض الأقوام بلقاء بعض أبناء الدنيا من ولاة البلاد الحِليّة، فأقمت بالحلة لشغل كان لي شهراً، فكنت كل يوم أستصلحه للقائه أستخير الله جل جلاله أول النهار وآخره في لقائه في ذلك الوقت، فتأتي الاستخارة (لا تفعل)، فتكملت نحو خمسين استخارة في مدة إقامتي (لا تفعل): فهل يبقى مع هذا عندي ريب - لو كنت لا أعلم حال الاستخارة - أن هذا صادر عن الله جل جلاله العالم بمصلحتي، هذا مع ما ظهر بذلك من سعادتي؟ وهل يقبل العقل أن الإنسان يستخير خمسين استخارة تطلع كلها اتفاقاً (لا تفعل)؟

ومما وجدت من عجائب الاستخارات: أنني قد بلغت من العمر نحو ثلاث وخمسين سنة، ولم أزل أستخير مذ عرفت حقيقة الاستخارات، وما وقع أبداً فيها خلل، ولا ما أكره، ولا ما يخالف السعادات والعنايات، فأنا فيها كما قال بعضهم:

قلتُ للعاذلِ لما جاءني
من طريق النصح يبدي ويعيد
أيُّها الناصح لي في زعمهِ
لا تزد نصحاً لمن ليس يريد
فالذي أنتَ لهُ مستقبح
ما على استحسانه عندي مزيد
وإذا نحن تبايَنَّا كذا
فاستماع العذل[1] شيء لا يفيد[2]

يقول علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن محمد بن طاووس: «وأنا أضرب لك مثلاً تعرف به فضل مشاورة الله جل جلاله زيادة على ما قدّمناه أولاً، أما تعلم من نفسك أنك لو بنى لك البنّاء داراً وفرغ منها، فرأيت فيها خللاً وشعثاً في بعض بنائها، أما كنت تطلب البنا العارف بها وتسأله عن ذلك، وكذلك لو أردت أن تحفر في بعض جهاتها بئراً، وتعمل على بعض سطوحها غرفة، أما كنت

(١) العذلُ: الملامة، وقد عذلتُهُ. والاسم العذَلُ بالتحريك، يقال عذلت فلاناً فاعتذل، أي لام نفسه وأعتب. (الصحاح - عذل - ٥: ١٧٦٢).
(٢) أورده المجلسي في بحار الأنوار٩١: ٢٣٢/ ٧.

تستعلم من البنّاء العارف بها في أي المواضع أقوى لعمل الغرفة، ونحو هذا من مصالح الدار، وأنت تعرف أن الله جل جلاله بنى لك دار الدنيا العظيمة، وهو العالم بأسرارها المستقيمة والسقيمة، فكما تستعلم مصالح دارك اليسيرة من البنّاء، فاستعلم مصالح دارك الكبيرة من الله ﷻ العالم بجميع الأشياء.

مثال آخر: أما تعلم أنك لو اشتريت عبداً من سيد، قد كان العبد عند ذلك السيد عشر سنين أو نحو هذا المقدار، ثم مرض العبد عندك تلك الليلة، فإنّك تنفذ إلى سيده الأول وتسأله عن ذلك المرض، وتقول: هو أعرف، لأنّ العبد أقام عنده أكثر مني، أفما تعرف أنّ الله جل جلاله قد خلقك قبل النطفة تراباً، ثم أودعك بطوناً بعد أن أودعك أصلاباً، ثم نطفة، ثم علقة، ثم مُضغة، ثم عظاماً ثم كسا العظام لحماً، ثم جنيناً، ثم رضيعاً، ثم طفلاً، ثم ناشئاً، فما لك لا تستشيره؟ وتستعلم منه جواباً لا يكون أبداً إلا صواباً، ولأي حال إذا تجدّد عندك ما يحتاج أن تستعلمه منه جل جلاله لا يكون عندك سبحانك مثل سيد ذلك العبد الذي استعلمت منه مصلحته؟

فاجعل الله جل جلاله إن كنت لا تعرف جلاله، كسيد ذلك العبد المذكور، واستعلم منه ما تحتاج إلى معرفته من مصالح الأمور.

مثال آخر: أما تعرف أنّك لو أردت سفراً في الشتاء، وسفراً في الصيف، أو في الربيع وطيب الهواء، وما تعلم في تلك الحال ما غلب على باطن مزاجك من الحرارة والبرودة، أو الرطوبة، أو اليبوسة، فهل تجد أحداً من الخلائق يعلم في تلك الحال ما غلب على باطن مزاجك؟ ويعرفه على التفاصيل والحقائق قبل أن يظهر إلى

ظاهر جسدك، فإن الطبيب وأنت أوائل الأمراض إنما تعرفها أنت والطبيب إذا قَوِيت وأثّرت حتى بلغت تغيّر الأعراض إلى ظاهر الجسد، فإذا قلت لنفسك أو لغيرك من العباد: أنا أُريد السفر الشتاء، فهل ترى لي في ذلك صلاحاً؟ فأنت تعلم أنه ما يدري هل الحرارة قد ابتدأت وغلبت عليك فيضرّك الهواء، أو أردت سفراً في الصيف فما تدري أنت ولا المشير عليك من العباد ما الذي غلب على مزاجك، وما يتجدّد من مصالحك إذا سافرت أو أقمت، ولو بلغ المشير من الناس غاية الاجتهاد، فعلى مَ لا تستعلم هذا كله ممن يعلمه على التفصيل، وهو أشفق وأرفق من كل شفيق في كثير وقليل.

مثال آخر: أما تعلم أن كل من برز في صنعته رجع أهل تلك الصنعة إلى معرفته إذا اختلفوا أو اشتبه شيء مما اطلع هو على حقيقته، فلأي حال ما ترجع إلى الله في جميع ما تحتاج فيه إلى مشاورته؟

فالدنيا والآخرة وأنت من صنعته، وقد برز فيها على كل صانع، وله المثل الأعلى، وعَلِمَ أسرارها ومسارها وأخطارها معرفةً لا تطلع أنت لا وغيرك عليها، إلا من جانب تعريفه وإشارته»[1].

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٢.

تعظيم المقدسات الدينية

أقول: ووجدت في رؤية الهلال شيئاً لم أظفر بإسناده على العادة، نذكره إحتياطاً للعبادة، وهو ما يفعل عند رؤية الهلال.

تكتب على يدك اليسرى بسبابة يمينك: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة إلى آخرهم عليهم السلام، وتكتب: «قل هو الله أحد - إلى - آخرها» ثم تقول: إنَّ يد اليسرى محل استعمال النجاسات، وهذه الأسماء من أشرف المسميات، فإن أراد الإنسان أن يكتبها في رقعة ويجعلها في كفّه اليسار عند رؤية الهلال ويقول ما ذكرناه، فعسى أن يكون أحوط في تعظيم من سميناه[1].

(١) الدروع الواقية ص ٢٥ -٢٦.

الملائكة

يقول السيد: أيها العبد إن كنت مسلماً مصدقاً بالقرآن فأنت تجد في قلبك على اليقين التصديق لقوله جل جلاله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: ١٠-١١] وتكون مستعداً لقدومهما كما تستعد لقدوم رسول قد عرفت أنه يصل إليك من بعض ملوك الدنيا الذين هم من بعض مماليك سلطان العالمين فيكون لورودهما وحضورهما في قلبك موضع يستدل به على تصديقك لسيد المرسلين.

فإن في عباد الله جل جلاله العارفين من يعرف وقت حضورهما ووقت إنفصالهما عند المساء والصباح بأسباب لا تعرفها بالعبارة، بل إن شاء الله جل جلاله عرّفك ذلك حتى تعلمه على الإيضاح، فإنه جل جلاله يقول لأهل الاعتراض عليه في الرحمات: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢].

فإن لم تجد للملكين الحافظين محلاً في قلبك في أول ليلك ولا في أول نهارك فتوسل بالله جل جلاله في مداراة دينك أو عقلك فإنك سقيم في دينك ويقينك وفي قلبك وأسرارك، وإياك أن تقول فقد رأيت فلاناً وفلاناً وصاحبته ليلاً ونهاراً فما رأيت عنده بهذين الملكين

اهتماماً ولا اعتباراً، لأنك إن كنت مصدقاً بالكتاب والرسول فإنك لا تلتفت إلى أهل الغفلة ولا تقتدي بهم، وإنما تعمل بالمعقول والمنقول، فإن أكثر الناس في هذه الأوقات في غفلة هائلة، لطف الله جل جلاله لهم وتداركهم بما هو جل جلاله أهل من العنايات، وقد نبهنا على تحقيق ما قلناه عند وداع الملكين وقت الغروب وكشفنا ذلك بالمعقولات وبالروايات وهو حجة على من بلغه ذلك لعلام الغيوب[١].

(١) فلاح السائل ص ٣٨٣.

معرفة النبي وآله عليهم السلام

معرفة أهل البيت عليهم السلام وطاعتهم

قال رحمه الله: «إعلم أننا ذاكرون روايات تتضمن ألفاظ صلوات الله على النبي وآله عليهم السلام، وقد تضمنت وعوداً جميلةً على قدر منازلهم الجليلة، فإنَّ فضل الخدمة لهم تكون على قدر فضل الله جل جلاله عليهم وإحسانه إليهم، فمهما ذكرنا وروينا من الجزاء والثواب على الصلوة على من وصفناه، فلا يُتعجّب منه ولا يُنفر عنه، ولكن يحتاج أن تكون عارفاً بحقهم عليك وعاملاً بمعرفتك بحقهم، وقد خاطب الله جل جلاله من أمر بالبرِّ ولم يفعله كأنّه يخاطب من يقال له: إنه عبد مجنون، فقال جل جلاله: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: ٤٤] [البقرة: ٤٤]، وروى محمد بن يعقوب الكليني من كتاب الروضة مما يتضمن حديث الشيعة يقول فيه عن أبي الحسن عليه السلام: «إنهم لطالما إتكوا على الأرائك فقالوا: نحن شيعة علي عليه السلام: إنما شيعة علي عليه السلام من صدق قوله فعله».

وأنت يا أخي تعرف أن النبي وعلياً وذريتهما الطاهرين عليهم السلام، كانت الشريعة والدين عندهم أعز من أنفسهم وأولادهم وأموالهم وعيالهم، ولذلك كان النبي وعلي عليهما السلام يخاطران في حروب الإسلام بأنفسهما لحفظ حرمة الدين وطاعة ربّ العالمين.

فثبت أن حرمة الشريعة أهمُ على النبي وعلي عليهما السلام من أولادهما كما حررناه، فما تقول فيمن قتل ولداً للنبي وعلي عليهما السلام؟ أما يكون عدواً لهما بغير شك؟ ولو قال وهو يقتل ولدهما أو وهو مصرٌّ على المعصية بقتله: أنا أحب النبي صلى الله عليه وآله وعلياً عليه السلام وهما يحباني، أما كان يعلم كل عاقل أنه يكذب، وأنهما عدوان له ولا تنفعه الأماني.

فإذا عرفت ذلك، فاعلم أن من ضيّع حدود الشريعة وحرمتها، وهوّن بها، وقطع موصولها، ووصل مقطوعها، واستخف بها وآثر الدُّنيا عليها وعليها صغر، فإنه يكون عند النبي وعلي عليهما السلام وعند ذريتهما الطاهرين، أعظم ممن يكون قد قتل أولادهم أو كسر حرمتهم أو هوّن بهم أو قطع أعضائهم أو صغر منزلتهم، لأنّك قد عرفت أن حرمة الدين عندهم وحرمة سلطان المعاد أعزُّ وأهم من حرمة الأولاد.

فإذا قال العبد المسكين بعد تهوينه بشيء من أمور الدين: أنا أحبُّ النبي وعلياً وهما يحباني، وتعلّق بهذه الأماني ومال إلى التواني، فينبغي أن يعرف أنه مبطل في دعواه، وأنهم عليهم السلام إلى عداوته أقرب من محبته، كما قد عرفت معناه، فيحتاج إذا أردت الصلوة عليهم بهذه الألفاظ التي يأتي ذكرها على التفصيل أن تكون عارفاً بهم عليهم السلام، وعاملاً بمعرفتك بهم على الصدق والوجه الجميل، وهناك تظفر بذلك الوعد الجليل»[1].

---

(١) جمال الاسبوع ص٢٧٢.

الإمام الحسين عليه السلام

وصف أهوال يوم عاشوراء

قال السيد رحمه الله: «يا لهُ من يوم كُسفت فيه شموسُ الإسلام والمسلمين، وخُسفت به بُدور الطاهرين، ورجفت فيه أقدام أهل اليقين، وطأطأ الإسلام رأسه ذلاً وجزعاً بلسان الحال من تِلك الأهوال، وناحَ لسانُ حال الشرائع والأحكام، وكاد أن يموتَ ضوءُ النهار ويحيى أمواتُ الظلام، وبهتَتِ العقول السليمة وعادت لعزلها عن ولايتها، وشقت جيوب القلوب المستقيمة لغلبتها على إمارتها وتبرأت ألباب المحاربين لذرية سيد المرسلين من أصحابها، وشكت إلى الله جل جلاله على مصابها، وعقدت ألوية العارِ على كُل عاذرٍ وخاذلٍ، ووسمت جباه الشامِتين باستحقاق كل هول هائل وخطبٍ شامل، وأشرف الملائكة والأنبياء والمرسلون ومحمد صلى الله عليه وآله وعترته المظلومين من مناظر التعجب يطلعون ويسترجعون مما قد بلغت الحال إليه، وعجزت القوة البشرية عن احتمال ما أقدم الأعداء عليه وقال لسان حال الرسول الداعي لكل سامعٍ وواعٍ الساعين إلى سفك دمه الشريف بسُوء المساعي إذا لم تجازونا على الإحسان ولم تعترفوا

لنا بحق العتق من الهوان ومن عذاب النيران ولم تذكروا لنا بسط أيديكم على ملوك الأزمان وما فتحنا عليكم من أبواب الرضوان والجنان فارجعوا معنا إلى حكم المروة والحباء وعوائد الكرام في الجاهلية الجهلاء أو لا، فلا تكونوا لنا ولا علينا، فما الذي حملكم على العداوة لنا والإقدام على القتل لنا والتشفي بالإساءة إلينا.

فناداه لسان حال الشفقة على قلبه المصدور: القوم أموات ولستَ بمسمع من في القبور، وكشف له عن التشريف لأهله بذلك التكليف وعن عذاب الأعداء بدوام الشقاء وعن أسرار أن أهلك أعزُّ علينا منهم عليك، والذي قد جرى بمحضرنا ونحن أقدر على الانتقام وسوف يحضر الجميع بين يديك وتحكم في كل مسيء إلى ذريتك وإليك، وأن ولايتك على الأشرار كولايتك على الأبرار وأنت المنتقم لنا ولك بمهما شئتَ من الاقتدار والبوار، ولا نرضى إذا غضِبتَ ولا نقبل على أحد إذا أعرضتَ، وما كان هذا التمكين للأشرار عن هوان الأبرار، ولكن الموت وارد على أهل الوجود لإكرام أهل السعود، والانتقام من ذوي الجحود فأكرمنا نفوس خاصّتِكَ وذريتك أن يبذلُوها في غير إعزاز ديننا العزيز علينا وأن يهدوها إلا إلينا، وأردنا أن يعرضوها في ديوان المحاماة عن حمى العزيز علينا وأن يهدوها إلا إلينا، وأردنا أن يعرضوها في ديوان المحاماة عن حمى مُلكنا الباهر وسُلطاننا القاهر، فحاربوا ذريتك وخاصتك لنا بما يفرط عليهم وكان ذلك تشريفاً لهم وإقبالاً منا عليهم، ولو لم يجودوا لنا بالنفوس وبذل الرؤوس لأفناها الموت

الحاكم بالزوال، وفاتها ما ظفرت به من الإقبال ونهايات الآمال، وإن عندنا أعظم مما عندك مما أقدم عليه الفجار ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [ابراهيم: ٤٢] (١).

(١) الاقبال ص ٣٥.

مراقبات يوم عاشوراء

فمن مهمات يوم عاشوراء عند الأولياء المشاركة للملائكة والأنبياء والأوصياء في العزاء، لأجل ما ذهب من الحرمات الإلهية ودَرسَ من المقامات النبوية، وما دخل ويدخل على الإسلام بذلك العدوان من الذل والهوان، وظهور دولة إبليس وجنوده على دولة الله جل جلاله وخواص عبيده، فيجلس الإنسان في العزاء لِقرائة ما جرى على ذرية سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله، وذكر المصائب التي تجددت بسفكِ دمائهم والإساءة إليهم ويقرأ كتابنا الذي سميناه بكتاب «اللهوف على قتلى الطفوفِ» وإن لم يجده قرأ ما نذكره ههنا فإننا حيث ذكرنا يوم عاشوراء ووظائفه من الأعمال والأقوال فيحسن أن نذكر ما جرى فيه من وصف الإقبال والقتال ونسميه كتاب «اللطيف في التصنيف في شرح السعادة بشهادة صاحب المقام الشريف».

فنقول: «اللهمَّ إننا نقرأ هذا المقتل عليك ونرفع هذه المظلمة إليك، فلا تمنعنا فيها من قصاص عدلك وما وعدت المظلومين من ذخائر فضلك، ثم تنادي إلى العقول والقلوب والنفوس والأرواح والنوادب من أهل المصائب في الغدو والرواح.

هلُمّوا واسمعُوا ما جرى على ابن خير الورى، وارفعوا أصواتكم

بالندب على مُلوك أئمّة القُرى، واشغلوا العيُون بالدموع عن الكرى، واذكروا أن الله جل جلاله رأى عباده على ضلال قد فضحهم بين الأنام، وحال بينهم وبين العقول والأحلام، وعبادة الأحجار والأصنام وقد صاروا مستحقين ذلك الاستئصال والاصطلام[1] فينبغي لسان الحال شفقة محمدٍ رسُوله ﷺ في الشفاعة إلى حلمه جل جلاله وعفوه ورحمته أن لا يستأصلهم بما يستحقونه من نقمته وأن يبعثه رسولاً إليهم ليخصّلهم مما قد أشرف عليه من الهلاك والاستئصال ويسترهم من فضائح الضلال، فَقَبل الله جل جلاله لسان حال شفاعته واستعطافه وبَعَثَهُ إليهم رسولاً بألطافه، فلم يزل يرفق بهم ويشفق عليهم حتى غسل سواد أوصافهم بسحائب كمال أوصافه، وأنامهم عن العكوفِ على تلك الفضائح والقبائح بتكرار النصائح وإظهار المصالح، فعاشوا من موت الجهل وظفروا بفوائد العقل والنقل، ثم دعاه الله جل جلاله إلى لِقائه وخلف فيهم نُور اهتدائه من يقوم لهم مقامه بعد انتقاله إلى دار بقائه ويحفظ عليهم شريعته وأحكامه، فخذلوا القائم مقامه حتى انتقل إليه مقتولاً مظلوماً، واختلفوا على من قام مقامه ثانياً حتى مضى إلى ربه مقتولاً مسموماً، ثم بقي فيهم الثالث فعرّفهم أنه سيد شباب أهل الجنة وشرّفهم بما لله جل جلاله ولرسُوله ﷺ عليهم في ذلك من المنَّةِ وكان جواب الله جل جلاله منهم على ذلك الإنعام وجزاء محمد ﷺ على الشفاعة فيهم والقيام بهم والإهتمام، أنهم كاتبوهُ وأخرجوه من أوطانه، وأخافوه بعد أمانه، واتخذوا الدعاة إلى أصنامهم، والذين كانوا من

(١) أي الإهلاك الكلي، والإذهاب من الأصل.

أسباب استحقاق اصطلامهم أئمة لضلالهم وقادة إلى دار هلاكهم ووبالهم، وشرعوا إلى عداوة الداعي لهُم إلى السلامة والهادي إلى دار الكرامة ودوام الإقامة، وأقبلوا مع عدو الله وعدوهم يريدون قتل ابن بنت رسولهم ونبيهم، وهم يعلمون أنه قطعة من لحم جسده وبضعة من فؤاده وكبده، فأذكرهم صلوات الله عليه بالحقوق السالفة والحاضرة وما لله جل جلاله بجده وأبيه وبه من النعم الباطنة والظاهرة، فعادوا إلى العمى الذي كانوا عليه ولم يلتفتوا إليه، فسألهم أن يتركوه حياً للدنيا كسائر الأحياء وألا يكونوا له ولا عليه في نصرة الأعداء فأبوا إلا أن يبيحوا ما حماه الله جل جلاله من محارمه ويسعوا في سفك دمه، فغضب الله جل جلاله عليهم، فدعاه إلى شرف السعادة بالشهادة وأن يتركهم وما اختاروه من ضلال الإرادة، فأسرعوا وسعوا إلى حِمى الله جل جلاله ليهتكوه وإلى دم رسوله الجاري في أعضاء ولده ليسفكوه وأقدموا على نائب الله جل جلاله فيهم لما دعاهم لما يحييهم يُريدون قتله عمداً ويأتون ما يكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّاً، وأدركت السعادة قوماً ليحولوا بينهم وبين ما أقدموا عليه وغضبوا لله جل جلاله لما عرفوا أنه قد غضب لأجل ما انتهت الحال إليه، فدعاهم القوم إلى ترك القتال والعُدُول عن الضلال وحذروهم من عذاب الدنيا والآخرة وذكّروهم ما لله جل جلاله عليهم بمحمد رسوله صلى الله عليه وآله من الحقوقِ الباهرة فبدأوا بقتل القوم الذين غضبوا لله، واتفقوا على هدم أركان الملة.

فلم يبق مَلَك ولا رسُول ولا عبد له عند الله مقام وقبول إلا وغضبوا مع الله جل جلاله لتلك الحال واستعظموا ما بلغ إليه الأمر

من الأهوال ووقفوا على طريق الشهادة والقبول، يتلقون روح نائب الله جل جلاله وابن الرسول وحضرت روح محمد وروح علي وفاطمة البتول وروح ابنها الحسن المسموم المقتول يشاهد ما يجري على مُهجَةِ فؤادهم وقطعة أكبادهم يندبون بلسان حالهم ويستغيثون لقتالهم.

وكلما رفع رأس من رؤوس أهل الشهادة كشف بلسان الحال لتلك الرؤوس رؤوس أهل السعادة مواساةً في البلاء في مجلس العزاء، وكلما مُزّقت ثياب أهل الجهاد مُزّقت ثياب الآباء والأجداد، وكلما رُمِّل وجه من تلك الوجوه العزيزة بالرمال رُمِّلت لذلك وجوه أهل الإقبال، وكلما هُتكت حرمة الله والرسول بكى لسان حال الإسلام وذوي العقول، حتى فزع أهل الضلال من قتل الأحبة والملوك الذين فرّجُوا عنهم وعن سلفهم كل كربةٍ، وقصدوا لقتل ذرية محمد ﷺ وأولاده فخرجوا إليهم عليهم السلام مشتاقين إلى لقاء الله جل جلاله وما دعاهم إليه من جهاده واتباع مراده فحاموا عن دينه الذي شرع أهل الضلال في زواله وبذلوا نفوسهم في حفظ ناموسه وإقباله، واستبدلوا دوام السعادة والبقاء بقتال أهل الشقاء، حتى قُتل المجاهدون من الأكابر والأصاغر وارتجت السموات والأرضون لذلك الضلال الحاضر.

فبقي مولانا الحسين عليه السلام والحرم والأطفال الذين بين يديه، فلم ينظروا لتلك الوحدة والكسرة ونفوس من بَقِي من العترة، وأقبلوا يهجمون على الحرم والأطفال بالقتال والاستئصال، وهو عليه السلام مع ما جرت الحال عليه يدعوهم إلى الله جل جلاله ويحذرهم من القدوم

عليه، ويُذكّرهم بلقاء جده لهم يوم القيامة صلى الله عليه وآله، وعُقولهم قد هربت بلسان الحال منهم وقلوبهم قد ماتت بسيف الضلال الذي يصدر عنهم، فلم يرحموا حرمةً لوحدتها ولا أُسرة لضعف قوتها، ولم يقفوا موقف مروةٍ ولا حياء ولا أُخوة ولا وفاء، وقصدوا نحو الحسين عليه السلام يقتلونه وحيداً فريداً من الأنصار قتل أهل العداوات ولا يستحيون من وحدته، وانفراده، وضعف جلده عن الذي يريده من جهاده فرموه بسهامهم.

وسعوا إلى سفك دمه بإقدامهم وأقدامهم، وكاد لسان حال سيد الأنبياء وفاطمة الزهراء وابنها الحسن المسموم بيد الأعداء أن يعجزوا عن احتمال ذلك البلاء والابتلاء، وشُقِقَتِ الجيُوبُ، وبكتِ العيون، وقال لسان حال تلك الأهوال: إن هذا لهو البلاء المبين، واشتغلت عقول الأبرار وقلوب الأطهار في الجلوس على بساط العزاء، واجتماع أرواح الأنبياء والأولياء، وإقامة سنن المصائب والمآتم وما يليق بتلك النوائب والعظائم، فلم يزل أهل الضلال على قدم التهوين بالله وبرسول الله وبولي الله ونائب الله وابن نبي الله وحجة الله حتى أثخنوه ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح ورمياً بالسهام وجهداً بإقدام بعد إقدام حتى سمحت جواهر وجوده بمفارقة روحه ولقاء مالك سعوده، فرماه الطغاة عن فرَسِه إلى التراب على خده العزيز.

العزيز عند رب الأرباب، العزيز العزيز عند جده محمد مالك ملوك ذوي الألباب العزيز العزيز على أبيه الذي أقامهم على منابر الإسلام ووطأ لهُم مواطىء الأقدام، العزيز العزيز على أمه فاطمة سيدة نساء العالمين، العزيز العزيز على أخيه الحسن سيد شباب أهل

الجنة من الخلق أجمعين العزيز العزيز على الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين فوضع بلسان الحال كل عبد من أهل الإقبال خدودهم على تراب المواساة وندبوا وبكوا واستغاثوا لقتل أهل النجاة وأتباع روح الحياة، وابتدر القوم إلى رأس طال ما قبّله محمد ﷺ وعظّمه يريدون أن يسفكوا بسيف ضلالهم دمه، فذلّت رقاب الكتب المنزلة لهتك حرمتها، وأعولت شرائع الدين لسفك دماء أئمتها، واشتد غضب الله جل جلاله وملائكته وأنبياؤه وخاصته عليهم، وقدّم لهم من إنزال العذاب عليهم أنه سلبهم الألطاف وتركهم صماً وعمياً وبكماً، ونادى يا أهل الأسماع ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

فتقدموا وأقدموا على التفريق بين رأسٍ عظيم وجسد كريم، يعز على الله وعلى رسوله وعلى خاصته أن يقدم أحد من الخلائق على كسر حرمته وذهاب مهجته، فمدّوا إليه يداً آباؤه الطاهِرُون بسطُوها بعد الانقباض، وأزالوا عنها يد ملُوك الدنيا حتى بلغُوا لها نهايات الأغراض، وجعلُوا على نحره الشريف سيفاً كان لجده وأبيه وله في أيديهم عارية مضمونة، فسفكوا به دماءً مصونة، فكاد الإسلام أن يموت بمماته وكل ذي روح يختار الفناء لزوال حياته، فتلقى روحه محمد جده وأبوه وأمه وأخوه عليهم السلام وقد أرهقها تعبُ الجهاد وأتعبها مقاساة أهل الفساد والعناد، ففرش الله جل جلاله لها فراش العنايات، وبسط لها جده محمد ﷺ بساط الكرامات.

واجتمعت أرواح الملاء الأعلى، فمن بين مُعزٍّ لسيد الأنبياء وباكٍ لهذا الابتلاء، وبين راحم للحرم الضعيفات ومُتأسفٍ على هتك

الحرمات ودُرُوس الآيات والدلالات، وشَرَعَ الأعداء في نهب بنات الرسول وحَرَم البتول، ينزعون عنهن ملاحفَهُنّ وأرديتهن ومقانعهنّ وأستارهنّ، فعجز لسان الوجدان عن احتمال ذلك العدوان والطغيان، وقامت قيامه العدل، وسال تعجيل يوم الفصل، ونُكِسَت أعلام الإسلام، وأُظلمت أنوارُ الشرائع والأحكام، وغضب لسان حال المصحف الكريم، وأعرض عن الإقبال على أهل الفعال الذميم، حتى فزعوا من نهب السبايا وجعلوهم في أُسراء الرزايا وقالوا: لا بد من أن يُداس ظهر النبوة والرسالة ويهان مقام الكرامة والجلالة بأن توطىء حوافر الخيل لذلك الظهر المعظم، وبلغوا من الإلحاد ما لم يُعرف قبله فيما تقدم، فوطئوا ظهراً كان لهمك ظهراً ونصراً عند المَلِكِ الأرحم والمالك الأعظم، وتركوا تلك الأجساد عارية والأعضاء على التراب بادية، وكم لتلك الأجساد والأعضاء من يدٍ عليهم بخاتم الأنبياء وبما أسبقوا عليهم من النعماء.

وحملوا رؤوساً طالما رُفعت رؤوس كلِّ مُسلم بعد وضعها ووصلتِ الأسباب بينهم وبين الله بعد قطعها وجعلوها على رماحٍ يبكي لسان حالها من حملهم عليها، ويتطأطأ لهم رؤوس تلك الرماح وتُقبِّلُ الأرض بين يديها، وتعتذر بلسان حالها أنها مقهورة على هذا الاعتداء بيد الأعداء وتقول: طال ما حملتموني بيد التكريم وسلكتم بي الصراط المستقيم فأنا اليوم أحملكم لئلا تكونوا على التراب وأرفعكم عن أن تنالكم يد بقايا الأحزاب، فطافت الملائكة بذاك الرأس الكريم حتى صار في موكبٍ عظيم من التعظيم، وساروا بالحرمِ والنساء والصبيان على مطايا الكسر والذل والهوان، فهل من

باكٍ يبكي على الإسلام والإيمان؟ وهل من مُواسٍ لملوك الأزمان؟ وهل شاكٍ لكفران الإحسان؟ وهل من معين على النياحة والعويل؟ وهل من جوادٍ بالدمع على القتيل؟

وكيف يغني شق الجيوب عن شق القلوب لسفك دماء الأحبة بأرض الغربة وسلب مصونات الأبدان وتركها عارية بغير أكفان، ومن ذا يتخلف عن المساواة للملوك الهداة؟ ومن يُؤثر أن يكون محمد في مجلس العزاء مع الأنبياء والأولياء على مصابه بثمرة فؤاده وبمخالفة مراده وبتلف ما جاء به من الشريعة، وبما تجدد من الأمور الفظيعة ولا يشاركُه في عزائه والبُكاء على ذريته وأبنائه.

وأي عين تبخل بدموعها المخزونة وأي قلوبٍ لا تبكي ولا تحزن لهاتيك الوجوه المصونة؟ وأيُّ يدٍ لا ترتفع نادبة وشاكية وأي ألسنة لا تنطق بالواعية.

عباد الله افكروا لو كان هذا قد جرى على أولادكم وأطفالكم ورجالكم وبناتكم وحرماتكم فانظروا ما كنتم صانعين وعاملين، فلا يكن من يعزّ عليكم أعزّ ممن يعزّ على سيد المرسلين إن كنتم تريدون أن تكونوا من أهل الوفاء لخاتم الأنبياء وأن تسكنوا معه في دار البقاء، فإن كل من فارقه في مصائبه وأحزانه كيف يرجو أن يلقاه بإحسانه أو يسكن معه في دار رضوانه وأمانه، هيهات هيهات أن يشارك أيام الرخاء إلا من واسا أيام البلاء، فلا يَهِنْ عندكم ما لم يَهِنْ على الله جل جلاله وخاصته، وكونوا رحمكم الله على أعظم موافقة الله ﷻ في غضبه لهتك حرمته، وعلى أتم صفة في مشاركة رسوله ﷺ فيما جرى عليه لسفك دماء ذريته، واطلبوا في الليل

والنهار وفي الأسحار الأخذ بهذا الثار والظفر بما وعد الصابرين والمجاهدين من المسار والمبار.

وأقول أحسن الله عزاء محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعزاء كل من شاركه فيما جرت الحال، عليه وأحسن عزاكم أيها الحاضرون، وإنا لله وإنا إليه راجعون»[1].

* * *

«إن أقل مراتب يوم عاشوراء أن تجعل قتل مولانا الحسين عليه السلام وقتل من قُتِلَ معه من الأهل والأبناء مجرى والدك وولدك أو بعض من يعز عليك، فكن في يوم عاشوراء كما كنت تكون عند فقدان أخص أهلك بك وأقربهم إليك، فأنت تعلم أن موت أحدٍ من أعزتك ما فيه ظلم لك ولا لهم ولا كسر حرمة الإسلام ولا كفر الأعداء لحرمتك، وأما الحسين عليه السلام فإن الذي جرى عليه وعلى جماعته ومن يعزّ عليه جرى فيه ما قد شرحنا بعضه من هتك حُرمات الإسلام وذُل مقامات أهل العقول والأفهام ودروس معالم الدين وشماتة أعداء المسلمين، فاجتهد أن يراك الله جل جلاله أن كلما يعز عليه يعز عليك، وأن يراك رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن كلما هو إساءة إليه فهو إساءة إليك، فكذا يكون من يريد شرف الوفاء لله جل جلاله ولرسُول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولخاصته، وكذا يكون من يريد أن يكون الله جل جلاله ورسوله وأوليائه عليه وعليهم السلام معه عند نكبته أو حاجته أو ضرورته، فإنه إذا كان معهم في الغضب والرضا واللذة والسرور كانوا معه عند مثل تلك الأمور.

---

(١) الاقبال ص ٣٦ - ٣٧.

وأما إن كنت صاحب معرفة بالله جل جلاله وخواص عباده وتتقي الله جل جلاله في اتباع مراده فإنك لا تقنع أن يكون حالك يوم عاشوراء مثل حالك عند فقد الآباء والأبناء، بل على قدر منزلة الحسين عليه السلام وذريته وعترته عند الله جل جلاله وعند جدهم صلى الله عليه وآله في المواساة عند تلف ما يقوم مقام مهجته وعلى قدر المصيبة في الإسلام وذهاب حرمته»[1].

(١) الاقبال ص ٥٣.

زيارة الإمام الحسين

قال أبو عبد الله عليه السلام: يا يونس ليلة النصف من شعبان يُغفر لكل من زار الحسين عليه السلام من المؤمنين ما قدّموا من ذنوبهم، وقيل لهم استأنفوا العمل، قال: قلت: هذا كله لمن زار الحسين عليه السلام في ليلة النصف من شعبان؟ قال: «يا يونس لو خبّرت الناس بما فيها لمن زار الحسين عليه السلام لقامت ذكور رجالٍ على الخشب».

أقول: لعل معنى قوله عليه السلام «لقامت ذكور رجالٍ على الخشب» أي كانوا قد صلبوا على الأخشاب لعظيم ما كانوا ينقلونه ويروونه في فضل زيارة الحسين عليه السلام في النصف من شعبان من عظيم فضل سلطان الحساب وعظيم نعيم دار الثواب الذي لا يقوم بتصديقه ضعف الألباب.

واعلم أن الذي استسلم له الحسين عليه السلام لما دُعّي إلى الشهادة وبذله من نفسه العزيزة من الأمور الخارقة للعبادة مع كونه عارفاً بها قبل التعرض لها بما أخبر به جده وأبوه عليهما السلام بتلك الأهوال على التفصيل، لا يستكثر له مهما أعطاه الله جل جلاله وأعطى لأجله زائريه الساعين لله جل جلاله على ما يريده الحسين عليه السلام من التعظيم والتبجيل، فالذي يستكثر العباد عند الله جل جلاله قليل، فإنه جل

جلاله القادر لذاته، الرحيم لذاته، الكريم لذاته، الذي لا ينقصه مهما أعطى من هباته بل يزيد في مُلكه زيادة عطاياه وصلاته، ومن أهم المهمات إخلاص الزائرين في هذه وتطهير النيات وأن يكون الزيارة لمجرد أمر الله جل جلاله فالعبادة له جل جلاله بها والطاعة له في الموافقة له في التعظيم لها ويكون إذا زار مع كثرة الزائرين، فكأنه زار وحده دون الخلائق أجمعين، فلا يكون ناظره وخاطره متعلقاً بغير رب العالمين، وهذا أمر شهد به صريح العقول من العارفين وقال جل جلاله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البَيِّنَة: ٥]»[1].

(١) الاقبال ص ٢٢٥.

العلاقة بالإمام المهدي عليه السلام

قال رحمه الله لولده: «وأوصيك يا ولدي محمد وأخاك ومَن يقف على كتابي هذا، بالصدق في معاملة الله جل جلاله ورسوله صلى الله عليه وآله، وحفظ وصيتهما بما بشّرا به من ظهور مولانا المهدي عليه السلام، فإنني وجدت القول والفعل من كثير من الناس في حديثه عليه السلام مخالفاً للعقيدة من وجوه كثيرة:

منها: أنني وجدت أنه لو ذهب من الذي يعتقد إمامته عبدٌ أو فرسٌ أو درهمٌ أو دينارٌ، تعلّق خاطره وظاهره بطلب ذلك الشيء المفقود، وبذل في تحصيله غاية المجهود، وما رأيت لتأخر هذا المحتشم العظيم الشأن عن إصلاح الإسلام والإيمان، وقطع دابر الكفار وأهل العدوان، مثل تعلق الخاطر بتلك الأشياء المحقرات، فكيف يعتقد من يكون بهذا الصفات أنه عارف بحق الله جل جلاله وحق رسوله صلى الله عليه وآله، ومعتقداً إمامته على الوجه الذي يدعي المغالاة والموالاة لشريف معاليه؟!.

ومنها: أنني وجدت من يذكر أنه يعتقد وجوب رئاسته، والضرورة إلى ظهوره وإنفاذ أحكام إمامته، لو واصله بعض من يدعي أنه عدو لإمامته من سلطان، وشمله بأنعامه، كان قد تعلّق خاطره

ببقاء هذا السلطان المشار إليه، وشغله ذلك عن طلب المهدي عليه السلام، وعما يجب عليه من التمني لعزل الوالي المنعم عليه.

ومنها: أنني وجدت من يدّعي وجوب السرور بسروره والتكدر بتكدره عليه السلام يقول: إنه يعتقد أن كل ما في الدنيا قد أُخذ من يد المهدي عليه السلام وغصبه الناس والملوك من يديه، ومع هذا لا أراه يتأثر بذلك النهب والسلب كتأثره لو أخذ ذلك السلطان منه درهماً أو ديناراً أو ملكاً أو عقاراً، فأين هذا من الوفاء ومعرفة الله جل جلاله ورسوله صلى الله عليه وآله ومعرفة الأوصياء.

ومنها: أنني قلت لبعض من يدّعي الحرص على ظهوره، والوفاء له، والتأسف عليه: ما تقول لو أنفذ إليك المهدي عليه السلام وقال لك: إني قد عرفت من جهة آبائي عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله بطريق محقق اعتمدت عليه أني متى ظهرت الآن فإن ساعة ما تقع عينك عليَّ تموت في الحال، ومتى تأخرت عن الظهور عشت عشرين سنة ممتعاً مسروراً بالأهل والولد والمال، أفليس كنت تختار تأخر ظهوره لأجل حياتك الفانية.

ومنها: أنني قلت لبعض من يدّعي مغالياً في موالاته عليه السلام: لو أنفذ إليك وقال لك: إن سلطان بلادك يعطيك بعد هذا اليوم كل يوم ألف دينار، ثم أعطاك السلطان مستمراً على التكرار كل يوم جملة هذا المقدار، وقال عليه السلام: هو لك حلال زمن الغيبة.

ثم أنفذ إليك عليه السلام وقال: أنا قد أُذن لي في الظهور، وهذا العطاء ما كان بإذني ولا تستحقه إلا مع غيبتي، فأيما أحبّ إليك أظهر وأقطع بهذا العطاء، وأُحاسبك على كل ما فضل عن مؤنتك،

وأجعل هذا الإدرار لبعض من بينك وبينه عداوة دنيوية، ممن منزلته في الظاهر دون منزلتك، فأيما كان أحب إليك أن تطول غيبته وتأخذ العطاء كل يوم ألف دينار، أو يتعجل ظهوره ويحاسبك عليها ويقطعها ويردها إلى عدوك؟ عرفنا ما يكون في قلبك من الاختيار، وأعرف من الوجوه غير ما ذكرته الآن.

وقلت لبعض الأخوان: إن رجال المهدي عليه السلام من يريده للوجه الذي أراده الله جل جلاله له، سواء كان نافعاً بهذا المراد أو غير نافع في العاجلة له، وأن يكون الاختيار فيهم جل جلاله وله.

وقد كان سالني بعض من يذكر أنه معتقد لإمامته، فقال: قد عرضت لي شبهة في غيبته.

فقلت: ما هي؟

فقال: أما كان يمكن أن يلقي أحداً من شيعته، ويزيل الخلاف عنهم في عقائد تتعلق بدين جده محمد صلى الله عليه وآله وشريعته.

واشترط عليّ أن لا أجيبه بالأجوبة المسطورة في الكتب، وذكر أنه ما زال الشبهة منه ما وقف عليه ولا ما سمعه من الأعذار المذكورة.

فقلت له: أيهما أقدر على إزالة الخلاف بين العباد، وأيما أعظم وأبلغ في الرحمة والعدل والارفاد أليس الله جل جلاله؟

فقال: بلى.

فقلت له: فما منع الله جل جلاله أن يزيل الخلاف بين الأمم أجمعين وهو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، وهو أقدر على تدبير

ذلك بطرق لا يحيط بها علم الآدميين، أفليس أن ذلك لعذر يقتضيه عدله وفضله على اليقين؟

فقال: بلى.

فقلت له: فعذر نائبه عليه السلام هو عذره على التفصيل؛ لأنه ما يفعل فعلاً إلا ما يوافق رضاه على التمام.

فوافق وزالت الشبهة، وعرف صدق ما أورده الله جل جلاله على لساني من الكلام.

واعلم: يا ولدي محمد «زيّن الله جل جلاله سرائرك وظواهرك بموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه» أنني كنت لمّا بلغني ولادتك بمشهد الحسين عليه السلام في زيارة عاشوراء، إلا أنك ولدت بطالع السعد والإقبال يوم تاسع محرم سنة ثلاث وأربعين وستمائة يوم الثلاثاء، بعد مضي ساعتين وخمس دقائق من ذلك النهار، كما قدمناه في خطبة هذه الرسالة.

فقمتُ بين يدي الله جل جلاله مقام الذل والانكسار، والشكر لما شرّفني به من ولادتك من المسار والمبار، وجعلتك بأمر الله جل جلاله عبد مولانا المهدي عليه السلام ومتعلقاً عليه.

وقد احتجنا - كم مرة عند حوادث حدثت لك - إليه، ورأيناه في عدة مقامات في منامات، وقد تولى قضاء حوائجك بانعام عظيم في حقنا وحقك لا يبلغ وصفي إليه.

فكن في موالاته والوفاء له، وتعلّق الخاطر به على قدر مراد الله جل جلاله، ومراد رسوله صلى الله عليه وآله، ومراد آبائه عليهم السلام، ومراده عليه السلام منك. وقدّم حوائجه على حوائجك عند صلاة الحاجات، كما ذكرناه

في كتاب (المهمات والتتمات)، والصدقة عنه قبل الصدقة عنك وعمن يعز عليك، والدعاء له قبل الدعاء لك.

وقدّمه في كل خير يكون وفاء له، ومقتضياً لإقباله عليك وإحسانه إليك، فأعرض حاجاتك عليه كل يوم الاثنين ويوم الخميس من كل اسبوع، لما يجب له من أدب الخضوع، وقل عند خطابه بعد السلام عليه بما ذكرناه في أواخر الأجزاء من كتاب «المهمات» من الزيارة التي أولها:

«سلام الله الكامل يا أيها العزيز، مسنا وأهلنا الضر، وجئنا ببضاعة مزجاة، فأوفِ لنا الكيل، وتصدّق علينا، إن الله يجزي المتصدقين. تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين، يا مولانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين».

وقل: يا مولانا هذه مقامات أُخوة يوسف مع أخيهم وأبيهم وقد رحمهم بعد تلك الجنايات، فإن كنا غير مرضيين عند الله جل جلاله، وعند رسوله صلى الله عليه وآله، وعند آبائك، وعندك عليكم أفضل الصلوة، فأنت أحق أن تسعنا من رحمتك وحلمك وكرمك وشريف شيمك، بما وسع أخوة يوسف من تعطفه عليهم ورحمته لهم وإحسانه إليهم.

وقل: يا مولانا أنني وجدتُ في النقل أن جدك محمداً صلى الله عليه وآله كان له عدو شديد يقال له النضر بن الحارث فقتله، فقالت أُخته تخاطب النبي صلى الله عليه وآله في أبيات أغيّر بعض خطابها:

أمحمد ولأنْتَ نسلُ نجيبةٍ ... في قومها والفحلُ فحلٌ مُعْرِق

إن كانَ يُمكنُ أنْ تَمنَ وَرُبَّما ... منَّ الفَتى وَهْوَ المغِيظ المُحَنَقُ

والعبدُ أقربُ مَنْ وَصَلْتَ قرابةً ... وأحَقهم إنْ كان عِتْق يُعتق

فقال النبي صلى الله عليه وآله ما معناه: «لو وصلتني هذه الأبيات قبل قتله لعفوت عن سوء فعله» وأنت يا مولانا أهل الاقتداء بجميع خصاله.

وقل له: إنني رويت في الحديث أن قارون لما دعى عليه موسى عليه السلام وخسفت به الأرض نادى «وارحماه»، وكان بينه وبين موسى عليه السلام قرابة ورحم ماسة، فروي أن الله جل جلاله أمر الأرض لا تنخسف به، ورعى له حق حرمة هذه الاستغاثة، وأنا أقول: وارحماه.

وقل له غير ذلك مما يجريه الله جل جلاله على خاطرك، واذكر له أن أباك قد ذكر لك أنه أوصى بك إليه، وجعلك بإذن الله جل جلاله عبده، وأنني علقّتك عليه، فإنه يأتيك جوابه صلى الله عليه وآله.

ومما أقول لك يا ولدي محمد «ملأ الله جل جلاله عقلك وقلبك من التصديق لأهل الصدق والتوفيق في معرفة الحق» أن طريق تعريف الله جل جلاله لك بجواب مولانا المهدي عليه السلام على قدرته جل جلاله ورحمته، فمن ذلك ما رواه محمد بن يعقوب الكليني في كتاب (الرسائل) عمن سماه قال: كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام: أن الرجل يجب أن يفضي إلى إمامه ما يجب أن يفضي به إلى ربه قال: فكتب: «إن كانت لك حاجة فحرّك شفتيك، فإن الجواب يأتيك».

ومن ذلك ما رواه هبة الله بن سعيد الراوندي في كتاب (الخرائج) عن محمد بن الفرج، قال: قال لي علي بن محمد عليه السلام: «إذا أردت أن تسأل مسألة فاكتبها وضع الكتاب تحت مصلاك ودعه ساعة ثم أخرجه وانظر فيه»، قال: ففعلت فوجدت جواب ما سألت عنه موقعاً فيه.

وقد اقتصرت لك على هذا التنبيه، والطريق مفتوحة إلى إمامك عليه السلام لمن يريد الله جل شأنه عنايته به وتمام إحسانه إليه.

واعلم يا ولدي محمد «كمّل الله جل جلاله بلقائه سعادتك، وشرّف ببقائه وحسن إرادته منزلتك وخاتمتك» أنني لولا آية في كتاب الله المقدس ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: ٣٩]، لكنت قد عرفتك ووثقتك أنني أدرك أيام ظهوره الكامل، وأدخل تحت ظله الشامل، فهذا أوان ظهور تلك الشموس، وزوال الضر والبؤس إن شاء الله، فإن تمم الله جل جلاله لي ما أؤمله من هذه الآمال فقد كمل لي تحف الشرف والاقبال، وإن أراد انتقالي فالأمر إليه جل جلاله وله جل جلاله في تدبير آمالي.

فإن دعيت أنا إلى لقاء الله جل جلاله، وتقدمت قبل الظهور، ولم تشملني عناية أهل الرجعة والحضور، فأوصيك ثم أوصيك ثم أُوصي من يلقاه من ذريتي وولدي وولد ولدي، وأُشهد الله جل جلاله عليكم وملائكته بهذه الوصية: أنكم إذا رأيتموه وتشرّفتم بتلك السعادة الربانية، وأذن لكم في الكلام بين يدي منزلته النبوية أن تقولوا:

«إن والدي علياً عبد الطاعة ومملوك الضراعة، يقبل ما يرضيك أن تقبله بين يديك، ويسأل تشريفه بالإذن في إبلاغ التسليم والصلوة عليك، ويضرع بين يديك في كل ما هو يحتاج أن يضرع في سؤاله، وفي كل ما أنت صلوات الله وسلامه عليك أهل أن تبلغه من آماله وإقباله، ويسأل من مراحمك ومكارمك قبول وصيته في هذا العبد المبلغ عنه القائم بين يديك، وأن يكون ممن يعز عليك ويبلغ ما هو

محتاج من الله جل جلاله ومنك إليه وإليك، صلوات الله وبركاته وتحياته وإقباله على آبائك الطاهرين وعليك»[١].

* * *

«ومما ينبغي أن تعرفه من سبيل أهل التوفيق وتعلمه فهو أبلغ في الظفر بالسلامة على التحقيق، وذلك أن تبدأ في قلبك عند صلاة الركعتين وعند الصدقة والدعاء بتقديم ذكر سلامة من يجب الاهتمام بسلامته قبل سلامتك، وهو الذي تعتقد أنه أمامك وسبب سعادتك في دنياك وآخرتك.

واعلم أنه عليه السلام غير محتاج إلى توصلك بصلاتك وصدقتك ودعائك في سلامته من شهره، لكن إذا نصرته جازاك الله جل جلاله بنصره وجعلك في حصن حريز، قال الله جل جلاله : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحَجّ: ٤٠].

ولأنّ من كمال الوفاء لنائب خاتم الأنبياء، أن تقدمه قبل نفسك في كل خير تقدر عليه، ودفع كل محذور أن يصل إليه، وكذا عادة كل إنسان مع من هو أعزّ من نفسه عليه.

ولأنّك إذا استفتحت أبواب القبول بطاعة الله جل جلاله والرسول يُرجى أن تفتح الأبوابُ لأجلهم، فتدخل أنت نفسك في ضيافة الدخول تحت ظلهم وعلى موائد فضلهم»[٢].

«إعلم أنه إذا كان يوم عيد الفطر فإن كان صاحب الحكم والأمر متصرفاً في مُلكه ورعاياه على الوجه الذي أعطاه مولاه فليكن مهنئاً له

(١) كشف المحجة ص ٢١٣.
(٢) الدروع الواقية ص ٣٢.

صلوات الله عليه بشرف إقبال الله جل جلاله عليه وتمام تمكينه من إحسانه إليه، ثم كن مهنئاً لنفسك ولمن يعز عليك وللدُّنيا وأهلها ولكل مسعود بإمامته بوجوده عليه السلام وسعوده وهدايته وفوائد دولته وإن كان من يعتقد وجوب طاعته ممنوعاً من التصرف في مقتضى رياسته فليكن عليك أثر المساواة والمواساة في الغضب مع الله جل جلاله مولاك ومولاه والغضب لأجله والتأسف على ما فات من فضله، فقد روينا بإسنادنا إلى أبي جعفر بن بابويه من كتاب من لا يحضره الفقيه وغيره بإسناده إلى حنان بن سدير عن عبد الله بن دينار عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: يا عبد الله ما من عيد للمسلمين أضحى ولا فطر إلا وهو يتجدد لآل محمد فيه حزن، قال قلت: ولِمَ؟ قال: «لأنهم يرون حقهم في يد غيرهم».

وأقول: لو أنك استحضرت كيف كانت تكون أعلام الإسلام بالعدل منشورة وأحكام الأنام بالفضل مشهورة والأموال في الله جل جلاله إلى سائر عباده مبذولة، والآمال ضاحكة مستبشرة مقبولة، والأمن شامل للقريب والبعيد، والنصر كامل للضعيف والذليل والوحيد، والدنيا قد أشرقت بشموس سعودها وانبسطت يد الإقبال في أغوارها ونجودها وظهر من حكم الله جل جلاله الباهر وسلطانه القاهر ما يبهج العقول والقُلوب سروراً ويملأ الآفاق ظهوراً ونوراً.

لكنت والله يا أخي قد تنغصت في عيدك الذي أنت مسرور بإقباله وعرفت ما فاتك من كرم الله جل جلاله وإفضاله وكان البُكاءُ والتلهف والتاسف أغلب عليك وأليق بك وأبلغ في الوفاء لمن يعز عليك وقد رفعت بك الآن ولم أشرح ما كان يمكن فيه إطلاق اللسان، وهذا

الذي ذكرناه على سبيل التنبيه والإشارة، لأن استيفاء شرح ما نريده يضيق عنه مبسوط العبارة.

واعلم أن الصفاء والوفاء لأصحاب الحقوق عند التفريق والبعاد أحسن من الصفاء والوفاء مع الحضور واجتماع الأجساد، فليكن الصفاء والوفاء شعار قلبك لمولاك وربك القادر على تفريج كربك»[1].

* * *

إذا كان هذا كله فضل الدعاء لإخوانك فكيف فضل الدعاء لسلطانك الذي كان سبب إمكانك وأنت تعتقد أن لولاه ما خلق الله نفسك ولا أحداً من المكلفين في زمانه وزمانك وأن اللطف بوجوده عليه السلام سبب لكل ما أنت وغيرك فيه، وسبب لكل خير تبلغون إليه، فإياك ثم إياك أن تقدم نفسك أو أحداً من الخلائق في الولاء والدعاء له بابلغ الإمكان واحضر قلبك ولسانك في الدعاء لذلك المولى العظيم الشأن، وإياك أن تعتقد أنني قلت هذا لأنه محتاج إلى دعائك، هيهات هيهات إن اعتقدت هذا فأنت مريض في اعتقادك وولائك، بل إنما قلت هذا لما عرفتك من حقه العظيم عليك وإحسانه الجسيم إليك ولأنك إذا دعوت له قبل الدعاء لنفسك ولمن يعزّ عليك كان أقرب إلى أن يفتح الله جل جلاله أبواب الإجابة بن يديك لأن أبواب قبول الدعوات قد غلقتها أيها العبد بإغلاق الجنايات، فإذا دعوت لهذا المولى الخاص عند مالك الأحياء والأموات يوشك أن يفتح أبواب الإجابة لأجله فتدخل أنت في

---

(١) الاقبال ص ٥٨٤.

الدعاء لنفسك ولمن تدعو له في زمرة فضله وتتسع رحمة الله جل جلاله لك وكرمه وعنايته بك لتعلقك في الدعاء بحبله.

ولا تقل: فما رأيت فلاناً وفلاناً من الذين تقتدي بهم من شيوخك بما أقول يعملون وما وجدتهم إلا وهم عن مولانا الذي أشرت إليه عليه السلام غافلون وله مهملون، فأقول لك: اعمل بما قلت لك فهو الحق الواضح، ومن أهمل مولانا وغفل عما ذكرت عنه فهو والله الغلط الفاضح»[1].

(١) فلاح السائل ص ٧٩.

أسرار المولد النبوي المبارك

فيما نذكره من ولادة سيدنا وجدّنا الأعظم محمد ﷺ رسول المالك الأرحم وما يفتح الله جل جلاله فيها علينا من حال معظم.

إعلم أن الحمل لسيدنا ومولانا رسول رب العالمين وولادته المقدسة العظيمة الشأن عند الملائكة والأنبياء والمرسلين عليهم السلام أجمعين ما يقوي قلبي ولا عقلي ولا لساني ولا قلمي ولا محلي أن أقدر على شرح فضل الله جل جلاله باختيارها وإظهار أنوارها لان سيدنا رسول الله ﷺ اشتملت ولادته الشريفة ورسالته المعظمة المنيفة على فضل من الله جل جلاله لا يبلغ وصفي إليه، فمن ذلك أنه كان ﷺ قد جاء بعد مائة ألف نبي، وأربعة وعشرين ألف نبي منهم من تضمن القرآن الشريف أنه اصطفاه وأسجدَ له ملائكته وجعله رسُولاً، ومنهم من اتخذه الله جل جلاله خليلاً، ومنهم من سخَّرَ الله جل جلاله له الجِبال يُسبِّحْنَ معهُ بالعشي والإشراق وبلغ به غايات من التمكين، ومنهم من آتاه من المُلكِ ما لم يؤت أحداً من العالمين، ومنهم من كلمهُ الله جل جلاله تكليماً ووهبه مقاماً جليلاً عظيماً، ومنهم من جعله الله جل جلاله روحاً من أمره ومكنه من إحياء الأموات وبالغ في علو قدره وغيرها وهؤلاء من الأنبياء والأوصياء وانقضت أيامهم وأحكامهم وشرائعهم وصنائعهم ولم يتفق

لأحد منهم أن يفتح من أبواب العلوم الدينية والدنيوية وأن يتيح من أسباب الآداب الإلهية والبشرية ما بلغ إليه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنه بلغ بأمته وبلغت أمته به صلى الله عليه وآله وسلم إلى حال يعجز الإمكان والزمان عن شرح ما جرت عُلومه وعلومهم منه عليه السلام وقد ملأوا أقطار المشارق والمغارب بالمعارف وذكر المواهب والمناقب.

ومنها: أن زمان تمكينه من هذه العلوم المبسوطة في البلاد والعباد كانت مدة يسيرة لا تقوم في العادة بهذا المراد إلا بآيات باهرة أو معجزات قاهرة من سلطان الدنيا والمعاد لأن مقامه صلى الله عليه وآله وسلم بمكة رسولاً مدة ثلاثة عشرة سنة كان ممنوعاً من التمكين ومدة مقامه بالمدينة وهي عشر سنين كان مشغولاً بالحروب للكافرين ومقاساة الضالين والمنافقين والجاهلين ولو أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان في هذه الثلاثة وعشرين سنة متفرّغاً لما بلغ حال علومه وهدايته إليه كان ذلك الزمان قليلاً في الإمكان بالنسبة إلى ما جرى من الفضل وبسط لسان العقل والنقل وكان ذلك من آيات الله جل جلاله العظيمة الشأن وآياته صلى الله عليه وآله وسلم التي تعجز عنها عبارة القلم واللسان.

ومنها: أنه صلى الله عليه وآله وسلم أحيى العقول والألباب وقد ماتت وصارت كالتراب وصار أصحابها كالدواب.

ومنها: أنه صلى الله عليه وآله وسلم نَصَر العقل بعد إحيائه وقد كان انكسر عسكره واستولت عليه يد أعدائه.

ومنها: أنه صلى الله عليه وآله وسلم زكى الأنبياء عليهم السلام على التفضيل في وقته القليل بما لم يبلغوا إلى تزكيتهم لله جل جلاله ولهم عليهم السلام في زمانهم الطويل.

ومنها: أنه ﷺ كشف من حال شرف مواضعهم وتحف شرائعهم وأسرارهم وأنوارهم ما لم يبلغ إليه المدون لنقل أخبارهم وآثارهم.

ومنها: أنه ﷺ شُرف بأنه خاتمهم وناظمهم وآخرهم في العيان وأوجلهم وأسبقهم في علو المكان.

ومنها: أنه ﷺ شرّف باثني عشر من مقدس ظهره، قائمون بأمره وسِرّه على منهج واحد كامل لابسين لخلعِ العصمة ومتوجين بتاج الكرامة والفضائل، منهم المهدي الذي ينادى باسمه من السماء وبلغ إلى ما لم يبلغ إليه أحد من الأنبياء، ولئن جحد بعض هذا أهل الخلاف لقلة مخالطتهم ومعرفتهم بما كانوا عليه عليهم السلام من الأوصاف فهيهات أن ينفعهم جحود أن علمهم عليهم السلام من غير إسناد معلوم وسبقهم إلى العلوم وفضلهم في المعقول والمنقول والمرسوم، وقد قلنا إننا ما نقدر على شرح فضائل مقدس تلك الولادة وما فيها من السعادة، واقتصرنا على ما ذكرناه ولئلا يبلغ الكتاب إلى حد يضجر من وقف على معناه»[1].

* * *

«فيما نذكره مما ينبغي أن يكون المسلمون عليه يوم ولادة النبي ﷺ إعلم أنني وجدت أن تعظيم كل زمان ينبغي أن يكون على قدر ما جعل فيه من الفوائد والإحسان، والمسلمون مطبقون ومتفقون أن محمداً ﷺ أعظم مولودٍ بل أعظم موجود من البشر في الدنيا وأرفع وأنفع من كل من انتفع من الخلائق بفعاله ومقاله، فينبغي أن يكون تعظيم يوم ولادته على قدر شرف نبوته ومنفعته وفائدته، وقد

(١) الاقبال ص ٧٩.

وجدت النصارى وجماعة من المسلمين يُعظّمون مولد عيسى عليه السلام تعظيماً لا يعظمون فيه أحداً من العالمين وتعجبت كيف قنع من يعظم ذلك المولد من أهل الإسلام كيف يقنعون أن يكون مولد نبيهم الذي هو أعظم من كل نبي دون مولد واحد من الأنبياء، إن هذا خلاف صواب الآراء، ولعله لو حصل لواحدٍ من العباد مولود بعد أن كان فاقداً للأولاد لوجد من السُّرور وتعظيم المولد المذكور أضعاف مولد سيد النبيين وأعظم الخلائق عند رب العالمين، وهذا خلاف صفات العارفين وبعيد من قواعد المسعودين وأهل اليقين.

فالله الله أيها العارف بالصواب والمحافظ على الآداب المراقب لمالك يوم الحساب أن يكون هذا يوم مولد خاتم الأنبياء عندك دون مولد أحدٍ أبداً في دار الفنا، وكن ذلك اليوم عارفاً ومعترفاً بفضل الله جل جلاله عليك وعلى سائر عباده وبلاده بالنعمة العظيمة بإنشاء هذا المولود المقدس وتعظيم ميلاده، وتقرّب إلى الله جل جلاله بالصدقات المبرورة وصلوات الشكر المذكورة والتهاني فيما بين أهل الإسلام وإظهار فضل هذا اليوم على الأيام حتى تعرفه قلوب الأطفال والنساء ويصير طبيعة لهم نافعة ورافعة في دار الإبتلاء ودار دوام البقاء، ولا تقتدِ بأهل الكسالة أو المهونين بأمر الجلالة أو الجاهلين لحقوق صاحب الرسالة، فإن الواصف لأمر ولا يقوم بتعظيم قدره، والمادح بشكر ولا يعلم بما مدحه من شكره ممن يكذبُ فعاله مقاله ويشهدُ عليه بالخسران والخذلان أعماله، فإن الله جل جلاله وَصَفَ المعترفين بلسان مقالهم المخالفين لما يقولونه ببيان أفعالهم أنهم كاذبون مفترون ومنافقون فقال جل جلاله ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا

نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

فهل ترى نفعهم إقرارهم للنبي ﷺ برسالته لما كانت قلوبهم وأعمالهم مكذبة لمقالهم في حقيقته وما أعتقد أنني أتمكن أن أشرح لك كيف تكون في ذلك اليوم عليه وهذا الذي قد كتبته ونبهت عليه هو المقدار الذي هداني الله جل جلاله الآن إليه»[1].

* * *

فيما نذكره مما يختم به يوم عيد مولد النبي سيدنا محمد رسول الله ﷺ مما يدلنا الله جل جلاله بالعقل والنقل عليه.

إعلم أنا قد ذكرنا عند أيام وأوقات معظمات كيف يكون الإنسان عليه عند خاتمتها من الصفات فإن ظفرت بشيءٍ منها فلا تُعرض عنها وزد عليها بقدر تعظيم هذه الولادة المقدسة المعظمة المقدمة عليها، فإذا كان أواخر نهار عيد ولادته فكن بين يدي الله جل جلاله على بساط مراقبته مُعترفاً له جل جلاله بالتقصير في معرف حق نعمته وفي القيام بطاعته سائلاً وآملاً أن يوفقك لما هو أفضل وأكمل مما أنت عليه مما يقربك إليه وتوجه إليه جل جلاله وتضرّع بين يديه بهذا المولود العزيز عليه في كل ما نحتاج إليه وتوجّه إلى هذا المولود العظيم المقام والكمال بلسان الحال بالله جل جلاله ذي الجلال والإفضال فيما يبلغه توفيقك وعناية الله جل جلاله بك وفيما لا يبلغه حالك مما يعلم الله جل جلاله أنه مصلحة لك، واجمع أطراف عملك بلسان الحال في ذلك اليوم العظيم، وسلّم إلى مقدّس حضرت

(١) المصدر نفسه ص ٩٦.

الرسول الرؤوف الرحيم وضعه بين يديه، وتوجه إليه بكل ما تقدر عليه في أن يتم بكماله نقصان أعمالك وخسران أحوالك وتعرضها بيد جلالتها وبقدرة نبوته ورأفته وشفاعته على كرم الله جل جلاله ورحمته على أنوار عظمته سبحانه وجلالته»[1].

(١) المصدر نفسه ص ٧١.

أسرار الهجرة النبوية الشريفة

ذكر ما قد فتحه الله علينا من أسرار هذه المهاجرة وما فيها من العجائب الباهرة.

منها: تعريف الله جل جلاله لعباده لو أراد قهر أعداء رسوله محمد ﷺ ما كان يحتاج إلى مهاجرته ليلاً على تلك المساترة وكان قادراً أن ينصره وهو بمكة من غير مخاطرة بآيات وعنايات باهرة، كما أنه كان قادراً أن ينصر عيسى بن مريم على اليهود بالآيات والعساكر والجنود، فلم تقتض الحكمة الإلهية إلا رفعه إلى السموات العلية ولم يكن له مصلحة في مقامه في الدنيا بالكلية، فليكن العبد راضياً بما يراه مولاه له من التدبير في القليل والكثير ولا يكن الله جل جلاله دون وكيل الإنسان في أموره الذي يرضى بتدبيره ولا دوُنَ جاريته أو زوجته في داره التي يثق إليها في تدبير إيثاره.

ومنها: التنبيه على أن الذي صحبه إلى الغار على ما تضمنه وصف صحبته في الأخبار لا يصلح في تلك الحادثات إلا للهرب ولأوقات الذُّل والخوف من الأخطار التي يصلح لها مثل النساء الضعيفات والغلمان الذين يصيحون في الطرقات عند الهرب من المخافات، وما كان يصلح للمقام بعده ليدفع عنه خطر الأعداء ولا أن يكون معه بسلاح ولا قوة لمنع شيء من البلاء.

ومنها: أن الطبري في تاريخه وأحمد بن حنبل رويا في كتابيهما أن هذا الرجل المشار إليه ما كان عارفاً بتوجه النبي صلى الله عليه وآله وأنه جاء إلى مولانا علي عليه السلام فسأله عنه فأخبره أنَّه توجه فتبعه بعد توجهه حتى ظفر به، وتأذى رسول الله صلى الله عليه وآله بالخوف منه لما تبعه وعثر بحجر فلق قدمه فقال الطبري في تاريخه ما هذا لفظه «فخرج أبو بكر مُسرعاً ولحق نبي الله صلى الله عليه وآله في الطريق فسمع جَرَسَ أبي بكر في ظلمة الليل فحسبه من المشركين فأسرع رسول الله صلى الله عليه وآله يمشي فقطع قبال نعله ففلق إبهامه حجر وكثر دمها فأسرع المشي فخاف أبو بكر أن يشق على رسول الله صلى الله عليه وآله حين أتاه فانطلقا ورجل رسول الله صلى الله عليه وآله تشر دماً حتى إنتهى إلى الغار مع الصبح فدخلاه وأصبح الذين كانوا يرصُدون رسول الله صلى الله عليه وآله فدخلوا الدار، فقام علي عليه السلام على فراشه فلما دنوا منه عرفوه، فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدري أو رقيباً كنتُ عليه؟! أمرتموه بالخروج فخرج، فانتهروه وضربُوه وأخرجُوه إلى المسجد فحبسُوهُ ساعة ثم تركوه ونجى رسول الله صلى الله عليه وآله».

أقول: وما كان حيث لقيه يتهيأ أن يتركه النبي صلى الله عليه وآله ويبعد منه خوفاً أن يلزمه أهل مكة فيخبرهم عنه وهو رجل جبان، فيؤخذ النبي صلى الله عليه وآله ويذهب الإسلام بكماله، لأن أبا بكر أراد الهرب من مكة ومفارقة النبي صلى الله عليه وآله قبل هجرته على ما ذكره الطبري في حديث الهجرة فقال ما هذا لفظه: «وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وآله في الهجرة ويقول له رسول الله صلى الله عليه وآله لا تعجل».

فإذا كان قد أراد المفارقة قبل طلب الكُفار له، فكيف يُؤمنُ منه الهرب بعد الطلب؟ وكان أخذه معه حيث أدركه من الضرورات التي

اقتضاها الاستظهار في حفظ النبي ﷺ وسلامة من كشف حاله لو تركه يرجع عنه في تلك الساعة وقد جرت العادة أن الهرب مقام تخويف يرغب في الموافقة عليه قلب الجبان الضعيف، ولا روي فيما علمت أن أبا بكر كان معه سلاح يدفع به عن النبي ﷺ ولا حمل معه شيئاً يحتاج إليه، وما أدري كيف اعتقد المخالفون أن لهذا الرجل فضيلة في الموافقة في الهرب وقد استأذنه مراراً أن يهرب ويترك النبي ﷺ في يد الأعداء الذين يتهددونه بالعطب، إن اعتقاد فضيلة لأبي بكر في هذا الذل من أعجب العجب.

ومنها: التكدير على النبي ﷺ بجزع صاحبه في الغار وقد كان يكفي النبي ﷺ تعلق خاطره المقدس بالسلامة من الكفار فزاده جزع صاحبه شغلاً في خاطره المقدس ولو لم يصحبه لاستراح من كدر جزعه واشتغال سرائره.

ومنها: أنه لو كان حزنه شفقةً على النبي ﷺ أو على ذهاب الإسلام ما كان قد نهى عنه، وفيه كشف أن حزنه كان مخالفاً لما يُراد منه.

ومنها: أن النبي ﷺ ما بقي يأمن إن لم يكن أُوحي إليه أنه لا خوف عليه أن يبلغ صاحبه من الجزع الذي ظهر عليه إلى أن يخرج من الغار ويخبر به الطالبين له من الأسرار، فصار معه كالمشغول ﷺ بحفظ نفسه من ذل صاحبه وضعفه، زيادة على ما كان مشغولاً ﷺ بحفظ نفسه.

ومن أسرار هذه المهاجرة أن مولانا علي عليه السلام بات على فراش المخاطرة وجاد بمهجته لمالك الدُّنيا والآخرة ولرسُوله ﷺ فاتح

أبواب النعم الباطنة والظاهرة ولولا ذلك المبيت واعتقاد الأعداء أن النائم على الفراش هو سيد الأنبياء وإلا ما كانوا صبروا عن طلبه إلى النهار حتى وَصَلَ إلى الغار وكانت سلامة صاحب الرسالة من قبل أهل الضلالة صادرة عن تدبير الله جل جلاله بمبيت مولانا علي عليه السلام في مكانه وآية باهرة لمولانا علي عليه السلام شاهدة بتعظيم شأنه، وأسفاً لأجل وصيه عليه أفضل السلام في الثبوت في ذلك المقام، وأنزل الله جل جلاله في مقدس قرآنه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٧] فأخبر أن سريرة مولانا علي عليه السلام كانت بيعاً لنفسه الشريفة وطلباً لمرضاة الله جل جلاله دون كل مراد، وقد ذكرنا في الطرائف من روى هذا الحديث من المخالف، ومباهاة الله جل جلاله تلك الليلة بجبرائيل وميكائيل في بيع مولانا علي عليه السلام بمهجته، وأنه سمح بما لم يسمح به خواصّ ملائكته.

ومنها: أن الله جل جلاله زاد مولانا علياً عليه السلام من القوة الإلهية والقدرة الربانية إلى أنه ما قنع له أن يفدي النبي صلى الله عليه وآله بنفسه الشريفة حتى أمره أن يكون مقيماً بعده في مكة مهاجراً للأعداء وأنه قد هربه منهم وستره بالمبيت على الفراش وغطاه عنهم، وهذا ما لا يحتمله قوة البشر إلا بآيات باهرة من واهب النفع ودافع الضرر.

ومنها: أن الله جل جلاله لم يقنع لمولانا علي عليه السلام بهذه الغاية الجليلة حتى زاده من المناقب الجميلة وجعله أهلاً أن يقيم ثلاثة أيام بمكة لحفظ عيال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وأن يسير بهم ظاهراً على رغم الأعداء، وهو وحيد من رجاله، ومن يُساعده على ما بلغ من المخاطرة إليه.

ومنها: أن هذا الاستسلام من مولانا علي عليه السلام للقتل وفديةً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أظهر مقاماً وأعظم تماماً من استسلام جده الذبيح اسماعيل لإبراهيم الخليل عليه وعليهما السلام، لأن ذلك استسلام لوالد شفيق يجوز معه أن يرحمه الله جل جلاله ويقيله من ذبح ولده، كما جرى الحال عليه من التوفيق ومولانا علي عليه السلام استسلم للأعداء الذين لا يرحمون ولا يرجون لمسامحة في البلاء.

ومنها: أن اسماعيل عليه السلام كان يجوّز أن الله جل جلاله يكرم أباه بأنه لا يجد للذبح ألماً، فإن الله تعالى قادر أن يجعله سهلاً رحمة لأبيه وتكرّماً، ومولانا علي عليه السلام استسلم للذين طبعهم القتل في الحال على الاستقصاء وترك الإبقاء والتعذيب إذا ظفر بما قدروا من الإبتلاء.

ومنها: أن ذبح إسماعيل بيد أبيه الخليل عليه السلام ما كان فيه شماتة ومغالبة ومقامرة من أهل العداوات وإنما هو شيء من الطاعات المقتفية للسعادات والعنايات، ومولانا علي عليه السلام كان قد خاطر بنفسه لشماتة الأعداء والفتك به بأبلغ غايات الاشتفاء والاعتداء والتمثيل بمهجته الشريفة والتعذيب له بكل إرادة من الكفار سخيفة.

ومنها: أن العادة قاضية وحاكمة أن زعيم العسكر إذا اختفى أو اندفع عن مقام الأخطار وانكسر علم القوة والاقتدار فإنه لا يكلف رعيته المتعلقون عليه أن يقفوا موقفاً قد فارقه زعيمهم وكان معذوراً في ترك الصبر عليه، ومولانا علي عليه السلام كُلِّفَ الصبر والثبات على مقامات قد اختفى فيها زعيمه الذي يعوّل عليه صلى الله عليه وآله وسلم وانكسر فيها علم القوة الذي تنظر عيون الجيش إليه، فوقف مولانا علي عليه السلام وزعيمه

غير حاضر، فهو موقف قاهر، وهذا فضل من الله جل جلاله لمولانا علي عليه السلام باهر وبمعجزات تخرق عقول ذوي الألباب وتكشف لك أنه القائم مقامه في الأسباب.

ومنها: أن فدية مولانا علي عليه السلام لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله كانت من أسباب التمكين من مهاجرته ومن كل ما جرى من السعادات والعنايات بنبوته، فيكون مولانا علي عليه السلام قد صار من أسباب التمكين من كل ما جرت حال الرسالة عليه ومشاركاً له في كل خير فعله النبي صلى الله عليه وآله وبلغ حاله إليه، وقد اقتصرت في ذكر أسرار المهاجرة الشريفة النبوية على هذه المقامات الدينية ولو أردتُ بالله جل جلاله أوردتُ مجلداً منفرداً في هذه الحال، ولكن هذا كافٍ شافٍ للمنصفين وأهل الإقبال»[1].

(١) الاقبال ص ٧١.

أسرار المبعث النبوي الشريف

فيما نذكره من تعظيم اليوم السابع والعشرين من رجب بالمعقول.

إعلم أن الرحمة التي نُشرت على العباد وبشّرت بسعادة الدنيا والمعاد بالإذن لسيد المرسلين ﷺ وعلى ذريته الطاهرين في أن يظهر رسالته عن رب العالمين إلى الخلائق أجمعين كانت السعادة بإشراق شموسها وتعظيمها وتقديمها على قدر ما أحيى الله جل جلاله بنبوته من موات الألباب وأظهر بقُدس رسالته من الآداب وفتح بهدايته من الأبواب إلى الصواب وذلك مقام يعجز عن بيانه منطق اللسان والقلم والكتاب ولا تحصيه الخواطر ولا تطلع على معانيه البصائر، ولا تعرف له عدداً ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وأنت إذا أنصفت علمت أن الأمم كانت تائهة في الضلال وقد أحاط بها استحقاق الاستئصال وقد كانت اليهود في قيود ضلالها لمخالفة موسى عليه السلام والنصارى هالكة بسوء مقالها في عيسى عليه السلام والعرب ومن تابعها سالكة سبيل الدواب والأنعام وفاقدة لفوائد الأحلام بعبادة الأصنام وبحر الغضب من الله جل جلاله قد أشرف

على أرواح أهل العدوان وأمواج العطب قد أحاطت بنفوس ذوي الطغيان ونيران العذاب قد تعلقت بالرقاب وسعت إلى الفتك بالأجساد، ورسل الإنتقام قد أشمتت بأهل الإلحاد والعناد وقلوب الأعداء والحساد وأهل الضلال ذوو عيون غير ناظرة وعقول غير حاضرة وقلوب غير باصرة وجوارح غير ناضرة وقد خذل بعض بعضاً بلسان الحال من شدة تلك الأهوال، فبعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم من مجلس الغضب والمقت والعذاب وإنكاله إلى الأمم المتعرضة لتعجيل العقاب واستئصاله، وهو واحد في العيان منفرد عن الإخوان والأعوان، يريد مقاتلة جميع من في الوجود من أهل الجحود، برأي قد احتوى على مسالك الأداء واستوى على ممالك الأقوياء، وجنان قد خضع له إمكان الأبطال، وبيان قد خشع له لسان أهل المقال والفعال، ونور قد رجعت جيوش الظلمات به مكسورة ورؤوس الجهالات بلهبه مقهورة، وقدم قد مشى على الرؤوس والنفوس، وهمم قد حكمت بإزالة الضرر والنحوس فسرى نسيم أرج ذلك التمكين والتلقين، وروّج حياة ذلك السبق للأولين والآخرين في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب بالعجب، وشرّف المنقلب واستشقته عقول كانت هامدة أو بائدة واستيقظت به قلوب كانت راقدة، وجرى شراب العافية بكأس آرائه العالية في أماكن اسقام الأنام، فطردها وأحاط بجيوش النحوس فشردها وتهدد نفوس العقول المتهجمة على الغفول فأبعدها حتى ألفها بعد الافتراق في الآفاق وعطفها على الوفاق والاتفاق وأجلسها على بساط الوداد والاتحاد وحماها عن مهاوي الهلكة والفساد، فما ظنك بمن هذا بعض أوصافه، ومن ذا

يقدر على شرح ما شرّفه الله جل جلاله به من ألطافه وبأي بيان أو لسان أو جنان يقدر على وصف مواهبه وإسعافه، ولقد دعونا العقل إلى الكشف فذهل، فدعونا القلب إلى الوصف فوجل، فدعونا اللسان إلى البيان فاستقال، فدعونا القلم إلى الإمكان فذل، وتزلزل، وزال، فدعونا الجوارح جارحة بعد جارحة فشردت عنا هاربة ونازحة فاستسلمنا لما يدل عليه لسان الحال من كمال ذلك الإقبال واستعنا بصاحب القوة المعظمة لذاته أن يُعرفنا قدر ذلك اليوم السعيد وجسيم هباته وصلاته وأن يعلمنا كيفية الشكر على ما عجزنا عن وصفه ويلهمنا كشف ما أقررنا بالقصور عن كشفه ويُقبل بنا على ما يريد من القبول وتعظيم المرسل والرسول»[1].

* * *

فيما بنيغي أن يكون المسلمون عليه في مبعث النبي ﷺ إليهم ومعرفة مقدار المنّة عليهم.

إعلم أننا قد أشرنا فيما قدمنا إشارة لطيفة أننا لا نقدر على وصف المِنّة علينا بهذه الرسالة الشريفة، ولكنا مكلفون بما نقدر عليه من تعظيم قدرها والاعتراف بإحسانها وبرّها، فنضرب لذلك بعض الأمثال ففيه تنبيه على تعظيم هذه الحال فنقول:

لو كان المسلمون قد أُصيب كل منهم بنحو خطر الكفر الذي كانوا عليه، فمنهم فريق قد أُلقي في النار وهي توقد عليهم وفريق قد افتضح بالعار ونودي عليه، وفريق في مطمورة غضب الله جل جلاله وانتقامه، وفريق في حبس مقت الله جل جلاله واصطلامه، وفريق قد

(١) الاقبال ص ١٧٨.

استحق عليه أخذ كلما في يديه، وفريق قد حكمت عليه الذنوبُ التي اشتملت عليه بالتفريق بينه وبين أولاده العزيزين عليه أو أحبته القريبين لديه، وفريق قد سقم عقله وقد أدنفه جهله، وفريق قد مرض قلبه وأحاط به ذنبه، وفريق قد ماتت أعضاؤه بإضاعة البضاعة التي كانت تحصل لها لو أطاعت، وفريق قد صارت أعضاؤه أعداء له بما أضاعته وبما تجنيه من المعاصي بحسب ما استطاعت، وفريق قد أظلمت عليه ظلم الجهالة حتى ما بقي يبصر ما بين يديه من الضلالة، وفريق أعمى ولا يدري مقدار عماه، وفريق قد أخرس ولا يدري أنه أخرس وقد صار لسانه مقيداً بسخط مولاه، وفريق أصمّ وهو لا يدري أنه أصم وهو لا يسمع دعاء من دعاه إلى الله جل جلاله وناداه والبلاء قد أحاط بالعباد والبلاد وضعف عن رفعه قوة أهل الاجتهاد.

فبعث الله جل جلاله رسولاً إلى هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات ليسلمهم من النكبات والآفات والعاهات، وليخلصهم من أخطارها ويطفي عنهم لهب نارها ويغسل عن وجوههم دنس عارها ويبلغ بهم من غايات السعادات ما كانوا قاصرين عنها وبعيدين منها فيما مضى من الأوقات، فينبغي أن يكون الاعتراف للمرسل والرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقدر هذا الإنعام الذي لا يبلغ وصفي إليه وأن يكونوا في هذا اليوم متباشرين وشاكرين وذاكرين لمناقبه وناشرين وباعثين إلى بين يديه من الهدايا التي كان هو أصلها وفرعها إلى كل من وصلت إليه بحسب ما يقدرون عليه.

فقوم يطهرون نبوته ودولته مما يشينها من المآثم والقبائح، وقوم يعظّمون رسالته بزيادة العمل الصالح، وقوم ينزهون سمعه الشريف أن

يبلغه عنهم، ما يبعده منهم، وقوم يكرمون نظره المقدس أن يطلع على ما يكره صدوره عنهم، وقوم يُصلون المندوبات ويهدونها إليه، وقوم يبالغون في الصلاة والثناء عليه، وقوم يذكرون الله جل جلاله بما يوقعهم له من الأذكار ويهدونها إلى باب رسولهم ﷺ الساكن بها في دار القرار، وقوم يتعبدون بحسب ما يقدرون ويهدون ذلك ويرون أنهم مقصرون ويكون هذا اليوم عند الجميع بحسب ما خلصهم به من كل أمر فظيع وبحسب ما اصطنع معهم من جليل الصيع ويختمونه بالتأسّف على فواته والتلهف، كيف لم يكن مستمراً لهم في سعاداته وطاعاته ويسألون العفو عن التقصير، ولو عملوا مهما عملوا ما قاموا وما عرفوا مقدار هذا اليوم العظيم الكبير»[1].

(١) الاقبال ص ١٨٦.

أسرار ولادة الزهراء ودفنها عليها السلام

إعلم أن يوم ولادة سيدتنا الزهراء البتول ابنة أفضل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو يوم عظيم الشأن من أعظم أيام أهل الإسلام والإيمان لأمور.

منها أن نسب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انقطع إلا منها.

ومنها: أن أئمة المسلمين والدعاة إلى رب العالمين من ذريتها وصادر عن مقدس ولادتها.

ومنها: أنها أفضل من كل إمرأة كانت أو تكون في الوجود، وهذا فضل عظيم السعود.

ومنها: أنها المُزوَّجة في السماء والمختصة بالطهارة والمباهلة، وهي المختارة من سائر النساء.

ومنها: أنها المُشرَّفة بنزول المائدة عليها من السماء، وهذا مقام عظيم من مقامات الأنبياء، فلولا طلب التخفيف لذكرنا غير ذلك من مناقبها ومحلها المنيف.

وقد صنف جماعة من أهل الوفاق والخلاف مجلدات في مناقب والدتنا المعظمة فاطمة شرّفها الله جل جلاله بعُلُو الدرجات وحيث قد ذكرنا يوم ولادتها الشريفة وصومه وبعض فضلها، فلنذكر زيارة لها ذكرها محمد بن علي الطرازي يؤمي الزائر بها إلى شرف محلها.

والظاهر أن ضريحها المقدس في بيتها المكمل بالآيات والمعجزات لأنها أوصت أن تدفن ليلاً ولا يُصلي عليها من كانت هاجرة لهم إلى حين الممات، وقد ذكر حديث دفنها وستره عن الصحابة البخاري ومسلم فيما شهدا أنه من صحيح الروايات.

ولو كان قد أُخرجت جنازتها الطاهرة إلى بقيع الغرقد أو بين الروضة والمنبر في المسجد ما كان يخفى آثار الحفر والعمارة عمن كان قد أراد كشف ذلك بأدنى إشارة، فاستمرار ستر حال ضريحها الكريم يدل على أنها ما أُخرجت من بيتها أو حجرة والدها الرؤوف الرحيم ويقتضي أن يكون دفنها في البيت الموصوف بالتعظيم كما قدمناه.

أقول: وقد فضح الله جل جلاله بدفنها ليلاً على وجه المساترة عيوب من أحوجها إلى ذلك الغضب الموافق لغضب جبار الجبابرة وغضب أبيها صلوات الله عليه صاحب المقامات الباهرة، إذ كان سخطها سخطه ورضاها رضاه، وقد نقل العلماء أن أباها صلى الله عليه وآله قال: «فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها».

ولقد انقطعت أعذار المعتذرين وحيلة المحتالين بدفنها ليلاً ودعواهم أن أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وعترته الطاهرين كانوا موافقين لمن تقدم عليهم من المتقدمين»[1].

---

(١) الاقبال ص ١١٠.

زيارة أمير المؤمنين عليه السلام

فيما نذكره من آيات رأيتها أنا عند ضريحه الشريف غير ما رويناه وسمعنا به من آياته التي يحتاج إلى مجلدات وتصانيف.

إعلم أن كل نذر يحمل إليه مذ ظهر مقدس قبره بعد هلاك بني أمية وإلى الآن فإن تصديق الله جل جلاله لأهل النذر كالآية والمعجزة والبُرهان على أن قبره الشريف بذلك المكان وهذه النذور لا يحصيها أحد من أهل الدهور، وأما أنا فأشهد بالله وفي الله جل جلاله أنني كنت يوماً قد ذكرت تاريخه في كتاب البشارات بين يدي ضريحه المقدس وأقسمت عليه في شيء وسألت جوابه باقي النهار وانفصلت فما استقررت بمشهده في الدار حتى عرفت في الحال من رآه في المنام بجواب ما شافهته به من الكلام.

أقول وأعرف أنني كنت يوماً وراء ظهر ضريحه الشريف وأخي الرضي محمد بن محمد بن محمد الآوي حاضر معي وأنا أُقسم على أمير المؤمنين عليه السلام في إذلال بعض من كان يتجرأ على الله وعلى رسوله وعلى مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام وعلينا بالأقوال والأعمال، فقلت للقاضي الآوي محمد بن محمد بن محمد: يا أخي قد وقع في خاطري أن قد حصل ما سألته وأن اليوم الثالث من هذا

اليوم يصل قاصد من عند القوم المذكورين بالذل والسؤال لنا على أضعف سؤال السائلين، فلمّا كان اليوم الثالث من يوم، قلت له: وصل قاصد من عندهم على فرس عاجل بمثل ما ذكرناه من الذل الهائل.

وأعرف أنني دخلت حضرته الشريفة كم مرة في أمور هائلة لي وتارة لأولادي وتارة لأهل ودادي فبعضها زالت وأنا بحضرته، وبعضها زالت باقي نهار مخاطبته، وبعضها زالت بعد أيام في جواب زيارته، ولو ذكرتها احتاجت إلى مجلد كبير.

وقد صنف ابن عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن عبد الرحمن الحسني مصنفاً في ذلك متضمناً للأسانيد والروايات لو أردنا تصنيف مثله وأمثاله كان ذلك أسهل المرادات ولكنا وجدنا من الآيات الباهرات ما يغني عن الروايات»[1].

(١) الاقبال ص ٧٨٥.

أسرار ولادة الإمام المهدي عليه السلام

فيما نذكره أن مولانا المهدي عليه السلام ممن أطبق أهل الصدق ممن يعتمد على قوله بأن النبي جده صلى الله عليه وآله بشّر الأمة بولادته وعظيم إنتفاع الإسلام برياسته ودولته، وذكر شرح كمالها وما يبلغ إليه حال جلالها إلى ما لم يظفر به نبي سابق ولا وصي لاحق، ولا بلغ إليه ملك سُليمان عليه السلام الذي حكم في ملكه على الإنس والجن، لأن سليمان عليه السلام لما قال ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥] ما قيل له قد أجبنا سؤالك في أننا لا نُعطي أحداً من بعدك أكثر منه في سبب من الأسباب إنما قال الله جل جلاله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٦-٣٨] والمُسلمون مجمعون على أن محمداً صلى الله عليه وآله سيد المرسلين وخاتم النبيين أُعطي من الفضل العظيم والمكان الجسيم ما لم يعط أحد من الأنبياء في الأزمان ولا سليمان.

ومن البيان على تفصيل منطق اللسان والبيان أن المهدي عليه السلام يأتي في أواخر الزمان وقد تهدمت أركان أديان الأنبياء، ودرست معالم مراسم الأوصياء، وطمست آثار أنوار الأولياء فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً وحكماً كما ملئت جوراً وجهلاً وظلماً، فبعث الله جل جلاله رسوله محمداً صلى الله عليه وآله ليجدّد سائر مراسم الأنبياء والمرسلين

ويحيي به معالم الصادقين من الأولين والآخرين ولم يبلغ أحد منهم عليهم السلام إلى أنه قام أحد منهم بجميع أمرهم بعدد رؤسه ويبلغ به ما يبلغ هو عليه السلام إليه وقد ذكره أبو نعيم الحافظ وغيره من رجال المحافظ وغيره من رجال المخالفين وذكر ابن المنادي في كتاب الملاحم وهو عندهم ثقة أمين وذكره أبو العلي الهمداني وله المقام المكين وذكرت شيعته من آيات ظهوره وانتظام أموره عن سيد المرسلين صلى الله عليه وآله ما لم يبلغ إليه أحد من العالمين، وذلك من جملة آيات خاتم النبيين وتصديق ما خصه الله جل جلاله إليه أنه من فضله في قوله جل جلاله ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣].

فينبغي أن يكون تعظيم هذه الليلة لأجل ولادته عند المُسلمين والمعترفين بحقوق إقامته على قدر ما ذكره جده محمد صلى الله عليه وآله وبشّر به المسعودين من أمته، كما لو كان المسلمون قد أظلمت عليهم أيام حياتهم وأشرفت عليهم جيوش أهل عداواتهم وأحاطت بهم نحوس خطيئاتهم، فأنشأ الله تعالى مولوداً يعتق رقابهم من رقّها، ويمكن كل يد مغلولة من حقها، ويعطي كل نفس ما تستحقه من سبقها، ويبسُط للخلائق في المشارق والمغارب بساطاً متساوي الأطراف مكمل الألطاف مجمل الأوصاف ويجلس الجميع عليه إجلاس الوالد الشفيق لأولاده العزيزين عليه أو إجلاس الملك الرحيم الكريم لمن تحت يديه ويريهم من مقدمات آيات المسرات وبشارات المبرات في دار السعادات الباقيات ما يشهد حاضرها لغائبها وتقود القلوب والأعناق إلى طاعة واهبها.

وليقم كل إنسان لله جل جلاله في هذه الليلة بقدر شكر ما منَّ

الله عزوجل عليه بهذا السلطان وأنه جعله من رعاياه والمذكورين في ديوان جنده والمسمين بالأعوان على تمهيد الإسلام والإيمان واستئصال الكفر والطغيان والعُدوان، ومد سرادقات السعادات على سائر الجهات من حيث تطلع شموس السموات، وإلى حيث تغترب إلى أقصى الغايات والنهايات، ويجعل من خدمته لله جل جلاله الذي لا يقوم الأجساد بمعانيها خدمةً لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان سبب هذه الولادة والسعادة وشرف رياستها وخدمة لآبائه الطاهرين الذين كانوا أصلاً لها وأعواناً على إقامة حُرمتها وخدمةً له صلوات الله عليه كما يجب على الرعية لمالك أزمتها والقيِّم لها باستقامتها وإدراك سعادتها، ولست أجد القوَّة البشرية قادر على القيام بهذه الحقوق المعظمة الرضية إلا بقوة من القدرة الربانية، فليقم كل عبد مسعود من العباد بما يبلغ إليه ما أنعم به عليه الله جل جلاله من القوة والاجتهاد»[1].

(١) الاقبال ص ٢١٧.

هدايا الأعمال للمعصومين عليهم السلام

يقول السيد رحمه الله: «لعلك لا تنشط لهذه الهدايا، إما أنك تقول: إنّ الهداة مستغنون عنها، أو لعلك تستكثرها لتكرارها في كل يوم فيميل طبعك إلى التفرّغ منها.

واعلم أن القوم عليهم السلام مستغنون عن هديتك، ولكن أنت غير مستغن عن الهدية إليهم وقرب مقولتك لديهم، كما أنّ الله جل جلاله مستغنٍ عن هذه الأحوال، فليكن في نيتك وسريرتك عند ابتداء الهدية لهذه الأعمال أن المنة لله جل جلاله ولهم عليهم السلام، كيف هداك الله جل جلاله وهدوك به جل جلاله إلى السعادة والأمان والخلود في كمال الإحسان ديار الرضوان: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]، وأنت كما قال بعض أهل البيان:

أهدى لمجلسه الكريم وإنّما
أهدى له ما خِرت من نعمائه
كالبحر يمطره السحاب وما له
منٌّ عليه لأنّه من مائه

وأما استكثارك لهديتك أو ميلك إلى تفرغك من الصلوة لتحصيل سعادتك، فاعلم أن هذه الهداية إلى الهدية إنما حصلت لك بطريق

عناية الله جل جلاله بأولئك الصفوة المرضية، وإخلاصهم في معاملة الجلالة الإلهية، وخاصة فإنك تقول: لولا حجج الله جل جلاله على العباد ما خلق الله جل جلاله أرضاً ولا سماءً ولا أحداً في البلاد، ولا ناراً ولا جنة للمعاد، ولا شيئاً من النعيم والإرفاد، فهل ترى أعمالك جميعها إلا في ميزان ما بهم وفي ديار رضوان ثوابهم، لأن إخلاصهم في العبادة كان بفضل الله جل جلاله عليهم سبب ما يبلغ إليه من السعادة، فإذا كان في الحساب ولو دار على مال ولو كنت تبلغه لولا عموم الكرم والأفضال، ولو كنت عارفاً بمقدار حق الله تعالى بهم وحقهم عليك بالله جل جلاله وما يضيع من حقوقهم بالليل والنهار، كنت قد رأيت ما تهديه يحتاج إلى إعتذار، وكنت قلت كقول بعض الاعتبار:

فإن يقبلوا منّى هدية قاصر
عددتُ لكم ذاك القبول من الفضل
وكان قبول عندكم فضل رحمة
يعزيها قلب الولى من الذل
ويوجب شكراً عنده لمقامكم
وفرض حقوق لا يقوم لها مثلي

وقال لي بعض أصحابنا: إني استصغر نفسي وعملي أن أهدي إليهم، فقلت له: إذا كنت لا تستصغر نفسك عن خدمة الله جل جلاله بحمده وساير خدمته، وهو أعظم من كلِّ عظيم، فلا معنى لاستصغار نفسك عن هدمة نوابه، لا سيما وقد رضوا هم خدمتك لهم»[1].

(١) جمال الاسبوع ص ٣٢.

الموت والآخرة

منازل العمر

إنَّ الشهور التي يأتي ذكر عبادتها، وشرح خيراتها هي كالمراحل والمنازل من حيث خرج الإنسان من بطن أُمه إلى أن يصل إلى إنقضاء أمر الدنيا الزائل، وفي كل منزل منها مُذ ارتضاه مولاه لتشريفه بتكليفه ذخائر وكنوز وجواهر بقدر ما تضمنه النقل والشرع الظاهر، والمسافة بعيدة إلى دار السعادة.

فمهما ظفر به المسافر من الذخائر فإنه ما يستغني عن الزيادة، فإن بين يدي المتشرف بالتكليف مقام طويل تحت التراب، لا يقدر فيه على خدمة سلطان الحساب وينقطع عنه شرف الوصلة بينه وبين مولاه أيام كان يخدمه، ويزداد من ذخائر رضاه ويفقد ذلك الأُنس الذي كان يجده من حضرة القدس ولذّة الخطاب والجواب وحلاوة مجالس العبد مع مالكه رب الأرباب، ويعدم ما كان يرتاح له ويحن إليه من التشوق الذي يجده المحب لمحبوبه إذا سافر للقدوم عليه، ويخلع عنه خِلَعَ العزة التي كان يقوى بها بمجاورة حياته وعقله وعناياته، ويؤخذ منه بالفناء تاج الدولة التي كان والياً عليها بطاعة مولاه ومراقباته، ويسلب كرامة الغنى وكثيراً من المنى بذهاب الاختيار الذي كان وهبه مالك رقة ويجد نفسه أسيراً بعد عتقه ويطوي صحائف عمل سعاداته الباقية ويعزل عن ديوان المعاملة للأبواب

الإلهية العالية، فأُذكِّرُ نفسي وغيري بفقدان هذه الساعات وأوصي باغتنام أوقات العنايات قبل حلول الحادثات ونوازل الملمات»[١].

* * *

إنَّ الشهور كالمراحل إلى الموت وما بعده من المنازل، وأن كل منزل ينزله العبد في دنياه في شهوره وأيامه فينبغي أن يكون محله على قدر ما يتفضل الله جل جلاله فيه من إكرامه وإنعامه، ومُذ فارقت أيها الناظر في كتابنا هذا شهر ربيع الأول الذي فيه كان مولد سيدنا رسول الله ﷺ وما ذكرناه فيه من الفضل المكمل لم نجد من المنازل المتشرفة بزيادة المكتسب أفضل من هذا شهر رجب لاشتماله على وقت إرسال الله جل جلاله رسوله محمداً ﷺ إلى عباده وإغاثة أهل بلاده بهدايته وإرشاده ولأجل حرماته التي يأتي ذكرها في روايات بركاته وخيراته فكن مقبلاً على مواسم هذا الشهر بعقلكَ وقلبِكَ ومعترفاً بالمراحم والمكارم المودعة فيك من ربك.

واملأ ظهور مطاياه من ذخائر طاعتك لمولاه ورضاه ومما يسرك أن تلقاه، واجتهد أن لا تبقى في المنزل الذي تعلم أنك راحل عنه ما تندم على تركه أولاً بذلك منه، فكلما أنت تاركه منهوب مسلوب وأنت مطلوب مغلوب وسائر عن قليل وراء مطايا أعمالك ونازل حيث حملت ما قدمت من قماشك ورحالك، فأُحذّر نفسي وإياك أن يكون المنقول من الذخائر ندماً وشرابه علقماً وعافيته سقماً.

فهل تجد أنك تقدر على إعادة المطايا إلى دار الرزايا تعيد عليك

---

(١) الاقبال ص ١٢.

ما مضى من حياتك وتستدرك ما فرطت فيه من طاعاتك ونقل مهماتك وسعاداتك، هيهات هيهات لقد كنت تسمعُ وأنت في الدنيا بلسان الحال تلهف النادمين وتأسف المفرطين وصارت الحجة عليك لرب العالمين، فاستظهر رحمك الله استظهار أهل الإمكان في الظفر بالأمان والرضوان، وسوف نذكر من طريق الأخبار طُرُقاً من العبادات والأسرار في الليل والنهار المقتضية لنعيم دار القرار، فلا تكن عن الخير نواماً ولا لنفسك يوم القيامة لوّاماً، وإذا لم نذكر اسناداً لها فسوف نذكر أحاديث مسندة عن الثقات أنه من بلغه أعمال صالحة وعمل بها فإنه يظفر بفضلها، وقد قدمناها في أول «المهمات» وإنما أعدناها ههنا في المراقبات. فمن ذلك أننا روينا بإسنادنا إلى أبي جعفر بن بابويه رضوان الله عليه من كتاب ثواب الأعمال فيما رواه بإسناده إلى الصادق عليه السلام أنه قال: «من بلغه شيء من الخير فعمل به كان له أجر ذلك وإن كان رسول الله صلى الله عليه وآله لم يقله».

ومن ذلك ما روينا بإسنادنا إلى محمد بن يعقوب الكليني رحمه الله من كتاب الكافي في باب من بلغه من الله تعالى على عمل وصنعه، فقال ما هذا لفظه علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «من سمع شيئاً من الثواب على شيء وصنعه كان له وإن لم يكن كما بلغه».

ووجدنا هذا الحديث في أصل هشام بن سالم رحمه الله عن الصادق عليه السلام ومن ذلك بإسنادنا أيضاً إلى محمد بن يعقوب فقال عن محمد بن يحيى عن محمد بن الحسين عن محمد بن سنان عن عمران الزعفراني عن محمد بن مروان قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول «من

بلغه ثواب من الله ﷻ على عمل فعمل ذلك العمل التماس ذلك الثواب أوتيه وإن لم يكن الحديث كما بلغه».

وهذا فضل من الله جل جلاله وكرم ما كان في الحساب أنك تعمل عملاً لم ينزله في الكتاب ولم يأمر الله جل جلاله رسوله أن يبلغه إليك فتسلم أن يكون حظر ذلك العمل عليك وتصير من سعادتك في دنياك وآخرتك، فاعلم أن هذا له مدخل في صفات الإسعاد والإرفاد، فكيف لا يكون من صفات رحمته وجوده لذاته ومن لا نهاية لهباته ومن لا ينقصه الإحسان ولا يزيده الحرمان ومن كلما وصل إلى أهل ملكته فهو زائد في مملكته وتعظيم دولته.

ولقد رويت ورأيت أخباراً لابن الفرات الوزير وغيره أنهم زور عليهم جماعة رقاعاً بالعطايا فعلموا أنها زور عليهم وأطلقوا ما وقع في التزوير، وهي من الأحاديث المشهورة عند الأعيان فلا أُطيل بذكرها في هذا المكان، وقد جاءت شريعتنا المعظمة بنحو هذه المساعي المكرمة وذاك أن حكم الشريعة المحمدية أنه لو التقى صف المسلمين في الحرب بصف الكافرين فتكلم واحد من أهل الإسلام كلمة اعتقدها كافر أنه قد أمنه بذلك الكلام لكان ذلك للكافر أماناً من القتل ودرعاً له من دروع السلامة والفضل، وقد تناصر ورود الروايات: «إدرءوا الحدود بالشبهات» فكن فيما نورده عاملاً على اليقين بالظفر ومعترفاً بحق محمد ﷺ سيد البشر»[1].

---

(١) الاقبال ص ١١٥.

السفر إلى الآخرة

«فإنني وجدت الإنسان مسافراً مذ خرج (من العدم) إلى الوجود في ظهور الآباء والجدود، وبطون الأمهات الحافظات للودائع والعهود، ووجدت الله جل جلاله قد تولى سلاحه من حفظه من النقم التي جرت على من سلف من الأمم وعامله بالكرم والنعم، حتى أوجب عليه من العبودية بما بلغه من المقامات الدنيوية والدينية، أن تكون حركاته وسكناته وأسفاره واختياره كلها بحسب الإرادة الإلهية، وإنه قد سيره ألوفاً من السنين وفي شهور الدهور، في سفر السلامة من المحذور، وعلى مطايا النجاة من فتك شر ذوي الشرور، وأطلقه في الأسفار إلى دار القرار، وجعل له قائداً وسائقاً من المواعظ الهاوية لذوي البصائر والأبصار، وعلم جل جلاله أن اتكاله على مجرد قدرة العبد وضعف اختياره يقتضي تكرار عثاره، فبعث له على لسان الأنبياء والأوصياء، من دروع الدعوات وحصون الصدقات، ما يكون أماناً له من المخافات في الطرقات»[1].

(١) الأمان ص ١٨.

الوصية

إعلم: أن العقل والنقل قضى أن كل من لا يعلم متى يموت، وهل يموت فجأة أو بأمراض متطاولة، فإنه تقتضي صفاته الكاملة أو الفاضلة أن يمتثل الأوامر النبوية في الاهتمام بالوصية، وأن لا يبيت ليلة واحدة - في حضر ولا سفر - إلا ووصيته بمهماته في حياته وبعد مماته مكتوبة، أو معروفة على أحسن القواعد المرضية.

وتتأكد الوصايا في الأسفار، لأجل أنه لا يؤمن بالسفر تجدد الأخطار، ويكون بعيداً عن العيال والمال، فلا يقدر أن يقول في السفر كل ما يريده من وصاياه، لجواز أن تكون وفاته بغتة، أو ليس عنده شهود، أو لا يكون معه من يطلعه على سرّه فيما يريد الوصية به من أمور دنياه وأُخراه، فلا يسعه في حكم عقله وفضله وسداده، أن يهمل عند السفر الوصية بأمور دنياه ومعاده»[1].

---

(١) الأمان ص ٣١.

الموت

الموت هول هائل وخطب شامل يهدم اللذات ويفرّق الجماعات ويهجم بالشتات، ويحول بين العبد وبين لذة البقاء وبين أنسه بالأحباء ويقطع حبال الآمال، ويمنع من نفع الأهل والأموال.

هذا بعض حاله مع الجاهلين بأهواله، وأما العارفون بإخطاره والمطلعون على أسراره فإنه يفرّق بينهم وبين الاستعداد للمعاد ويمنعهم من استدراك ما فرّطوا فيه في دار النفاد ويفقرهم من غنى الإمكان، ويحملهم في أسر الخجل والخذلان ويحجبهم بالردّ والحرمان، إذا قال قائل «إرجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت»، فيقال: «كلا» وكان قبل ذلك يقال لهم لو عملوا الصالحات: مرحباً وأهلاً، ويقذف بهم في مطمورة الوحدة والانفراد ووحشة تفرّق الأحشاء والأجساد وأهوال سؤال منكر ونكير واستحضار أخطار ما أسلفوا من ذنب صغير أو كبير وأوائل زلازل تهديد ووعيد وفتح باب إلى عذاب شديد.

فما أشبه حال الموت بما وصفه المولى الآمن من خطر الموت مولانا علي عليه السلام حيث قال: «لم أر يقيناً لا شك فيه صار كشك لا يقين فيه كالموت».

ولولا خوف التطويل ذكرت شيئاً عظيماً في ذلك من الشرح والتفصيل واعرف قوماً أنجاداً أمجاداً أفراداً كان الموت على ممن مضى منهم سعادة ورحمة، ويكون الموت على من بقي منهم زيادة ونعمة، فما أشوقهم إلى انقضاء أيام دار الزوال وما أعرفهم بوجوه الإقبال وما أسعفهم بصفات الكمال، وما أخوفهم من المقام في الدنيا حذراً من نقصان الأعمال والأحوال، كوشفوا بجلالة مولاهم وعرفوا أنه جل جلاله يراهم، فأرواحهم وعقولهم وقلوبهم ونفوسهم مشغولة به لذاته، قد بهرهم مقدس ذاته وشرف صفاته، ويخدمون خدمة جهد المستطيع ويندبون ويبكون ندب من لم يزل في التفريط والتضييع، عرفهم ما أراد من كنه جلاله وعظمة إقباله فشغلهم بجلالته وهيبته وحرمته ومراحمه ومكارمه ونعمته عن حظوظ أنفسهم منه.

وما بقي لهم قلب ولا جنان ولا لسان ولا إمكان تصرف فيما يبعدهم عنه، تقيدت الجوارح بقيود الحضور في خدمة المعبود، وتولهت العقول وتتيهت بهول ذلك الوجود والجود، فعظمته جل جلاله لهم ذاهلة ورحمته جل جلاله الكاملة لهم شاغلة، إذ كل منهما يملك قلوب العارفين ويشغل عقول المكاشفين.

ولكن أولئك لا يُعْرفون إن وجدوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، وما أعني أن أسماءهم ووجوههم غير معروفة، بل الوجوه والأسماء موصوفة وأسرارهم وأسرار مولاهم عندهم غير مكشوفة، ولا تعجب إذا قيل لكم أنهم لا يُعرفون وهم منظورون، لأن سيدهم ومن هو أعظم كمالاً وجلالاً منهم قال الله جل جلاله عنه: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

وإنما نرتب حديث الموت وغسل الأموات على الغالب من أحوال أهل الغفلات الذين يهدم الموت عليهم ما يحبونه من الأعمار ويخرّب ما ألفوه من عمارة الديار ويزعجهم عن القرار.

فالعاقل من اهتم غاية الاهتمام بالتأهب لتزلزل الاقدام وعمل ما يوصي به المفرطون، فإنه إذا فرط في نفسه فالأوصياء في التفريط إذاً معذورون.

فمثاله مثال عبد أدخله مولاه حضرته، ومكّنه أن يسأل مهما شاء فيعجل أجابته أو يعمل كل عمل صالح فيضاعف كرامته، فشرع ذلك العبد يفتش زوايا المجلس ويسأل من هناك من الغلمان ويلتمس رقعة يكتب فيها وصية يسندها إلى بعض من هناك من أتباع السلطان إذا أخرجه مولاه من حضرة الإمكان وغلق الباب بينه وبينه وصار في ذل الهوان وتكون وصيته فيما أن يقدر أن يقضيه من مولاه في حال حضوره بين يديه أما يسفهه ويجهله ويعدمه كل من يعرف حاله ويزري عليه.

فكذا حال من مكنه الله جل جلال في حال حياته من مناجاته وعباداته وقضاء حاجاته، وأهمل وأغفل وصار يريد الوصية إذا أخرجه مولاه من حضرة الحياة، وأخرجه بالذل والهوان في أسر الوفاة وغلق الباب بينه وبين القبول، إما يكون سفيهاً أو معدماً أو مجهلاً أو ملوماً عند أهل العقول.

فإذا لم يقبل العبد نصيحة من يحثه على الاستظهار واستمر على الغفلة والإصرار، فالواجب عليه تعجيل ما يمكن تعجيله عند ضيق الخناق وقرب الموت واليقين بالفراق، وأما ما يضيق الوقت عن

تعجيله من استدراك أحواله أو ما يحتاج إليه للنظر في أمر أطفاله أو عياله أو أمواله فليوص الوصية الكاملة بالكتاب والشهود ويبدأ فيها بالأهم فالأهم مما يحتاج إليه لليوم الموعود فيبدأ بتجهيزه إلى الله جل جلاله على التمام وإن كان حاله يضيق عن ذلك المرام فيجتهد بحسب الإمكان.

ثم يرد المظالم إن أمكن أو باستحلالها من أصحابها كيف كان أو بالوصية إلى الأخوان في إبراء ذمته من الحقوق الواجبة المندوبة أو الإيثار ووجوه المبار وبقضاء الديون وأداء الحقوق والفروض والقيام عنه بكل ما يتهيأ النيابة فيه من المفروض كما رتبناه في رد المظالم واستدراك الجرائم.

ولينظر في أمور عياله وأمواله وليكن وصيته حقيقة ومعنى إلى الله جل جلاله ويتخذه وكيلاً فكفى به قيّما ببلوغ آماله، ثم يسندها صورة وظاهراً إلى من عرف منه في أيام حياته مراقبة لله جل جلاله في مقاله وفعاله، فإن تعذّر ذلك فيسندها إلى من عرف أو يرجو منه أن يكون من أهل المرّوات وذوي البيوتات ممن لم يعرف له التهوين بالأموات ولا الإضاعة لأهل المودات، فإن تعذّر ذلك فيسندها إلى أهل الثروة واليسار وذوي الحياء مع القوة والاقتدار، فإن تعذّر ذلك فيسندها كما قلناه إلى الله جل جلاله بالتفويض إليه والتوكل عليه، فإنه إن صدق تفويضه وتوكله أقام الله جل جلاله من يقوم بعده في عياله وأمواله أكمل مما يؤمله، وإن لم يكن حاله في حسن الظن بالله جل جلاله واليقين قد بلغ إلى هذا المقام المكين، فيسند وصيته إلى أقرب من يرجو منه حصول القيام من أهل الذمام والاهتمام.

ومن صفات العارفين إذا كان لأحدهم ما يبقى بعده للوارثين أنهم يراعون قلوبهم وعقولهم، فإن وجدوها تترك ما يتركونه من التركات خدمة لله جل جلال وامتثالاً لأمره الشريف في معونة من يصل إليه من الوراث وأهل الوصيات بادروا إلى ذلك على هذه النية الصادقة وكانوا كأنهم قد أنفقوها لله جل جلاله أيام حياتهم الفانية وهؤلاء ما تركوا تركة في التحقيق وإنما حملوها معهم زاداً لبعد الطريق، وجعلوها من الوسائل إلى نجاح المسائل في القرب من المالك الرحيم الشفيق.

وإن لم يجدوا قلوبهم وعقولهم موافقة على هذا الإخلاص في ترك تركاتهم، وأنها إنما يترك ذلك بالطبع لئلا يرى الناس أولادهم ووراثهم في ذل ضروراتهم ولئلا يشمت بهم شامت من العباد أو لغير ذلك من الخواطر التي لا يكون المراد بها عبادة مالك يوم المعاد فإنهم عند هذه الحال يحملون أنفسهم قبل الوفاة على إخراجها في الصدقات والقربات وتحصيل صفات الكمال قبل الممات ولا يقنعون أن يتركوها ضائعة بعدهم بغير نيّة القربات»[1].

(١) فلاح السائل ص ١٠٨.

اعداد الكفن

ولو لم يكن إلا أنه هو الملبوس الذي يجتمع فيه شمله بمولاه على ما يرجوه من السلامة في دنياه والسعادة بأخراه، وكل مملوك فأنه يتجمل في الملبوس عند جمع شمله بمالكه فينبغي تجميل هذا العبد لسيده الذي يرجوه لتخليصه من سائر مهالكه وهو أعز الأثواب وأحلاها وألذها وأعلاها وأشرفها وإسناها عند العارفين بمعناها وعند المسعودين بإقبال الجلالة الإلهية والظافرين برضاها.

وقد كنت أحرمت في نصيفين من قطن بيضاوين ووقفت بهما في موقف عرفات وكان يوم جمعة وتهيئاً الوقوف على صفات المناجاة من بعد صلاة الظهرين حين وقت الوقوف إلى بعد غروب الشمس على ما فتحه علينا جود المالك الرؤف، فلما قضيت الحج فيهما نشرتهما وبسطتهما على الكعبة الشريفة وأركانها المعظمة المنيعة وعلى الحجر الأسود المكرم وجعلت ذلك كالحسب والسبب إلى رحمة المالك الأرحم الأكرم.

ثم لما قدمت المدينة النبوية بسطتهما بطناً وظهراً على الحجرة الميمونة المحمدية وجعلت ذلك كالحسب والسبب إلى شفاعة ذلك المولى الجدّ المقدّم على كل رسول وإلى أن أبلغ به ومنه نهايات المأمول.

ثم مضيت إلى الأئمة الأطهار بالبقيع فصنعت مثل ذلك الصنيع وجعلت ذلك كالحسب والسبب للسلامة من يوم الهائل الفظيع، ولما وصلت إلى مشهد مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بسطتهما بطناً وظهراً لذلك على ضريح ذلك الوالد الأبر سيد الأوصياء إلى أن أبلغ منه نهايات الرجاء.

ثم حملتهما صحبتي إلى مشهد مولانا الحسين عليه السلام فبسطتهما بطناً وظهراً على ضريحه وجعلت ذلك كالحسب والسبب عنده إلى كل ما يبلغ الأمل إليه.

ثم صنعت بهما كذلك في ضريحي مولانا الكاظم مولانا الجواد وضريحي مولانا الهادي ومولانا الحسن العسكري ومحل غيبة مولانا المهدي صلوات الله جل جلاله عليهم أجمعين وجعلت ذلك كالحسب والسبب إلى شفاعتهم ورضا مالك يوم الدين وفصلته وهيأته وهو عندي ومن قلبي في أعز مكان وأرجو أن يكون اجتماع شملي فيه بمولاي الحليم الرحيم صاحب الإحسان وأدخل به دار الرضوان حتى يخلع الله جل جلاله على مملوكه ما يقتضيه رحمته وجوده من خلع الحب والقرب والقبول ويشرّفه بما يراه ويرضاه له عند القدوم والوصول إن شاء الله تعالى.

ولا يقال: إن الكفن ما روي عن الأئمة عليهم أفضل السلام أنه يهيأ قبل الممات، بل ذلك موجود في الروايات وأنه يستحب إذا هيأ قبل مماته أن ينظر إليه كل وقت في حياته.

وأنا أخرج كفني وأنظره في كل وقت استصوب النظر إليه وكأنني أشاهد عرضي على الله جل جلاله وأنا لابسه وقائم بين يديه.

ورأيت في كتاب الملحق بتاريخ الطبري تأليف أحمد بن كامل بن شجرة في حوادث سنة عشرة وثلاثمائة ما هذا لفظه في وقت المغرب في عشية يوم الأحد ليومين بقيا من شوال توفي بها أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري الفقيه وقد أضحى النهار من يوم الاثنين غد ذلك اليوم في داره برحبة يعقوب وكفن في ثلاثة أثواب حبره أدرج فيها أدراجاً وكان قد أعدّها لنفسه في حياته واستجاده ثم ذكر في مدحه عليه شيئاً عظيماً»[١].

(١) فلاح السائل ص ١٢١.

اعداد القبر

وقد كنت مضيت بنفسي وأشرت إلى من حفر لي قبراً كما اخترته في جوار جدي ومولاي علي بن أبي طالب عليه السلام متضيفاً ومستجيراً ورافداً وسائلاً وآملاً متوسلاً بكل ما توسل به أحد من الخلائق إليه وجعلته تحت قدمي والدي رضوان الله جل جلاله عليهما، لأني وجدت الله جل جلاله يأمرني بخفض الجناح لهما ويوصيني بالإحسان إليهما، فأردت أن يكون رأسي مهما بقيت في القبور تحت قدميهما.

ولا يقال: فهل سبق أحد من العارفين إلى تهيئة قبره قبل الممات؟

فأقول: قد ورد ذلك في كثير من الروايات، فمنها ما ذكره جدي السعيد أبو جعفر الطوسي رضي الله عنه وغيره في كتاب الغيبة قال: حدثنا ابن نوح، قال أخبرني أبو نصر هبة الله بن محمد، قال حدثني علي بن أبي جيد القمي رحمه الله قال حدثنا أبو الحسن علي بن أحمد الدلال القمي، قال دخلت على أبي جعفر محمد بن عثمان يعني وكيل مولانا المهدي عليه السلام لأُسلم عليه فوجدته وبين يديه ساجة ونقاش ينقش عليها ويكتب عليها آياً من القرآن وأسماء الأئمة عليهم السلام على جوانبها، فقلت له: يا سيدي ما هذه الساجة؟ فقال لي: هذه لقبري تكون فيه

أوضع عليها أو قال أسند إليها، وقد فرغت منه وأنا كل يوم أنزل إليه وأقرأ أجزاء من القرآن فيه وأصعد وأظنه قال: وأخذ بيدي وأرانيه فإذا كان من يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا من سنة كذا صرت إلى الله تعالى ودفنت فيه، وهذه الساجة معه، فلما خرجت من عنده أثبت ما ذكره ولم أزل مترقباً ذلك، فما تأخر الأمر حتى اعتل أبو جعفر فمات في اليوم الذي ذكره من الشهر الذي قاله من السنة التي ذكرها ودفن فيه».

ورأيت في كتاب الاستيعاب في الجزء الرابع أن سفيان بن الحرث بن عبد المطلب حفر قبره قبل أن يموت بثلاثة ايام وكان أخا رسول الله ﷺ من الرضاعة، وذكر محمد بن معد في الجزء السابع من كتاب الطبقات حفر أبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب في حياته.

أقول: وكان جدي ورّام بن أبي فراس قدس الله روحه - وهو من يقتدى بفعله - قد أوصى أن يجعل في فمه بعد وفاته فصّ عقيق عليه أسماء أئمته عليهم السلام فنقشت أنا فصّاً عقيقاً عليه «الله ربي ومحمد نبيي وعلي إمامي وسميت الأئمة عليهم السلام إلى آخرهم أئمتي ووسيلتي» وأوصيت أن يجعل في فمي بعد الموت ليكون جواب الملكين عند المساءلة في القبر إن شاء الله تعالى.

أقول ورأيت في كتاب ربيع الأبرار للزمخشري في باب اللباس والحلي عن بعض الأموات أنه كتب على فص شهادة أن لا إله إلا الله وأوصى أن يجعل في فمه عند موته.

فإذا هيّأ الإنسان جميع مهماته وفرغ من مصالحه لحياته وبعد وفاته وحضره رسول رب العالمين بالانتقال، فينبغي أن يفرح ويستبشر

بهذه الحال، فإن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه.

فلا يغترّ بمن يقول أنا نكره الموت لأجل أننا لو بقينا زدنا في صالح الأعمال، فإنه لو كان هذا مرادنا بكراهة الموت والانتقال كان من أصلح أعمالنا والمعقول أن نمتثل أمر الله جل جلاله على لسان ملك الموت ونتلقاه بالقبول ولا نعارض الله جل جلاله ولا نرى تدبيرنا واختيارنا خيراً لأنفسنا من تدبيره فإن العبد ليس له معارضة مولاه في كثير أمره ويسيره.

ولا يغرّنك من يقول أنا نكره الموت لأجل أن لنا سيئات فنحب البقاء حتى نستدركها قبل الممات، فإن هذا من خدائع الشيطان، وإلا فأنت أيها الكاره في وقت الإمكان فاستدرك ما تقدر عليه في الحال وما تعتجز عنه فإن الله جل جلاله يعذرك ويقبل التوبة ولا تجمع بين المخالفة له جل جلاله أولاً وآخراً بكراهة القبول منه في الانتقال.

ولا يغرنك من يقول إننا آخربنا الآخرة وعمرنا الدنيا فنحن نكره الانتقال من العمران إلى الخراب، فإن هذا كله من غلط ذوي الألباب وإلا فأنت أيها الكاره قادر الآن بالتوبة والندامة على السلامة من خطر يوم القيامة وعلى عمارة دار المقامة، وإياك ومتابعة الغافلين فإن سيد المرسلين إنما طعن على دعوى اليهود بأن قال لهم «فتمنوا الموت إن كنتم صادقين» فإذا كنتم أيها المسلمون الغافلون أيضاً للموت كارهين فقد انقلب سؤال الرسول ﷺ وصرتم محجوجين بما احتج به على أعداء الدين»[1].

---

(١) فلاح السائل ص ١٢٧.

العزاء

ومما يقال في العزاء أن الله جل جلاله قد بذل على الصبر والرضا بالمصائب ما هو أعظم من بقاء الأحياء، فالعاقل يرغب في أرجح المواهب والمناقب فقال جل جلاله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

وكفى في التعزية عند العارفين أنه من تدبير أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين الذي لا يتهم في تدبيره وشفقته على المحسنين ولا على المسيئين، ولعل لو كشف لأهل الأموات ما في باطن ذلك من المصالح والسعادات لسأل الميت ولسأل أيضاً أهله تعجيل الحادثات على كل حال ولكان إذا لم يمت وتأخر تلك المصالح والعنايات يبكون أبلغ مما بكوا عليه عند الممات.

والمهم عند ذوي الألباب موت القلوب وموت صفة من صفات كمال الإنسان، وأما موت الأبدان ونقلها من دار تقلب الأزمان فذلك سعادة وزيادة مع سلامة الأديان»[1].

* * *

(١) فلاح السائل ص ١٤٢.

«كن من أهل الوفاء ولا تهوّن بالأموات حيث قد انقطع بينك وبينهم حبل الرجاء، وتذكر أن الله جل جلاله قد بذل لك سبحانه من العطاء على الوفاء أضعاف ما كنت تؤمل وأضعاف ما كان بينك وبينه من الأحياء فإن هوّنت ببذله ورفده فلعلك ما تصدق بقوله ووعده»[1].

(١) المصدر نفسه ص ١٤٩.

بين النوم والموت

فاعلم أن النوم موت اليقظة ووفاة الجوارح عن حياة الاستقامة، قال الله جل جلاله فيه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

فجعل جل جلاله النوم وفاة واليقظة بعثاً وحياة وقد عرفت أن النائم يصير كالأعمى والأصم والأخرس والزمن والمرطوب ويضيع منه عقله وفوائده ما كان يعامل به مولاه علام الغيوب وكأنه إذا نام فقد ضيع عياله وأمواله وحوائجه وضروراته وما يدري ما يجري عليها وما بقي له قدرة على حفظ نفسه ولا حفظ شيء من مهماته التي أشرنا إليها ولو كان قد أحرزها بالأقفال والرجال فإنه إذا نام أمكن فيها وقوع خلاف ما يريد على كل حال.

فإذا نمت كأنك أصبت بمصائب هائلة ووقعت في نكبات ذاهلة، وما يقدر على جمع شملك باليقظة وسلامة جوارحك وكمال حياتك ورد سمعك وبصرك ولسانك وعقلك وسائر ما تشعث بالنوم من مراداتك إلا الله جل جلاله وتقدس كماله، فتب بين يديه توبة صريحة من كل تقصير كنت قبل النوم عليه.

فإن لم توافقك نفسك وعقلك وقلبك لقلة معرفتك بمولاك الذي

يراك على التوبة بالتحقيق، فأطلب من رحمته وجوده العفو فإنه جل جلاله أهل أن يتفضل بذلك على عوائد المالك الحليم الرحيم الشفيق، فإن لم تطلب العفو أيضاً على عادة النجاة المذنبين عند أعظم المالكين القاهرَين فاستسلم استسلام المسكين المستكين وسلّم دينك ونفسك ومالك وعيالك وآمالك وكلما تحتاج إليه إلى حفظ ذلك الرحيم الحليم الكريم الذي قد طالت جرأتك عليه وسوء أدبك بين يديه، وليكن في سريرتك أن الذي أودعته من كل ما وهبك إياه فإنه ملكه على التحقيق وأنت مستعير ومستودع فلا تنازعه في ملكه لخاطر ولا قلب فتصير شريكاً فتهلك بذلك ويفوتك رضاه فإنك إذا قبلت وصيتي وتبت أو طلبت العفو أو استسلمت كما ذكرناه وأودعت كما شرحناه كان هو الحافظ والحامي والخفير ولم يدخل عليك داخل في قليل ولا كثير ولا صغير ولا كبر.

رأيت في الأخبار ما معناه أن رجلاً قال: رأيت على ظهر ضفدع عقرباً غريبة الجنس وهو عابر بها في نيل مصر من جانب إلى الجانب الذي كنت فيه، فلما وصل بها طرف الماء نزلت العقرب على الأرض فتبعتها وقلت في نفسي إن لهذه العقرب شأناً، وإذا قد جاءت إلى أصل شجرة فصعدت حتى جاءت إلى غصن قد تدلى على وجه شاب نائم تحت الشجرة فضربت تلك العقرب ذنب حية ضربة وقعت الحية ميتة فاستعظمت ذلك وجئت إلى الشاب فأيقظته وقلت أنظر إلى ما قد سلمك الله منه وأنشدته:

يا نائماً والجليل يحرسه ... مما يلاقي في حندس الظلم
كيف تنام العيون عن ملك ... تأتيك منه فوائد النعم

ولقد رأيت في كتاب الياقوت الأحمر تأليف أحمد بنن الحسن الأهوازي ما هذا لفظه قال: وسمعت أن بعض وصفاء الأكاسرة قال: «ما نام كسرى قط إلا وقبل نومه سجد لله ﷻ ويسأله أن يحييه بعد ما يميته» يعني بالموت النوم وبالحياة الانتباه.

أقول أنا: فهذا إذا كان صفة ملك مشغول عن الله وغير عارف به جل جلاله كمعرفتك، يعامل الله أحسن من معاملتك، فما عذرك في غفلتك عن مالك دنياك وآخرتك.

قلت: ولو قدرنا دخل عليك داخل في حال منامك إذا عملت ما قدّمناه وذهب منك بعض ما في يديك فلعل ذلك يكون ليريك الله جل جلاله آياته في رد ذلك عليك كما رويناه في بعض آيات المتوكلين على مالك يوم الدين قال ما معناه: أن أعرابياً جاء إلى باب المسجد الحرام فترك ناقته وقال ما معناه «اللهم هذه الناقة وما عليها في حفظك ووديعتك» ودخل وطاف وخرج فلم يجد الناقة فوقف يقول ما معناه «يا رب ما سرق مني شيء وإنما سرق منك لأنني لولا ثقتي أنك تحفظ علي ناقتي ورحلي ما تركتها» ويكرر أمثال هذا والناس يتعجبون من حديثه مع الله ﷻ وإذا الناقة زمامها بيد رجل ويده الاخرى مقطوعة وقال للأعرابي خذ ناقتك ما أصبت منها خيراً قال: كيف، قال: تواريت بها وراء الجبل فإذا فارس قد نزل لا أدري من أين وصل فأزعجني وقطع يدي وأمرني بإعادتها.

قلت أنا وأعرف أنني أبداً ما أودعت الله جل جلاله شيئاً فضاع، ولو كان قد ضاع شيء مما أودعته لأجل ذنب يكون قد جنيته فإنني،

إذا طلبت من رحمته إعادة وديعته ردّها علي وما يخجلني ولا يقف مع الذنب الذي اقتضي ضياعها من حرز رعايته.

ولقد توجهت الحج سنة سبع وعشرين وستمئة وأودعت كلما صحبني في حفظ حياطة المراحم الإلهية فسقط سوط لوز مر كان معي مشدوداً في الكجاوة ونحن نسير ليلاً فلما نزلنا ضاحي النهار فقدت السوط فقلت لرجل علوي صديق كان معنا يقال له علي بن الزكي رَحِمَهُ اللَّهُ قد سقط السوط فأطلبه فتعجب من قولي اطلبه وقال كيف أطلب سوطاً قد سقط البارحة في سرعة مسير الحاج فقلت لأنني أودعت ما معي كله لله جل جلاله وهو جل جلاله يحفظه فلم يقبل، وأخذ إبريقاً ومرّ يستعمل ماء خارج الحاج فجاء والسوط في يده، فقلت: كيف وجدته؟ قال وجدته على ظاهر فخارة رجل معلقاً، فقلت له: هذا السوط لفلان سقط البارحة في المسير، فقال نعم وجدناه ليلاً فحملناه خذوا حمله إليه، ولو ذكرت ما تجدد لي من أمثال هذا ضجرت بوقوفك عليه»[1].

(١) فلاح السائل ص ٤٦٣.

أدب النوم

أقول: إن شئت فكن كمملوك أعرفه من مماليك الله، إذا نام بالأذن من الله والأدب مع الله واستقبل القبلة بوجهه إلى الله وتوسد يمينه على صفات الثكلى الواضعة يدها على خدّها فإنه قد ثكل كثيراً مما يقربه إلى الله، ويقصد بتلك النوم أن يتقوى بها في اليقظة على طاعة الله جل جلاله وعلى ما يراد في تلك الحال من العبودية والذلة لله، وكأن جبل ذنوب قلبه قد وفع على رأسه ليسقط عليه من يد غضب الله كما جرى لبني إسرائيل حيث قال جل جلاله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١] فإن أولئك ذلوا واستسلموا لذلك خوفاً من سقوط الجبل على الحياة الفانية وجبل الذنوب يخاف صاحبه أن يسقط عليه فيهلك جميع حياته وسعادته الفانية والباقية»[١].

(١) فلاح السائل ص ٤٧٣.

مواعظه

«وقد أشرنا إلى تدبير الصحائف عند إنفصال الملائكة الحفظة عن الإنسان في آخر كل يوم وآخر كل ليلة، في الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب، فانظر ما هناك وجبّن نفسك، ويحك عن مواقف الهوان بالعقاب أو العتاب، ولا تهوّن بنفسك، فإنّك إن هونت بها في هذه الدار فكأنك قد فصّلت لها ثياباً من نارٍ وبنيت لها داراً من نارٍ وحبساً من نارٍ، وهيأت لنفسك ما لا قوة لك عليه من الهلاك والأخطار، وقنعت لها المقامات الفضيحة والعار، وما أعرفك أيها العبد إلا كما قال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النّساء: ٢٨].

فكيف صرت عند وعيد الله جل جلاله وتهديده قوياً لا تقبل تحذيراً ولا تخويفاً، وكأني بك أنت تقول: إنك تتكل على رحمة الله وجوده، وهذا منك بهتان واستخفاف بوعيده، ويحك أنت تعلم من نفسك أنك عند الذنوب ما يخطر بقلبك إنك تفعلها لأجل رحمة علام الغيوب، ثم ولو كنت أيها العبد بين يدي ملك من ملوك الدنيا محسن إليك، وأنت تعلم أنه رحيم كريم لا يعاقبك أو لا يجترى عليك، أكان يسهل عندك مع معرفتك بإحسانه وأنت في حضرة دولته وسلطانه أن تقول له: لأعصينك ولأخالفنك في إرادتك وكراهتك إتكالاً على رحمتك، لكن ما كان يخطر ببالك التعرض لعصيانه، وكنت تستحيي

من كثرة إحسانه وتذل أن تواجهه بالمعصية في حضرة ملكه وسلطانه، ولكنك بعيد من صفات العارفين بمالك الدين، فاندب على نفسك وابك عليها فإنك إن بقيت على ذلك الاهمال خفت عليك أن تكون من الهالكين أبد الآبدين»[1].

* * *

وإذ قد ذكرنا ما أوردناه من عمل الأسبوع، فليكن ذلك آخر هذا الكتاب المسمى بـ«جمال الاسبوع» وقد أودعناه من أسرار عبادات وأنوار صلوات وفوائد تنبيهات على معاملات وموائد ضيافات لذوي سعادات، ما يعرف جليل قدرها من إطلعه الله جل جلاله على تفصيل سرِّها.

فكن أيها الناظر فيها والمطلع على معانيها، مستوطناً لمغانيها وسالكاً سبيل من يعانيها ويراعيها، قبل أن يحال بينك وبين يدٍ تمتد إليها، وبينك وبين عينٍ تطلع عليها، وبينك وبين قدمٍ تقوم بها، وبينك وبين قوةٍ تنهض لها، فإنك إما طال عمرك فعجزت عما فيها من المراحم والمكارم والمراسم والمواسم، وإما ورد عليك ما لا بد منه من الموت الهاجم.

وإياك أن تطيع التعلُّل بسوف، فقلّ من تعلل بها إلا وقع في الندم والخوف، وإنما يملك زمام ما يستقبل من الأوقات الله جل جلاله القادر على المقدورات، وأما من كانت أوقات عافيته مستورة عنه وساعات مؤنته محجوبة عنه، وهو أسير الفناء وابن قوم جرى عليهم حكم البلاء، وتفرقوا بعد الإقتراب وتمزقوا تحت التراب، وعليه

---

(١) جمال الاسبوع ص ١١٨.

وثيقة بلسان الحال أنه خلق في الدنيا للزوال، وغريمه جل جلاله حاكم في الآجال والآمال، فكيف يسع من حاله مثل هذه الحال أن يرضى بالتعلل والتهوين والإهمال.

بادر رحمك الله حيث إن الأنفاس باقية والأقدام جارية، وبيدك صحائف أعمالك ليوم الوعيد، يكتب فيها كلما تريد، ولا تقنع أن تحشر يوم القيامة وعليك ذل أهل الندامة وقد شمت بك من كان عدواً لك في دنياك، وترى من هو دونك الآن متقدماً عليك في أُخراك، ألهمك الله وإيانا عنايات المطالب وشرَّفنا بالظفر بما هو جل جلاله أهله من المواهب»[1].

«إعلم أننا ذاكرون من أعمال هذه الليلة السعيدة بعض ما رويناه ورأيناه من العبادات الحميدة ونجعلها بين يديك فاختر لنفسك ما قد عرض لك الله جل جلاله من السعادة بذلك عليك فسيأتي وقت يطوى فيه بساط الحياة بيد الوفاة ويُطوى فيه صحائف الأعمال فلا تقدر على الزيادة في الإقبال، وإن توقفت نفسك عن العمل بجميع ما ذكرناه أو تكاسلت واشتغلت بما ضره أكثر من نفعه أو بما لا بقاء لنفعه من شواغل دار الزوال فحدّثها بما نذكره من المثال، فتقول ما تقول لو أن بعض ملوك دار الفناء أحضرك مع الجلساء وقدم بين يديك خلعاً مختلفة السعود وأموالاً مختلفة النقود وكتباً بأملاك وعقار وتواقيع بولايات صغار وكبار وأنت محتاج إلى شيء من هذه السعادات المبذولات فمهما كنت فاعلاً من الاستقصاء في طلب غايات تلك الزيادات، فليكن اهتمامك بما عرضه الله جل جلاله

(١) جمال الاسبوع ص ٣٢٥.

عليك وأحضره في هذه الليلة بين يديك من خلع دوام إقبالك وتمام آمالك ومساكنك الباقية التي تحتاج إليها والذخائر التي تعلم أنك قادم عليها على قدر اهتمامك بما بذله سلطان الدنيا لك وعرضه عليك، وبقدر التفاوت بين فناء المواهب الزائلة ودوام بقاء مطالب الآخرة الكاملة وإلا متى نشطت عند العاجل وكسلت عند الآجل فكأنك لست مصدقاً بالبدل الراجح والرسول الناصح وأنك مصدق بذلك المطلوب ولكنك سقيم بعيوب القلوب والذنوب فأنت كالمقيد المحجوب أو المطرود المغلوب، فاشتغل رحمك الله بدواء أسقامك وثبوت أقدامك.

يا عبد السوء يا مهين، ما الذي جرّاك على سلطان العالمين ومالك الأولين والآخرين، وما الذي أخرجك عن مقام عبد مسكين مستكين إلى الإهمال والتبسط والاشتغال بغير العبودية والخدمة والمعاملة لمالك يوم الدين؟ ويلك أما ترى أنك كنيف بيت العذرات وحمّال أرذال القاذورات، ونزاح بيت طهارة جسدك، لعلك تفعل ذلك كل يوم وليلة مراراً بيدك ولا مخلص لك من هذه الصنعة الخسيسة إلى أن تموت، ويحك كيف رفعت رأسك من شعار الذلة والقلة لصاحب الجبروت ومالك الملك والملكوت أما تعلم أن بدايتك من نحو أبيك من نطفة مدرة وأنها خرجت من محل الأبوال القذرة، ثم أنت بعد ذلك حمّال وغسّال العذرة، ثم تكون بعد الموت جيفة نكرة، طأطىء رأسك ذلاً وحياءً وخجلاً، واخفض صوتك خوفاً ووجلاً، واعرف خساسة قدرك، وانظر في تدبير أمرك، واسع لمولاك في فكاك رقبتك من أسر العبودية وفي إخراجك من ذل هذه الخسايس

الردية وتوصل وتوسل في عتقك من رق الأسار وأن يجعلك من الأحرار ويؤهلك للمقام في دار القرار، ويرفعك بذلك عن هذه الصنعة الخسيسة التي أنت فيها نزّاح بيوت الطهارات وغسال العذرات ويهدم هذا الجسد السخيف ويعمره على بناء شريف منزّه عن هذه الأقذار يصلح للمقام فيما ذكرناه من دار دوام المسار فهذا التوصل والتوسل قد جعل في الدنيا، فإن قنعت بالدون فأنت المغبون والذنب لك والمصيبة عائدة عليك»[1].

(١) فلاح السائل ص ٨٣.

المراقبة

«إنَّ الإنسان لو كان في حبس سلطان، وقد رتب السلطان عليه في الحبس شخصين، وهما معه موكلان، ينقلان حركاته وسكناته إليه، وما قنع بالشخصين الموكلين به حتى جعل جوارحه شهوداً أيضاً عليه، وما قنع السلطان أيضاً بذلك حتى جعل بينه وبين قلب هذا المحبوس منظرة يطلع منها على ضمائر العبد وأسراره، وقيل للمحبوس إنه إن أخفى شيئاً أو أبداه في ليله أو نهاره فإن السلطان يحاسبه به ولا يلتفت إلى عذاره، فهل يقبل العقل أن هذا المحبوس إذا علم هذا كله من صعوبة حاله يترك الاشتغال بنفسه وصواب أعماله، ويهتم تحصيل مدح أهل الحبس له وإقبالهم عليه، أو يفكر في ذمهم وقلّة ميلهم إليه؟!

فهكذا حال العبد المكلف، بل أصعب في الحياة الدنيوية، فإنّه المسكين في الحبس، لأن الدنيا سجن أهل الإيمان، ومعه الملكان الحافظان الموكلان، ومع ذلك فلم يقنع له بهذه الحال حتى جعل الله جل جلاله جوارحه شهوداً عليه يوم الحساب والسؤال، وما قنع له أيضاً بهذا الاستظهار عليه، حتى كان الله جل جلاله عالماً بسرّه، خيره وشرّه، ومطلعاً عليه، وقال له مع ذلك قولاً لو فهمه وصدقه وعمل به صعب عليه الحياة، فقال تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ

أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٤]، فهل ينبغي للعبد مع هذا أن يكون له اشتغال بغير مراد الله جل جلاله ، وغير مراد رسوله سيد المرسلين ونائبه عليه السلام دون الخلائق أجمعين؟»[١].

«يا أيها الرجل الذي يدّعي أنه مسلم مصدق بالكتاب والرسول وأن عليه ملائكة يكتبون ما يفعل ويقول، والله جل جلاله من ورائهم يطلع على ما ظهر للحفظة وعلى ما استتر عنهم ولا يستر منه جل جلاله الليل، وهو جليس مماليكه ويرى ما يقع منهم، إن كنت كما ادعيت من التصديق بهذه الأسباب فلا تغتنم ظلام الليل وتتشمر في مسالك مهالك سوء الآداب فإنك إن وجدت فرقاً في تحفظك في أعمالك بين عملها بالليل أو النهار فاعلم أنك إنما كنت تعبد بني آدم أو أنهم كانوا عندك أعظم حرمة من المالك الجبار القهار المطلع على الأسرار، فلما سترك الليل منهم هان عندك مولاك الذي يراك، وإذا كنت كذلك فكيف تكون مسلماً عند نفسك إن كنت من ذوي الألباب وبأي عقل أو قلب ترجو سلامة يوم الحساب أما تسمع الله جل جلاله وقد صرّح تصريحاً لا يحتمل التأويل إنه لا يحب مثلك مع خيانتك واستخفائك من الناس وترك الاستخفاء من مقام العظيم الجليل، فقال جل جلاله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء: ١٠٧-١٠٨]]، ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النّساء: ١٠٩].

---

(١) فتح الأبواب ص ٣٠٥.

أيها العبد المسكين هل يصح أن يكون الله جل جلاله ما يحبك وتكون من المسلمين، أنظر في شفاء سقام قلبك ودينك فداؤك عظيم دفين، وهلّا اهتديت فاقتديت بمن تذكر أنك تهتدي بأنواره وتقتدي بآثاره، وكيف كانت أحوالهم في ليلهم الذي تضيعه أنت باغتنام الغفلات وطلب الشهوات كأنك دابة قد رفع عنها حكم التكليفات»[1].

* * *

وأما اختيار مكان الصلاة فالأفضل لذلك ما كان بقلبه فيه حاضراً والعبد فيه لله جل جلاله بالقلب ذاكراً لازماً حق الحرمة الجلالة الإلهية وأدب ذل العبودية، وأقرب إلى الإخلاص والاختصاص بعيداً من الشواغل الباطنة والظاهرة عن وقوفه بين يدي مولاه ومالكه جبار الجبابرة ومالك الدنيا والآخرة، ويكون صادقاً في اختياره لذلك المكان لخدمة الملك الديان ومعنى قولي صادقاً أن تكون سريرته موافقة لعلانيته في أنه ما قصد الحضور في ذلك المكان والوقوف فيه إلا الله جل جلاله وطلب مراضيه.

ولقد رأيت في بعض الأحاديث أن عبداً من الخواص وأهل الاختصاص كان يعبد الله جل جلاله على الانفراد بالقرب منه شجرة يسكن فيها أطيار فنقل مصلاه إلى تحت الشجرة ليستأنس بالشجرة وتغريد الطير في الأشجار فعوتب من جانب الله جل جلاله وقيل له: أما كان في الانس بنا ما يغنيك عن الشجرة والطيور، فتاب وعرف أنه قد خاطر بذلك الانس المذكور.

---

(١) فلاح السائل ص ٤٥٢.

ولقد رأيت في أحاديث أهل المحاسبة وذوي المراقبة أن بعضهم كان يصلي بنشاط واهتمام وانبساط فقال: يا رب هل بقي علي من الإقبال في الصلاة ما احتاج فيه إلى الاستدراك قبل الممات؟ فقيل له: نعم أنك تسكن إلى نسيم الأشجار وينشطك لنا غيرنا، وما هكذا تكون صفات خواص الأبرار فمعك شريك لنا في خدمتك وباعث آخر غير ما أردناه من إخلاص عبوديتك.

وإن كان حال هذا العبد المكلف قوياً في الإمكان إلا أنه لا يختلف أخلاصه واختصاصه بمكان دون مكان، فالأفضل له اتباع الشرع عن تفضيل أماكن الصلاة وتفضيل محال الدعوات وأفضلها بيوت الله تعالى جل جلاله ومساجده الخاصة لعبادته، وأفضل المساجد مسجد الحرام ومسجد المدينة ولذلك تفصيلها نحن ذاكرون لما يتهيأ على جهته وروايته»[1].

* * *

ولقد رأيت في حكايات أهل المراقبات أن بعضهم كان له رفيق قد صحبه مدة من الأوقات فنزلا في سفينة مع قوم وفيها حنطة والحنطة ليست لواحد منهما فغفل أحدهما وأخذ بيده من الحنطة وأكل منها حبة واحدة فنظر إليه رفيقه وقال: ما هذا؟! قال: غفلت عن نفسي، فقال له ما معناه تكون بين يدي الله جل جلاله وهو مطلع عليك وهو سبحانه لو كان يصح عليه الشغل كالمشغول بدوام وجودك وحياتك وعافيتك والإحسان إليك، وتشتغل أنت عنه، لا أصاحبك

(١) فلاح السائل ص ١٥٣.

بعدها فأخاف أن أكتسب من غفلتك، وقال: أيها الملاح قدّم إلى الشط، فقدم فارقه وانفصل منه، وقيل شعراً.

أما تقومون كذا أو فاقعدوا ... ما كل من رام السماء يصعد
عن تعب أو رد ساق أولا ... ومسحت غرة سياف يد
لو شرف الإنسان وهو وادع ... لقطع الصمصام وهو مغمد[1]

(١) فلاح السائل ص ٢٥٦.

المحاسبة

ثم أحضر بعقلك وقلبك وقت المحاسبة لعالم الغيب جل جلاله وللملكين الحافظين، وكن كما يحاسب العبد أو الساعي في بضاعة لصاحبها أو الشريك لشريكه إذا كان لمن يصاحبه اطلاع على كل ما جرت الحال عليه وتكون عالماً وذاكراً أن الجحود والتغافل لا ينفعك بل يقتضي غضب من تحاسبه ويستقصي عليك.

ثم تستحضر بعقلك أن جوارحك قد كتبت قصصاً إلى الله تعالى تشكو من تصريفك لها في غير ما خلقت له وكذلك يشكو منك كل من كلفت القيام له بحق وما قمت له به.

فإذا برزت إليك من باب العدل اكتب معها قصة منك بلسان تشكو إلى الله تعالى منك وتشكو لمن شكى منك وأعرضها جميعها من باب الفضل فتقول ما معناه: اللهم إني قد حضرت للمحاسبة وما كان عندي قوة مني على حضوري بين يديك لمحاسبتك ولا جرأة على كشف سوءِ أعمالي فأنا ذاكر لحضرتك لكن أمرت فأقدمت ممتثلاً لأمرك وتعظيماً لقدرتك، وأول ما أقول ما معي من عمل أرضاه لك لأنني وجدت نفسي أنشط لحوائج كثيرة لي ولمن يعزّ علي أكثر من نشاطي لطاعتك، ووجدت أكثر الحوائج التي أنشط لها أكثر

منك نفعها لغيري كله أو أكثره فأنا وقت اشتغالي بها متلف لذلك الوقت من عمري ومضيّع ما كنت قادراً أن أعمله لك ويكون نفعه لي فقد ساءني تدبيري في معاملتك فما بقي عمل أرضاه لجلالتك ونعمتك.

وأنا يا سيدي معسر أيضاً عن القوة على عقابك وعتابك وعلى تغيّر إحسانك أو هوانك وقد قلت ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٠] وليس لعسري يسار وكرمك وحلمك وعفوك أحق بقبول عذر أهل الاعذار وكيف أحبس في حبس غضبك أو عقابك وأنت غريمي وشاهدي بالاعسار.

ووجدت في عقلي الذي أنعمت عليّ بنوره أن العبد إذا هرب من مولاه إليه أو استسلم بين يديه أو استجار بعفوه من غضبه أو غضب على نفسه لغضب سيده عليه إذا توسل إليه بمن يعزّ عليه أو دخل من باب قد رحم سيده الداخلين منه إليه فإنه جدير بالظفر برحمة مولاه أو عفوه أو رضاه.

وأنا قد سلكت إلى حلمك جميع هذه المسالك لأجل ما قد أحاط بي من المهالك.

ودخلت من الباب الذي دخل منه قوم إدريس وقوم يونس عليهما السلام فرحمتهم ولم يقف مع غضب نبيك عليهم.

ودخلت من الباب الذي سألك إبليس منه الانظار مع علمك بما هو عليه من دوام الإصرار فأجبت سؤاله.

ووقفت على الباب الذي ابتدأت منه سحرة فرعون بالهداية والعناية حتى صاروا من أوليائك وقد كانوا من أعدائك.

وعلى الباب الذي ابتدأت منها أمم الأنبياء الذين كانوا عاكفين على عبادة الأصنام فبعث إليهم مجلس الغضب عليهم من دلهم حتى صار فيهم خلق كثير أوليائك وعزيزين عليك.

ووقفت على باب رحمة رسولك محمد صلواتك عليه استنجد برحمته أن لا أكون أعظم ذنوباً من أمة موسى وقد عبدوا العجل وقالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ﴾ [المائدة: ٢٤] ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وأن موسى عليه السلام شفع فيهم مع هذه الذنوب حتى رأيت في التوراة أن قال جل جلاله أن لم تقبل شفاعتي فيهم فامحني من الرسالة، فقبلت يا الله شفاعته وأحييتهم له بعد الموت وأثنيت لهم ثناء من عصاك.

فنحن نتوجه إلى رسولك محمد ﷺ بك أن يشفع لنا إليك به أن لا ترد شفاعته فينا ومع هذه الوسائل فإنني تائب إليك على قدر ما جنيت وعلى قدر ما انتهكته من حرمتك لما عصيتك وإن جهلت قدر ذلك وعلى قدر ما كسرت من حرمة رسولك وشريعتك وحرمة خاصتك وحرمت قرآنك والتهوين بعظيم شأنك.

فإن قبلتت توبتي وإلا فاعف عني فقد يعفو المولى عن عبده وهو غير راض عنه أو لا تغضب عليّ فإنما يغضب من لا يقدر على العقوبة أو إذا امتنع الجاني عليه وأنت قادر وأنا مستسلم لك يا سيدي.

وأنت تعلم أن الشيطان عدوي وهو عدو لك ومتى أخذتني بتمكينه مني شمت بي وبجنابك، فإن كان لا بد من عقوبتي فمنك إليّ لا بيد عدوك وعدوي.

ووجدت نفسي منسوبة إليك ومعلّقة عليك بمقتضى برّك وسترك ورأيت وسمعت الملوك يتجاوزون عمن علقوه عليهم ونسبوه إليهم وتشهد العقول أن ذلك من صفات الكمال وأنت أحق بصفات الكمال فإذا هانت عليك وسائلي ومسائلي فاذكرني في ديوان وصيتك للمأمولين بالآملين وللمسؤولين بالسائلين وللمحسنين بالمسيئين وللأقوياء بالضعفاء وللأغنياء بالفقراء وللأعزاء بالأذلاء وللحكماء بالسفهاء وللملوك برعيتهم وللسادة بعبيدهم وأتباعهم وللكرام باللئام وللمضيفين بالضيوف وللمستجار بهم بمن جاورهم واستجار بهم وعند كل وصية أوصى بها أهل الكمال بأحد من أهل النقصان، وأنا يا سيدي داخل في عموم تلك الوصايا والمراحم ومتشبث بحبال تلك المكارم لأنك جل جلالك على أبلغ صفات الكمال وأنا على صفات النقصان في الأعمال والأحوال، ووجدتك قد أوصيت بالعفو وبذلت البذول على العفو ومدحت الكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، وأنت أحق بما أوصيت به، وعبدك يقول كلمات وجد من قالها منك مراحم وإجابات، وهي «ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وأتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد».

وآخر ما أقول يا سيدي إنني ما كنت أعرف شيئاً مما خاطبتك ولا مما تمسكت بسببه، أنت علمتني على حلمك وكرمك ورحمتك حتى نطق لساني بالتوصل إلى رأفتك، ومهما كان يحسن بمن لا

ينقصه الإحسان ولا يزيده الحرمان إذا علّم مماليكه الجناة طرق مسألته وعرّفهم كيف يستفتحون به أبواب رحمته وحلم عنهم حتى خاطبوه به واستسلموا له فاصنع بي أولى الأمور بكمال صفاتك وجميل عاداتك فأنت أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين وأشفق المالكين.

اللهم وإني قد دعوتك ورجوتك فإن كنت مقبلاً علي فارحمني واجب دعائي وصدّق رجائي لتشريفي بإقبالك وإن كنت معرضاً عني عند خطابي لجلالك فارحمني لتلفي وهلاكي باعراضك عني مع سعة رحمتك وأفضالك اللهم وقد توجهت إليك في تضرّعي بين يديك بمن يعز عليك فإن كانوا مقبلين علي فارحمني لأجلهم وإن كانوا معرضين عني لأجلك فبحرمة وفائهم لك في إعراضهم عني فارحمني وأدخلني تحت ظلك وظلهم»[1].

(١) فلاح السائل ص ٣٦٧.

الثواب الجزيل للعمل القليل

«فإن استكثرت ما قد ذكرناه من الصلوات أو استبعدت ما ورد من ثوابها في الروايات، فاعلم أننا روينا من عدة طرق واضحات، وسنذكر بعضها في أول عمل رجب، بما معناه: إن من بلغه عن النبي ﷺ ثواب عمل وعمل به، فإن للعامل ثواب أعماله وإن يكن النبي ﷺ أمر به في مقاله، وهذه عادة الكريم الجواد، لا يضيع عنده عمل العباد إكراماً لمحمد ﷺ وأُمته، حيث قصدوا بالعمل إمتثال أمره والتشرُّف بطاعته، فاعمل بما ذكرناه ما تقدر عليه ولا تستكثرن لنفسك شيئاً في دنياك، ولو كان أضعاف ما يحتاج إليه، فمنازل دار المقامة وسيعة تحتاج إلى قماش كثير، والمقام هناك دائم يحتاج إلى إستعداد كبير»[1].

* * *

واعلم أن الذي تجده في كتابنا هذا من فضل صلوات من ليالي رجب وليالي شعبان وفضل صوم كل يوم من هذين الشهرين وتعظيم الثواب والاحسان بكله مشروط بالإخلاص، ومن جملة إخلاص أهل الاختصاص ألا يكون قصدك بهذا العمل مجرد هذا الثواب بل تعبّد

(١) جمال الاسبوع ص ١٠٨.

به رب الأرباب لأنه أهل لعبادة ذوي الألباب، وهذه عقبة صعبة تبعد السلامة منها.

ومنها: أن لا تعجبك نفسك بعمل ولا تتكل على عملك فإنك إذا فكرت فيما عمل الله جل جلاله معك قبل أن يخلقك من عمارة الدنيا لمصلحتك وقد خلق آدم عليه السلام إلى زمان عبادتك وما تحتاج أن يعمله جل جلاله معك في دوام آخرتك رأيت عملك لا محل له بالنسبة إلى عمله جل جلاله معك.

وإذا وجدت في كتابنا أن من عمل كذا فله مثل عمل الأنبياء والأوصياء والشهداء والملائكة عليهم السلام فلعل ذلك أنه يكون مثل عمل أحدهم إذا عمل هذا الذي يعمله دون سائر أعمالهم أو يكون له تأويل آخر على قدر ضعف حالك وقوة حالهم، فلا تطمع نفسك بما لا يليق بالإنصاف ولا تبلغ بها ما لا يصح لها من الأوصاف، ولا تستكثر لله جل جلاله شيئاً من العبادات فحقه أعظم من أن يؤديه أحد ولو بلغ غايات ويقع الطاعات لك دونه جل جلاله في الحياة بعد الممات»[1].

---

(١) الاقبال ص ١٢٢.

عرض الأعمال

لعل قائلاً يقول أو يخطر بباله: أن كل يوم اثنين وخميس من كل أسبوع تُرفع فيه أعمال العباد، فما وجه هذه الأحاديث في تخصيصها الخميس الأخير من الشهر، وهي صحيحة الإسناد؟

فالجواب: إنَّ العرض من الأعمال ما هو جنس واحد على التحقيق من كل طريق، لأن الملكين الحافظين بالنهار يعرضان عمل العبد في نهاره، كما يختصان به، وملكي الليل يعرضان ما يعمله العبد في ليله كما ينفردان به.

وقد تقدم حديث في الجزء الأول من كتاب المهمات والتتمات في الفصل الرابع عشر منه، يتضمن كيفية عرض الملكين الحافظين أيام الدنيا، ثم يوم القيامة تعرض تلك الأعمال عرضاً آخر بعد اجتماعها على تفصيلها وحقيقتها.

فكذا لعل كل يوم اثنين وكل يوم خميس من غير آخر الشهر تعرض الأعمال فيها عرضاً خاصاً، أو من غير كشف للملائكة ولا لأرواح الأنبياء عليهم السلام في الملأ الأعلى، بل بوجهٍ مستور عنهم بجملتها، ثم يعرض أعمال كل شهر آخر خميس فيه عرضاً عاماً، بتفصيل أعمال الشهر بجملتها، أو على وجه مكشوف للروحانيين وإظهار تلك الأعمال على صفتها.

أفلا ترى لو أن ملكاً استعرض كل يوم عمل صانع، أو صاحب، أو عبد يعمل شيئاً من المصنوعات في كل شهر لخاصته، ثم لما تكملت تلك الأعمال أواخر الشهر أراد عرضها عليه دفعة واحدة، وقد كان عرفها قبل ذلك معرفة واكدة.

وإنما عرضها جملة بعد تكميلها في الشهر، أما لنفع صانعها أو إظهار كمال خدمته وأعمال ساعادته إن كانت الأعمال من المرضيات.

وإن كانت من أعمال الجنايات، فلعل الغرض في عرضها جملة عند اجتماعها بما فيها من السيئات، ليكون أعذر لمولاه في مؤاخذته لعبده عند جنايته، أو لكشف فضل العفو عنه أن تداركه بعفوه ورحمته.

وعلى لك حال فقد عرفناك أو أذكرناك بهذه الروايات، وبعض طرقها على التفصيل دون الإجمال، وإذا لم تحصل من ذلك على يقين ولا تجريها مجرى أمثالها من الروايات في فروع الفقه والدين.

فلا أقل أن يكون الخطر بها من جملة الضرر المظنون، فتراعى عند كل خميس في آخر شهرك ما عملته فيه من أعمال ظاهرك وسترك، وتذكر اجتماعها وكثرتها.

وربما لا تعرف عيوبها ومضرتها، لأن الإنسان في الغالب لا يعرف عيوب نفسه على التحقيق، وإن رأى لها عيباً، فإنه يراه دون ما يراه عند عدوه أو عند الرفيق.

وليكن عليك من هذا الحديث آثار وجوب التحرّز عن الضرر المظنون ودلائل التصديق، وإن كنت ما اهتممت بحفظ أعمال الشهر المشار إليه، ولا خائف من عرض أعماله في آخر خميس - كما دل - النقل عليه.

وما كان ذلك لترك معرفة أعمالك، لعذر من نسيان أو سبب يقبله الله جل جلاله من أعذار إهمالك، ولا لعقوبة اقتضت طرد جل جلاله لك عن محاسبة نفسك في معاملته.

فقد ذكرنا في عمل اليوم والليلة من هذا الكتاب بيان أن الله جل جلاله قد يخذل بعض العباد العصاة عن خدمته، تارة بالنسيان وتارة بالنوم وتارة بسلب بعض الألطاف، عقوبة لهم على معصيته.

فإن كنت واثقاً، وهيهات، أنك سلمت في شهرك من الجنايات في سائر الحركات والسكنات، فاحمد الله جل جلاله على توفيقه وعنايته، وأسأله زيادة السعادة بطاعته.

وإن كنت تعلم أنك ما سلمت من التقصير، فتب من الآن توبة نصوحاً يوافق به السر الاعلان، وإن لم يحضر قلبك ولا أطاعك هواك وغلبتك نفسك ودنياك، لقلة معرفتك بربك وجهلك بعظيم ذنبك من أن تتوب على التحقيق.

فاسأل الله جل جلاله بلسان حال الذل والتوفيق زوال أمراض دينك وأن يزيد في يقينك، فإنك تجده جل جلاله أرحم بك من كل شفيق، وأطلب منه أن يعفو عنك عفو الرحمة المضاعفة بغير معاتبة ولا مواقفة، وأن تعذّر منك طلب العفو على صفات الذلة والعبودية، فقد رغبتك نفسك إلى أخذ القود منك بيد عدل القدرة الإلهية.

وقد شرحنا لك ذلك عند المحاسبة للحفظة الكرام في الجزء الأول من عمل اليوم والليلة، فاعمل بما هناك من المهام.

فقد عرفت من نفسك الضعف عن يسير من الهوان، وعن الكلمة اليسيرة تقع في حقك من إنسان، فكيف تكون إذا فضحتك ذنوبك بين

أهل المغارب والمشارق، الذين كنت تؤثرهم على الخالق الرازق، وتستر حالك عنهم، وتقدم رضاهم على رضا مولاك، الذي هو والله أهمّ منك ومنهم، ثم ترى نفسك وقد خرج من يديك رضا مولاك، وما نفعك أهل دنياك، وشمت بك حسادك ومن يريد أذاك، وصرت في أسر الغضب وهول الهلاك.

أما عرفت مقال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وهو جهبذة الخبر بما تنتهي أحوال العباد إليه:

«واعلموا أنه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار [فارحموا نفوسكم]، وقد جربتم أنفسكم في مصائب الدنيا، أفرأيتم جزع أحدكم من الشوكة تصيبه، والعثرة تدميه، والرمضاء تُحرقه؟ فكيف إذا كان بين طابقين من نار، ضجيع حجر وقرين شيطان؟!

أما علمتم أن مالكاً[١] إذا غضب على النار حطمك بعضها بعضاً لغضبه، وإذا زجرها توثبت بين أبوابها جزعاً من زجرته، أيها اليفن[٢] الكبير الذي قد لهزه[٣] القتير[٤]، كيف أنت إذا التحمت أطواق النيران بعظام الأعناق، وتشبتت[٥] الجوامع[٦] حتى أكلت اللحوم السواعد»[٧].

---

(١) مالك: هو الموكل بالجحيم.
(٢) اليفن - بالتحريك - : الشيخ المسن.
(٣) لهزه: خالطه.
(٤) القتير: الشيب.
(٥) تشبتت: علقت.
(٦) الجامعة: الغل لأنها تجمع اليدين إلى العنق.
(٧) النهج، الخطبة: ١٨٣: ٦٤.

فهل هذا مما يقدر الإنسان على احتماله أو يهون العاقل بأهواله، وهبك ما تصدق بذلك، أما تجوّز تجويزاً أن يكون الله جل جلاله صادقاً في وعيده ومقاله، فلأي حال ما تستظهر لنفسك حتى تسلم من عذابه ونكاله»[1].

* * *

ففي الحديث: أنهم يعرضون عنهم في الجواب أربعين سنة، ثم يجيبونهم بعد خيبة الآمال، قالوا: ﴿فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠]، فإذا يئسوا من خزنة جهنم رجعوا إلى مالك مقدم الخزان، وقالوا: لعله أرحم بهم من الخزنة ولعله يخلصهم من ذلك الهوان وأملوا أن يشفع لهم وتعللوا بعسى وليت ولعل ذلك يكون، ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وروي في الحديث: أنه يعرض عنهم في الجواب أربعين سنة، ثم يجيبهم وقد هلكوا في العذاب الهون، فيقول لهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فإذا يئسوا من مالك رجعوا إلى مولاهم، المالك الذي كان أهون شيء عندهم في دنياهم، وكان قد أثر كل واحد منهم عليه هواه مدة الحياة، وقد كان قرر عندهم بالعقل والنقل أنه أوضح لهم على يد الهداة سبيل النجاة، وعرّفهم بلسان الحال أنهم الملقون بأنفسهم إلى دار النكال والأهوال، وأن باب القبول تغلق عن الكفار بالممات أبد الآبدين.

وكان يقول لهم في أوقات كانوا في الحياة الدنيا من المكلفين بلسان الحال الواضح المبين: هب أنكم ما صدقتموني في هذا

---

(١) الدروع الواقية ص ٢٤٤.

المقال، أما تجوزون أن أكون من الصادقين، فكيف تقدمون على أن تعرضوا عني أعراض من يشهد بتكذيبي وتكذيب من صدقني من المرسلين والعارفين.

وهلاّ تحرزتم من هذا الضرر المحذر الهايل، أما سمعتم بكثرة المرسلين وتكرار الرسائل.

ثم كرر جل جلاله موافقتهم وهم في النار ببيان المقال، فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]، فقالوا: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦].

فيعرض الله جل جلاله عنهم في الجواب، لأن جوابه جل جلاله كان كما قلناه قد تقدم في الدنيا أيام كان يدعوهم إليه ببيان المقال ولسان الحال ويبالغ في الخطاب، وهم لا يلتفتون إليهم بسبب من الأسباب فيبقون أربعين سنة في ذل الهوان وعذاب النيران لا يجابون ولا يكلمون.

ثم يجيبهم بعد اربعين سنة، فيقول جل جلاله: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، قال: «فعند ذلك ييأسون من كل فرج وراحة وتغلق أبواب جهنم عليهم وتدوم لديهم ماتم الهلاك والشهيق والزفر والصراخ والنياحة»[١].

فهل هذا أو بعضه مما يجوز التهوين به لذوي الألباب، ولو كان الانسان شاكاً في الحساب، أما يجوِّز صدق الأنبياء والمرسلين ما هذه المصيبة الهائلة الغفلة، أي مسكين.

---

(١) البحار: ٨: ٦ - ٣٠٤.

وكأني ببعض الغافلين يقول: هذا العذاب للكافرين، ويعتقد أنه من المصدقين الموقنين المؤمنين، وهو يرى من نفسه أن وعود الله جل جلاله عنده أضعف الوعود، وأنه لا يسكن إليها إلا بشيء عنده موجود، وأن وعد بعض العباد أقوى في نفسه من وعد سلطان المعاد، ويرى أن وعيد الله جل جلاله أهون من كل وعيد، وأنه لو توعده سلطان ببعض هذا التهديد عجز عن الصبر والسكون، وهجر رقاد العيون وتوصل في رضاه بأبلغ ما تكون.

وقد شرحنا حالك فيما ذكرناه عند ركعة الوتر في الجزء الثاني من كتاب «فلاح السائل ونجاح المسائل»، فانظر ما هناك وما عمل الله جل جلاله معك من الإحسان، وما عملت في الجواب من التهوين والاستحقاق بنفسك والعصيان.

وهناك تعلم هل أنت من أهل الإيمان أو من أهل الكفران، وانظر فيما ذكرناه في ذلك المكان من الدواء، فداوي به عقلك وقلبك بغاية الإمكان، فلا بد لك من يوم تموت فيه وترمى في بئر النسيان والهوان.

ولكن قل الآن أن كنت من أهل الإيمان ما روينا بعض معناه عن الإمام الطاهر محمد بن علي الباقر عليه السلام:

«اللهم إنك وهبتنا أجل شيء عندك، وهو الإيمان بك من غير سؤال، فلا تحرمنا ما دون ذلك من الغفران مع المسألة والابتهال، فأنت الذي يغني علمه عن المقال وكرمه عن السؤال».

وما روي عن الصادق عليه السلام أنه يمحو ذنوب قائله ويتم النعمة

عليه: «يا من وعد فوفى وتوعد فعفا، صل على محمد وعلى أهل بيته الطاهرين، واغفر لمن ظلم وأساء، يا سيدي لا أهلك وأنت الرجاء».

ثم قل ما في معناه:

يا من إذا وقف الوفود ببابه

اسمى شريدهم عن الأوطان

أنا عبد نعمتك التي ملأت يدي

وربيب معناك الذي أغناني

جرت الملوك ومن يؤمل رفده

ووقفت حيث أرى المندى ويراني[1]

* * *

«إعلم أننا ذكرنا في الجزء الخامس عند عمل كل شهر ما لا غنى لِمن يُريد مراقبة الله جل جلاله عنه وروينا أخباراً أن عمل كل شهر يُرفع إلى الله جل جلاله في آخر خميس منه فينبغي الاجتهاد في آخر خميس من شعبان في تطهير سرائرك التي هي عيار الأعمال في الزيادة والنقصان والأعمال بالنيات وتستدرك فارطها وتتم نقصانها بغاية الإمكان وتعرضها مع ما يصل الجهد إليه عرض الخائف من ردها عليه، فإن لم يكن في أعمالنا إلا أن نشاطنا لمطالبنا الدنوية واشتغالنا بشهواتها الطبيعية أرجح من مهمات الله جل جلاله في آخر خميس منه

---

(١) الدروع الواقية ص ٢٥٤.

فينبغي الاجتهاد في آخر خميس من شعبان في تطهير سرائرك التي هي عيار الأعمال في الزيادة والنقصان والأعمال بالنيات وتستدرك فارطها وتتم نقصانها بغاية الإمكان وتعرضها مع ما يصل الجهد إليه عرض الخائف من ردها عليه، فإن لم يكن في أعمالنا إلا أن نشاطنا لمطالبنا الدنيوية واشتغالنا بشهواتها الطبيعية أرجح من مهمات الله جل جلاله ومن مراداته وفرحنا بقضاء حاجتنا الفانية أكثر من سرورنا بخدمة الله عز اسمه وطاعاته وهذا سقم ظاهر لا ريب فيه وبعيد أن تخلو الأعمال من دواهيه ويكون تسليم عملك آخر يوم خميس من شعبان إلى الذين تعرض عليهم الأعمال في ذلك اليوم من ثواب الرحمن ويسلمها إليهم تسليم ضيفهم وعبدهم وصنيعة رفدهم ورعيتهم الهارب من نفسه وهواه ومن عدل مولاه إلى الدخول في ظلهم والتمسك بأذيال مجدهم وفضلهم ومع عرض الأعمال آخر خميس من هذا الشهر كما ذكرناه فلا بد أن تعرضها في أجزاء الشهر عرضاً آخر بالاستظهار الذي حررناه فلقد قدمنا في الجزء الأول من هذا الكتاب ما يدل على ما يعرفه الإنسان من نفسه من سوء الآداب على مالك يوم الحساب.

فروينا أنه ينادي ملك من الله جل جلاله عند كل صلاة «أيها الناس قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها على ظهوركم فأطفئوها بصلاتكم».

وأنت تعلم ما بين الظهرين وبين العشائين من الوقت اليسير، ومع هذا فهذا الحديث يقتضي أنه ما يسلم العبد فيما بين هذين الوقتين من

حال يقتضي استحقاق النار وخطرها الكبير فاعرض من عمل هذا الشهر السعيد عند آخر يوم منه عرض أعمال لئام العبيد على مولاهم العظيم المجيد وعرض أعمال أهل الإباق والتشرد والجفا على مالك ما عاملهم بغير الصفاء والوفاء وستر العيوب والتجاوز عن المعاجلة عن الذنوب[1].

(١) الاقبال ص ٢٤٢.

النية في الأعمال

إعلم أنا كنا ذكرنا في كتاب «المضمار من تحرير النيات للصيام» ما فيه كفاية لذوي الأفهام ونقول هاهنا: إن من شروط الصيام والمهام أن تكون ذاكراً قبل دخولك في الصيام أن المنة لله جل جلاله عليك في استخدامك في الشرائع والأحكام وتأهيلك لما لم تكن له أهلاً من الإنعام والإكرام وسعادة الدنيا ودار المقام، فأنت تعرف من نفسك أنه لو استحضرك بعض الملوك المعظمين وشغلك بمهماته وكلامه يوماً طول النهار بين الحاضرين سُهِّلَ عليك ترك الطعام والشراب في ذلك اليوم لأجله واعتقدت أن المنة له عليك حيث أدخلك تحت ظله وشملك بفضله مع علمك أن الملك ما خلقك ولا رباك ولا خلق لك دنياك ولا أُخراك، فلا يحل في العقل والنقل أن يكون الله جل جلاله دون أحد من عباده وقد قام لك بما لم يقدر عليه غيره من إسعاده وإرفاده، ومتى نقصت الله جل جلاله في صومك عما تجده في خدمة الملك من نشاطك وسرورك واهتمامك واعتقاد المِنة له في إكرامك والذنب لك إن ضاع منك صوم نهارك وتكون أنت قد هونت بالله جل جلاله وعملت ما يقتضي هجرانه لك وغضبه عليك واستعادة ما وهبك من مسارك ومبارك وطول أعمالك.

أقول: وإن اشتبه عليك صوم إخلاص النيات بصوم الرياء والشبهات فاعتبر ذلك بعدة إشارات.

منها: أن تعرض على نفسك حضور الإفطار في ذلك النهار بمحضر الصائمين من الأخيار فإن وجدت نفسك تستحيي من مشاهدتهم لإفطارك بين الصيام فاعلم أن في صومك شبهة تريد بها التقرّب إلى قلوب الأنام.

ومنها: أن تعتبر نفسك أيما أسرّ لها وأحب إليها أن يطلع الله جل جلاله وحده عليها أو تريد أن يعلم بها ويطلع عليها مع الله تعالى سواه ممن يمدحها أو ينفعها إطلاعه في دنياه، فإن وجدت نفسك تريد مع إطلاع الله ﷻ على صيامك معرفة أحد غير الله تعالى بصومك ليزيد في إكرامك أو وجدت إطلاع أحد على صومك أجل في قلبك من اطلاع ربك، فاعلم أن صومك سقيم وأنك عبد لئيم.

ومنها: أنك تعتبر نفسك في صومها هل تجدها مع كثرة الصائمين هي أنشط في الصوم لرب العالمين ومع قلة الصائمين أو عدمهم هي أضعف وأكسل عن الصوم لمالك يوم الدين فإن وجدتها تنشط للصوم عند صومهم وتتكاسل عند إفطارهم فاعلم أنك تصوم طلباً لموافقتهم وتبعاً لإرادتهم وصومك سقيم بقدر اشتغالك باتباعهم عن اتباع مالك ناصيتك وناصيتهم.

ومنها: أن تعتبر هل صومك لأجل مجرد الثواب أو لأجل مراد رب الأرباب فإن وجدت نفسك لولا الثواب الذي ورد في الأخبار وأنه يدفع أخطار النار ما كنت صمت ولا تكلفت الامتناع بالصوم من الطعام والشراب والمسار، فأنت قد عزلت الله جل جلاله عن أنه

يستحق الصوم لامتثال أمره وعن أنه جل جلاله أهل للعبادة لعظيم قدره، لولا الرشوة والبرطيل ما عبدته ولا راعيت حق إحسانه السالف الجزيل ولا حرمة مقامه الأعظم الجليل.

ومنها: أن تعتبر صومك إذا كان لك سعة وثروة في طعام الفطور نشطت لِسَعَته وطيبته، وإذا كان طعام فطورك يكفيك ولكنه ما هو بلحم ولا ألوان مختلفة في لذاته فتكون غير نشيط في الصوم لعبادة الله جل جلاله به وطاعته فأنت إنما نشطت لأجل الطعام فذلك النشاط الزائد لغير الله المالك الإنعام شُبهة في تمام الصيام.

ومنها: أن تراعي عقلك وقلبك وجوارحك في زمان الصيام فتكون مستمر النية الخالصة الموصوفة بالتمام ومثال العوارض المانعة من استمرار النيات كثير في العبادات.

ومنها: أن تصوم بعض النهار بإخلاص النية ثم يعرض لك طعام طيب وزوجة قد تجملت لك وأنت تحبها أو سفر فيه نفع أو ما جرى مجرى هذه الأمور الدنيوية يصير إتمام صيام ذلك النهار عندك مستثقلاً ما تصدق متى تخلص منه وتوعد عنه وأنت تعلم أنك لو خدمك غلامك وهو مستثقل لخدمتك ومستقيل من طاعتك كان أقرب إلى طردك له وهجرانك وتغير إحسانك.

ومنها: أنه إذا عرض لك من فضل الإفطار ما يكون أرجح من صيام المندوب فلا تستحي من متابعة مراد علام الغيوب وأفطر بمقتضى مراده ولا تلتفت إلى من يأخذ ذلك عليك من عباده، ومثال هذا أن تكون صائماً مندوباً فيدعوك أخ لك في الله جل جلاله إلى طعام قد دعاك إليه فأجب داعي الله جل جلاله وامتثل أمر رسول

الله ﷻ في ترجيح الإفطار على الصيام، ومثال آخر أن تكون صائماً مندوباً فترى صومك في بعض النهار وقد أضعفك عن بعض الفروض الواجبة أو ما هو أهم من صوم المندوب، فابدأ بالأهم إلى ترك الصيام وعظم ما عظم الله جل جلاله وصغر ما صغّر من شريعة الإسلام، ولا تقل إن الذين رأوني صائماً ما يعلمون عذري في الإفطار يكون صومك في ذلك النهار لأجلهم رياءً وكالعبادة لهم من الذنوب الكبار.

ومنها: أنه متى عرض لك صارف عن استمرار النية من الأمور الدنيوية التي ليست عذراً صحيحاً عند المراضي الإلهية فبادر إلى استدراك هذا الخطر بالتوبة والندم وإصلاح استمرار نية الإخلاص في الصيام والاستغاثة بالله جل جلاله على القوة والتوفيق للتمام، فإنك متى أهملت تعجيل استدراك الصلاح صارت تلك الأوقات المهملة سُقماً في تلك العبادة المرضية.

وإذا عرض لك ما يحول بينك وبين استمرار نيتك فتذكر أن كلما ينقلك عن طاعتك فإنه كالعدو لك ولمولاك، فكيف تؤثر عدوك وعدوه عليه وسيدك يراك، وإذا آثرت غيره عليه فمن يقوم لك بما تحتاج إليه في دنياك وأُخراك.

ويكون نية صومك أنك تعبد الله جل جلاله به لأنه ﷻ أهل للعبادة فهذا صوم أهل السعادة[1].

* * *

(١) الاقبال ص ١٣٠.

إن الذي أودعناه كتابنا هذا ما هو مجرد زيادات وعبادات ولا كان المقصود جمع صلوات ودعوات وإنما ضمنّاهُ ما لم يعرف فيما وقفنا عليه المخالف والمؤالف مثل الذي هدانا الله جل جلاله بتصنيفه إليه، من كيفيات معاملات الله جل جلاله بالإخلاص في عبادته ومن عيوب الأعمال التي تُفسد العمل وتخرجه من طاعة الله جل جلاله إلى معصيته، ومن ترتيب الأبواب والفصول على وصف غريب في المأمول والمقبول، ومن ذكر أسانيد لبعض ما يستغرب من الروايات، ومن فضائل كانت مستورة للعبادات، ومن تعظيم الله جل جلاله تعظيماً يستصغر معه عمل كل عامل، ومن تعظيم لرسوله ﷺ يعرف به قدر حقه الكامل، ومن تعظيم لنوابه صلوات الله عليهم بما لم نجد مثله مجتمعاً في كتب الأواخر والأوائل وإذا وقفت على ما اشتمل عليه وجدت تحقيق ما أشرنا إليه.

مع أنني أقول إن الله جل جلاله أنزل كتبه الشريفة وبعث رُسُله عليهم السلام بالعبادات والسعادات المنيفة وعلم أن أكثر عباده لا يقبلون ولا يعملون ولا ينتفع بذلك إلا الأقلّون، ولم يمنعه إعراض الأكثرين ولا جهل الجاهلين ولا معاندة الجاحدين من إنزال الكتب وإرسال المرسلين ونحن على ذلك السبيل سائرون، وبه مهتدون ومقتدون، وإليه ناظرون وبين يديه حاضرون وله عاملون وغليه داعون وبه راضون وإلى القدوم عليه صائرون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

واعلم أنه لو كان علم إنسان أن قماشاً قد كسد بين العباد في بلدٍ من البلاد حتى لا ينفق بينهم ولو بذل صاحبه فيه غاية الاجتهاد ويعلم

أنه يأتي يوم ينفق ذلك القماش فيه ويبلغ اليسير منه أضعاف ثمنه لطالبيه فهل يمنعه من لم يعرف ما عرف مما يؤول حال القماش إليه وتأليفه وإحرازه والحرص عليه، ونحن على يقين أن لهذا الذي صنفناه وقت نفاق وميدان سباق وعقبات ندامات على التفريط في تحصيل القماش الذي رغبنا في جمعه ودعونا العباد إلى نفعه.

مع أن الذي عملنا هذا العمل لأجله قد كان سلفنا أجره أكثر من استحقاقنا على فعله وأعطانا في الحال الحاضرة ما لم تبلغ آمالنا إلى مثله ووعدنا وعد الصدق بما لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين من فضله فقد استوفينا أضعاف أجرة ما صنفناه ووضعناه، ومهما حصل بعد ذلك إذا عمل عامل بمقتضاه ورغب فيما رغبناه فهو مكسب على ما وهبناه، ومثال ما ذكرناه أن يستأجر بعض المُلوك بناء يبني له داراً بحسب رضاه ويسلم إليه أجرته أضعاف ما يستحقه على ما بنّاه فإنّ البناء لما يهم بسُكنى الدار بعد فراغه منها وليس عليه التوصل في أن يسكنها الناس أو يعرضوا عنها.

ونحن كان مرادنا من هذا العمل امتثال أمر مولانا جل جلاله في دعاء عباده إلى مراده وتعظيم جلاله وحقوق إسعاده وإرفاده وتعظيم رسوله ﷺ ونوابه في بلاده وكان أقصى آمال هذه الأعمال أن يرضاها الله جل جلاله لخدمته وأن يرانا أهلاً لعبادته، وأن يشرفنا بإثبات اسمنا في الدعاة إلى طاعته، وأن يذكرنا في حضرة رحمته ونرجو أن نكون قد ظفرنا بما هو جل جلاله أهله وشملنا حلمه وكرمه وفضله[1].

---

(١) الاقبال ص ٢٤٣.

يقول السيد: يا أيها المقبل بإقبال الله جل جلاله عليه حيث استدعاه إلى الحضور بين يديه وارتضاه أن يخدمه ويختص به ويكُون ممن يعز عليه لو عرفت ما في مطاوي هذه العنايات من السعادات ما كنت تستكثر لله جل جلاله شيئاً من العبادات، فتمم رحمك الله جل جلاله وظائف هذه الليلة من غير تثاقل ولا تكاسل ولا إعجاب، فأنت ذلك المخلوق من التراب الذي شرفك مولاك رب الأرباب وخلصك من ذلك الأصل الذميم وأتحفك بهذا التكريم والتعظيم واخدمه واعرف له قدر المنّة عليك، ولا يخطر بقلبك إلا أن هذه العبادة من أعظم إحسانه إليك وأنك تعبده لأنه أهل والله للعبادة فإنك مستعظم لنفسك كيف بلغ بك إلى هذه السعادة واعلم أنك إن عبدته لأجل طلب أجرة على عبادتك كنت في مخاطرتك كرجل كان عليه لبعض الغرماء الأقوياء الأغنياء ديون لا يقوم بها حكم العدد والإحصاء فاجتاز هذا الذي عليه الديون الكثيرة مع غريمه صاحب الحقوق الكثيرة على سوق فيه حلاوة فاقتضى إنعام الغريم أنه اشترى لهذا الذي عليه الدين العظيم طبقاً من تلك الحلاوة العظيمة اللذات وكلفه حملها إلى دار الغريم ليأكلها الذي عليه الديون وحده على أبلغ الشهوات، فلما أكلها الذي عليه الديون وفرغ من أكلها قال للغريم: إن هذه الحلاوة قد حملتها معك فأعطني رغيفاً أجرة حملها، فقال له الغريم: إنما حملتها على سبيل المنة عليك ولتصل هذه الحلاوة إليك وما كنت محتاجاً أنا إليها ولي ديون كثيرة عليك ما طالبتك بها، فكيف اقتضى عقلك أن تطلب رغيفاً أجرة حمل حلاوة ما كلفتك وزن ثمن لها، فهل يسترضي أحد من ذوي العقول السليمة ما فعله

الذي عليه الديون من طلب تلك الأجرة الذميمة فكذا حال العبد مع الله جل جلاله فإن القوة التي عمل بها الطاعات من مولاه والعقل والنقل الذي عمل به العبادات من ربه مالك دنياه وأُخراه والعمل الذي كلفه إياه إنما يحصل نفعه للعبد على اليقين والله جل جلاله مستغن عن عبادة العالمين، ولله جل جلاله على عباده من النعم بإنشائه وإبقائه وإرفاده وإسعاده ما لا يحصيها الإنسان، ولو بالغ في اجتهاده فلا يقتضي العقل والنقل أن يعبد لأجل طلب الثواب بل يعبد الله جل جلاله لنه أهل للعبادة وله المنة عليك كيف رفعك عن مقام التراب والدواب وجعلك أهلاً للخطاب والجواب ووعدك بدوام نعيم دار الثواب[1].

* * *

فهل يحسن من مصدق بالإسلام وبما نقل عن الرسول وعترته عليه وعليهم أفضل السلام أن ليلة واحدة من ثلاث ليال يكون فيها تدبير السنة كلها وإطلاق العطايا ودفع البلايا وتدبير الأمور وهي أشرف ليلة في السنة عند القادر على نفع كل سرور ودفع كل محذور فلا يكون نشيطاً لها ولا مهتماً بها، فهل تجد العقل قاضياً أن سلطاناً يختار ليلة من سنة للإطلاق والعتاق والمواهب ونجاح المطالب ويأذن إذناً عاماً في الطلب منه لكل حاضرٍ وغائب فيتخلف أحد من ذلك المجلس العام وعن تلك الليلة المختصة بذلك الإنعام التي ما يعود مثلها إلى بعد عام، مع أن الذين دعاهم إلى سؤاله محتاجون مضطرون إلى ما بذله لهم من نواله وإقباله وإفضاله، ماذا تقول لو

(١) الاقبال ص٤٦٩.

أنك بعد الفراغ من هذه المائة الركعة أو مائة وعشرين سمعت أن قد حضر ببابك رسول من بعض ملوك الآدميين قد عرض عليك مائة دينار أو شيئاً مما تحتاج إليه من المسار ودفع الأخطار، فكيف كان نشاطك وسرورك بالرسول وبالإقبال والقبول ويزول النوم والكسل بالكلية الذي كنت تجده في معاملة مولاك مالك الجلالة العظيمة الإلهية الذي قد بذل لك السعادة الدنيوية والأخروية، لقد افتضح ابن آدم المسكين بتهوينه بمالك الأولين والآخرين، فارحم يا أيها المسعود نفسك ولا يكن محمد رسول الله ﷺ سلطان العالمين وما وعد به عن مالك يوم الدين دون رسول عبد من العباد يجوز أن يخلف في الميعاد وأمره يؤول إلى الفناء والنفاد، ولا تشهد على نفسك أنك ما أنت مصدق بوعود سلطان المعاد بتثاقلك عن حبه وقربه ووعوده ونشاطك لعبد من عبيده[1].

(١) الاقبال ص ٤٧٠.

الصدقة

«وكن عند صدقتك إن هذه الصدقة التي في يديك من الله جل جلاله ومن إحسانه إليك، والذي تشتريه من السلامة، هو أيضاً من ذخائره التي يملكها هو جل جلاله ، وتريد أنت منه جل جلاله أن ينعم بها عليك، وأنت ملكه على اليقين، لا تشك في ذلك إن كنت من العارفين.

فاحضر بقلبك عند صلاتك وصدقتك هذه أنك تشتري ما يملكه الله جل جلاله ، لمن يملكه الله جل جلاله ، فالمشتري وهو أنت كما قلناه ملكه، والذي تشتري به السلامة، وهو الصدقة ملكه، وإن السلامة التي تشتريها ملكه، فاحذر أن تغفل عما أشرنا إليه، فقد كررناه ليكون على خاطرك الاعتياد عليه»[1].

(١) الدروع الواقية ص ٣١.

إطعام الطعام

إعلم أن فضل إطعام الطعام معقول فضله بأنوار العقول المصدقة للأنبياء المرسلين عليهم السلام وذلك أن القيام لأهل الصيام بالطعام كأنه تمليك لطاعتهم وسبب منهم لعبادتهم، فإن القوة الموجودة في الأجساد الذين تؤثرهم بالزاد تصير كأنها قوة العبد المطعم لهم التي في جسد مهجته، فكما أن قوة جسده كلما حصل بها كان معدوداً من عبادته فكذا يكون كلما صدر عن القوة بتفطير الصائم تكون مكتوبة لمن يطعمه في ديوان طاعته، فكأنك قد اتخذتهم مماليك يتعبون في خدمتك وأنت ساكن، ويحملون ذخائرك إلى دار إقامتك وأنت قاطن ويخافون في مصلحتك وأنت آمن وحسبك أن تبتاع كل مملوك منهم بمقدار طعامه وشرابه، وهذا فضل عظيم يعجز القلم عن شرح أبوابه وثوابه[1].

(١) الاقبال ص ٢٥٤.

آداب الطعام والشراب

ومن آداب شرب الذي يريد الشراب وأكل الطعام أن يستحضر المنة لله جل جلاله عليه كيف أكرمه أو أزاحه عن استخدامه في كل ما احتاج إلى الطعام والشراب إليه مذ يوم خلق ذلك وإلى حين يتقدم بين يديه، فإنه جل جلاله استخدم فيما يحتاج الإنسان إليه الملائكة الموكلين بتدبير الأفلاك والأرضين والأنبياء والأوصياء ونوابهم الموكلين بتدبير مصالح الآدميين والملوك والسلاطين ونوابهم وجنودهم الذين يحفظون بيضة الإسلام حتى يتهيأ الوصول إلى الطعام واستخدام كل من تعب في طعامه من أكّار ونجار وحدادين وحطابين وخبازين وطباخين ومن يقصر عن حصرهم بيان الأقلام ولسان حال الأفهام.

وكيف يحسن من عبد يريحه سيده من جميع هذا التعب والعناء ويحمل إليه طعامه وهو مستريح من هذا الشقاء فلا يرى له في ذلك منة كبيرة ولا صغيرة.

أفما يكون كأنه ميت القلب والعقل، أعمى عن نظر هذه النعم الكثيرة[1].

---

(١) الاقبال ص ٣٩٠.

الطعام والمال الحلال

وأما الإستظهار للصيام بإصلاح الطعام، فاعلم أنني إنما ذكرت أن ذلك من المهام لأنني وجدت الداخلين في صيام شهر رمضان باعتبار ما تقووا به من الطعام والشراب عدة أصناف.

صنف منهم كانت قوته على الصوم من طعام حرام فدخوله في الصيام كنحو من وجب عليه الحج وفرّط فيه فأخذ جملاً حراماً حج عليه.

وصنف منهم كانت قوته على الصوم من طعام حرام وحلال مختلطان فإن دخوله في الصيام كمن وجب عليه الحج وفرط فيه فأخذ جملاً له بعضه بقدر الحلال من الطعام ولغيره بعضه بقدر الحرام وحج عليه.

وصنف منهم كانت قوته على الصيام بطعام حرام لا يعلم كونه حراماً أو مختلطاً من حلال وحرام لا يعلم ذلك، ويعتقده حلالاً فهو كنحو من وجب عليه الحج ففرط فيه واستأجر جملاً لا يعلم أن الجمال غصبه أو كان ثمنه من حلال أو حرام واشتراه بعين الذهب فإذا ظفر صاحب الجمل أو الشريك بالجمل استعاده ومنعه من العمل أو شركه فيما حصل من الأمل.

وصنف كانت قوته على الصيام بطعام حلال لكنه كان يأكله أكل

الدواب بمجرد الشهوات فحاله كحال من دخل حضرة الملوك حين استدعوه للحضور لمجالستهم وضيافتهم وكرامتهم وما تأدب في المجيء إليهم في دوابه وثيابه وأسبابه، وكان في طريقه غافلاً عنهم ومهوناً بآداب السلوك إليهم، وقد كان قادراً أن يركب من الدواب ويلبس من الثياب ويستعمل من الأسباب ما يقربه إليهم فلم يفعل وأتلف ما أكله بالشهوات وأتلف ساعات من عمره كانت من بضائع السعادات، وخاصةً إذا كان السلطان مطلعاً عليه في طريقه وناظراً إلى سوء توفيقه فإن عاتبوه فبعدلهم وإن أكرموه ففضلهم، وحسبه أن نزل عن أن يكون ملكاً يقر بعين رب الأرباب ورضي أن يكون كالدواب.

وصنف منهم دخل في صيام شهر رمضان بقوة طعام كان قد اكتسبه بالمعاملة لمولاه جل جلاله وعمل فيه برضاه وأكل منه بحسب ما يقويه على خدمة مالكه، فهذا دخل دار ضيافتهم وكرامتهم من الباب الذي أرادوه واقتضى عدلهم وفضلهم أن يكرموه.

وصنف منهم دخل في الصيام من طعام كان تارة يكون فيه معاملاً لله جل جلاله وتارة معاملاً للشهوات، فله معاملة المراقبة وله وسيلة المراقبة فيما عامل مولاه به وعليه خطرات المعاتبة فيما ترك فيه معاملة مولاه بسوء أدبه.

واعلم أن هذه الأصناف المذكورين على أصناف أُخر صنف لما كان دخوله بطعام حرام وكان فطوره على حرام أو مختلط من حلال وحرام فله حكم الإصرار، وصنف لما كان طعامه على ما لا يعلمه حراماً أو مختلطاً وفطوره على مثل الذي ذكرناه فله وسيلة العذر بأنه ما تعمد سخط مولاه.

وصنف لما كان طعامه على مقتضى الشهوات وكان فطوره كذلك فهو قريب من الدواب في تلك الحركات والسكنات والصنف الذي عامل الله جل جلاله في الطعام والفطور وجميع الأمور فهو الذي ظفر برضا مولاه وتلقاه بالسرور.

وصنف لما كان طعامه على طرق مختلفة تارة معاملة لله جل جلاله وتارة للشهوة وفطوره كذلك فحاله كما قلناه في طعامه في نقصه وتمامه، وصنف لما كان طعامه إما حراماً أو مختلطاً أو للشهوة أو للشبهة لكنه هذب فطوره فكان في فطوره على حلال معامله لله جل جلاله فحاله حال المراقبين أو التائبين وهو قريب من المسعودين.

وصنف لما كان طعامه معاملة لله وكان فطوره للشهوة فحاله كحال من كان مجالساً للملوك أو قريباً منهم ثم فارقهم وقنع أن يكون بهيمة من الأنعام أو مفارقاً للأنام وبعيداً عنهم.

وإذا كان الأمر هكذا في خطر الطعام وكان قد تغلب بنو أمية وولاة كثيرون على فساد أموال أهل الإسلام ونقلها عن وجوهها الشرعية حتى لقد روينا من كتاب مسائل الرجال لمولانا أبي الحسن علي بن محمد الهادي عليه السلام قال محمد بن الحسن، قال محمد بن هارون الجلاب قلت له: روينا عن آبائك أنه يأتي على الناس زمان لا يكون شيء أعز من أخ أنيس أو كسب درهم من حلال، فقال لي: «يا أبا محمد إن العزيز موجود ولكنك في زمان ليس فيه شيء أعسر من درهم حلال أو أخ في الله عز وجل».

فقد روي لنا عن خواص العترة النبوية أن إخراج الخمس من الأموال المشتبهات سبب لتطهيرها من الشبهات، وهذا الوجه ظاهر

في التأويل لأن جميع الأموال ومن هي في يده مماليك لله جل جلاله، فله سبحانه أن يجعل تطهيرها بإخراج هذا القدر القليل ويوصل إلى كل ذي حق حقه لأجل الإيثار بالخمس لرسول الله ﷺ ولعترته ولأجل معونتهم على مقامهم الجليل.

وقد نص الله جل جلاله في القرآن الشريف على لسان رسوله ﷺ أن الدعاء طريق إلى القبول وبلوغ المأمول، فينبغي أن يدعو بعد الاستظهار بإخراج الخمس من كلِّ ما يتقلب فيه بما سوف نذكره عند وقت الإفطار من دعوات لزوال الشبهات[1].

(١) الاقبال ص ٢٥٥.

شهر رمضان

«اعلم أن شهر الصيام مثل دار ضيافة فتحت للأنام فيها من سائر أصناف الإكرام والإنعام ومن ذخائر خلع الأمان والرضوان وإطلاق كثير من الأُسراء بالعصيان وتواقيع بممالك ولايات ربانيات حاضرات ومستقبلات ومراتب عاليات ومواهب غاليات وطي بساط الغضب والعتاب والعقاب والإقبال على صلح أهل الجفاء لرب الأرباب، فينبغي أن يكون نهوض المسلم العارف المصدق بهذه المواهب إلى دخول دار الضيافة بها على فوائد تلك المطالب بالنشاط والإقبال والسرور وانشراح الصدور وإن كان قد عامل الله جل جلاله قبل الشهر المشار إليه معاملة لا ترضيه وهو خجلان من دخول دار ضيافته والحضور بين يديه لأجل ما سلف من معاصيه ولدار هذه الضيافة أبواب كثيرة بلسان الحال.

منها باب الغفلة فلا تلم به ولا تدخل منه لأنه باب لا يصلح إلا لأهل الإهمال وإنما يدخل من الباب الذي دخل منه قوم إدريس وقوم يونس عليهما السلام ومن كان على مثل سوء أعمالهم وظفروا منه بآمالهم، ويدخل من الباب الذي دخل منه أعظم المذنبين إبليس الذي قال الله جل جلاله ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥﴾ [الحجر: ٣٤-٣٥] فدخل عليه جل جلاله من باب تحريم

الإياس والقنوط من رحمته وقال: «اجعلني من المنظرين» فظفر منه جل جلاله بقضاء حاجته وإجابة مسألته.

ويدخل أهل العصيان من كل باب دخل منه عاصٍ انصلحت بالدخول منه حاله وتلقاه فيه سعوده وإقباله ويدخل على بساط الرحمة التي أجلس عليه سحرة فرعون لما حضروا لمحاربة رب الأرباب فظفروا منه جل جلاله بما لم يكن في الحساب من سعادة دار الثواب ويكون على الجالس المخالف لصاحب الرسالة آثار الحياء والخجالة لأجل ما كان قد أسلف من سوء المعاملة لمالك الجلالة وليظهر عليه من حسن الظن والشكر للمالك الرحيم الشفيق كيف شرفه بالإذن له في الدخول والجلوس مع أهل الإقبال والتوفيق إن شاء الله تعالى[1].

في ذكر النية في أول ليلة من شهر رمضان وأصناف الصائمين:

«إني وجدت في بعض الأخبار أن النية تكون أوائل أول ليلة من شهر رمضان، وإذا كان الصوم نهاراً فإن مقتضى الاستظهار أن تكون النية قبل ابتداء النهار لتكون في وجه الصوم وقبل أن تدخل بين النية وبين الدخول في الصوم شواغل الغفلة وسوء معاملات الأسرار، ويكون القصد بنية الصوم أنك تعبد الله جل جلاله بصومك واجباً لأنه أهل للعبادة وتعتقد أنه من أعظم المنة عليك حيث جعلك الله أهلاً لهذه السعادة، سواء قصدت بالنية الواحدة صوم الشهر كله أو جددت كل يوم نية لصوم ذلك اليوم، ليكون أبلغ لك في الظفر بفضله وأن تهيأ أن تكون نيتك أن تصوم عن كل ما شغل عن الله فذلك الصوم الذي تنافس المخلصون في مثله.

---

(١) الاقبال ص ٢٧٥.

واعلم أن الداخلين في الصيام على عدة أصناف وأقسام.

- فصنف دخلوا في الصوم بمجرد ترك الأكل والشرب بالنهار وما يقتضي الإفطار في ظاهر الأخبار، وما صامت جارحة من جوارحهم عن سوء آدابهم وفضائحهم، فهؤلاء يكون صومهم على قدر هذه الحال صوم أهل الإهمال.

- وصنف دخلوا في الصوم وحفظوا بعض جوارحهم عن سوء الآداب على مالك يوم الحساب، فكانوا في ذلك النهار مترددين بين الصوم بما حفظوه والإفطار بما ضيعوه.

- وصنف دخلوا في الصوم بزيادة النوافل والدعوات التي يعملونها بمقتضى العادات وهي سقيمة لسقم النيات فحال أعمالهم على قدر إهمالهم.

- وصنف دخلوا دار ضيافة الله جل جلاله في شهر الصيام، والقلوب غافلة والهمم متكاسلة والجوارح متثاقلة، فحالهم كحال من حمل هدايا إلى ملك ليعرضها عليه وهو كاره لحملها إليه وفيها عيوب تمنع من قبولها والإقبال عليه.

- وصنف دخلوا في الصوم وأصلحوا ما يتعلق بالجوارح ولكن لم يحفظوا القلب من الخطرات الشاغلة عن العمل الصالح، فهم كعامل دخل على سلطانه وقد أصلح رعيته بلسانه وأهمل ما يتعلق بإصلاح شأنه فهو مسؤول عن تقديم إصلاح الرعية على إصلاح ذاته وكيف أخّر مقدماً وقدّم مؤخراً وخاطر مع المطلع على إرادته.

- وصنف دخلوا في الصيام بطهارة العقول والقلوب على أقدام

المراقبة لعلام الغيوب حافظين ما استحفظهم إياه، فحالهم حال عبد تشرف برضا مولاه.

- وصنف ما قنعوا الله جل جلاله بحفظ العقول والقلوب والجوارح عن الذنوب والعيوب والقبائح حتى شغلوها بما وفقهم له من عمل راجح صالح، فهؤلاء أصحاب التجارة المربحة والمطالب المنجحة.

أقول: وقد يدخل في نيات أهل الصيام أخطار بعضها يفسد حال الصيام وبعضها ينقصه عن التمام وبعضها يدنيه من باب القبول وبعضها يكمل له شرف المأمول وهم أصناف:

- صنف منهم الذين يقصدون بالصوم طلب الثواب ولولاه ما صاموا ولا عاملوا به رب الأرباب، فهؤلاء معدودون من عبيد السوء الذين أعرضوا عما سبق لمولاهم من الإنعام عليهم وعن ما حضر من إحسانه إليهم وكأنهم إنما يعبدون الثواب المطلوب، وليسوا في الحقيقة عابدين لعلام الغيوب، وقد كان العقل قاضياً أن يبذلوا ما يقدرون عليه من الوسائل حتى يصلحوا للخدمة لمالك النعم الجلائل.

- وصنف قصدوا بالصوم السلامة من العقاب ولولا التهديد والوعيد بالنار وأحوال يوم الحساب ما صاموا، فهؤلاء من لئام العبيد حيث لم ينقادوا بالكرامة ولا رأوا مولاهم أهلاً للخدمة، فيسلكون معه سبيل الاستقامة، ولو لم يعرفوا أهوال عذابه ما وقفوا على مقدس بابه، فكأنهم في الحقيقة عابدون لذاتهم ليخلصوها من خطر عقوباتهم.

- وصنف صاموا خوفاً من الكفارات وما يقتضيه الإفطار من الغرامات، ولولا ذلك ما رأوا مولاهم أهلاً للطاعات ولا محلاً

للعبادات، فهؤلاء متعرضون لرد صومهم عليهم ومفارقون في ذلك مراد الله ومراد المرسل إليهم.

- وصنف صاموا عادة لا عبادة، وهم كالمسافرين في صومهم عما يراد الصوم لأجله وخارجون عن مراد مولاهم ومقدس ظله فحالهم كحال الساهي واللاهي والمعرض عن القبول والتناهي.

- وصنف صاموا خوفاً من أهل الإسلام وجزعاً من العار بترك الصيام إما للشك أو الجحود أو طلب الراحة في خدمة المعبود، فهؤلاء أموات المعنى أحياء الصورة، وكالصم الذين لا يسمعون داعي صاحب النعم الكثيرة، وكالعميان الذين لا يرون أن نفوسهم بيد مولاهم ذليلة مأسورة وقد قاربوا أن يكونوا كالدواب بل زادوا عليها لأنّها تعرف من يقوم بمصالحها وبما يحتاج إليه من الأسباب.

- وصنف صاموا لأجل أنهم سمعوا أن الصوم واجب في الشريعة المحمدية ﷺ فكان صومهم بمجرد هذه النية من غير معرفة بسبب الإيجاب، ولا ما عليهم لله جل جلاله من المنة في تعريضهم لسعادة الدنيا ويوم الحساب فلا يبعد أن يكونوا متعرضين للعتاب.

- وصنف صاموا وقصدوا بصومهم أن يعبدوا الله كما قدمناه لأنه أهل للعبادة فحالهم حال أهل السعادة.

- وصنف صاموا معتقدين أن المنة لله جل جلاله عليهم في صيامهم وثبوت أقدامهم عارفين بما في طاعته من إكرامهم وبلوغ مرامهم فهؤلاء أهل الظفر بكمال العنايات وجلال السعادات[1].

---

(١) الاقبال ص ٣٥٣.

الافطار

إعلم أن للصائم معاملة كلّف باستمرارها قبل صومه ومع صومه وبعد صومه، فهي مطلوبة منه قبل الإفطار. ومعه وبعد في الليل والنهار، وهي طهارة قلبه مما يكرهه مولاه واستعمال جوارحه فيما يقرّبه من رضاه، فهذا أمر مراد من العبد مدة مقامه في دنياه، وأما المعاملة المختصة بزيادة شهر رمضان فإن العبد إذا كان مع الله جل جلاله يتصرف بأمره في الصوم والإفطار في السر والإعلان فصومه طاعة سعيدة وإفطاره بأمر الله جل جلاله عبادة أيضاً جديدة، فيكون خروجه من الصوم إلى حكم الإفطار خروج ممتثل أمر الله جل جلاله وتابع لما يريده منه من الاختيار متشرفاً ومتلذذاً كيف ارتضاه سلطان الدنيا والآخرة أن يكون في بابه ومتعلقاً على خدمته ومنسوباً إلى دولته القاهرة، وكيف وفقه للقبول منه وسلمه من خطر الإعراض عنه، وإياه أن يعتقد أنه بدخول وقت الإفطار قد تشمر من حضرة المطالبة بطهارة الأسرار وإصلاح الأعمال في الليل والنهار وهو يعلم أن الله جل جلاله ما شمره إلا مزيد دوام إحسانه إليه وإقباله بالرحمة عليه وكيف يكون العبد مهوناً بإقبال مالك حاضر محسن إليه ويهون من ذلك ما لا يهون ألم يسمع مولاه يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريَات: ٥٦][1].

(١) الاقبال ص ٣٨٩.

وداع شهر رمضان

ومن ذلك ما يتعلق بوداع شهر رمضان فنقول: إن سأل سائل فقال ما معنى الوداع لشهر رمضان وليس هو من الحيوان الذي يُخاطبُ أو يعقل ما يقال له باللسان.

فاعلم أن عادة ذوي العقول قبل الرسول ومع الرسول وبعد الرسول ﷺ يخاطبون الديار والأوطان والشباب وأوقات الصفاء والأمان والإحسان ببيان المقال وهو محادثة لها بلسان الحال، فلما جاء أدب الإسلام أمضى ما شهدت بجوازه من ذلك أحكام العقول والأفهام ونطق به مقدس القرآن المجيد فقال جل جلاله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

فأخبر أن جهنم ترد الجواب بالمقال، وهو إشارة إلى لسان الحال، وذكر كثيراً في القرآن الشريف وفي كلام النبي والأئمة عليهم السلام وكلام أهل التعريف فلا يحتاج ذوو الألباب إلى الإطالة في الجواب.

فلما كان شهر رمضان قد صاحبه ذوو العناية به من أهل الإسلام والإيمان أفضل لهم من صحبة الديار والمنازل وأنفع من الأهل وأرفع من الأعيان والأمثال اقتضت دواعي لسان الحال أن يودع عند الفراق والانفصال».

«إعلم أن الوداع لشهر رمضان يحتاج إلى زيادة بيان والناس فيه على طبقات، طبقة منهم كانوا في شهر رمضان على مراد الله جل جلاله وآدابه فيه في السر والإعلان فهؤلاء يودعون شهر الصيام وداع من صاحبه بالصفاء والوفاء وحفظ الذمام كما تضمنه وداع مولانا زين العابدين عليه السلام.

وطبقة منهم صاحبوا شهر رمضان تارة يكونون معه على مراد الله جل جلاله في بعض الأزمان وتارة يفارقون شروطه بالغفلة أو بالعصيان فهؤلاء إن اتفق خروج شهر رمضان وهم مفارقون له في الآداب والاصطحاب فالمفارقون لا يودعون ولا هم يجتمعون وإنما الوداع لمن كان مرافقاً وموافقاً في مقتضى العقول والألباب وإن اتفق خروج شهر رمضان وهم في حال حسن صحبته فلهم أن يودعوه على قدر ما عاملوه في حفظ حرمته وأن يستغفروا ويندموا على ما فرطوا فيه من إضاعة شروط الصحبة والوفاء ويبالغوا عند الوداع في التلهف والتأسف كيف عاملوه بوقت من الأوقات بالجفاء وطبقة ما كانوا في شهر رمضان مصاحبين له بالقلوب بل كان فيهم من هو كاره لشهر الصيام لأنه كان يقطعهم من عادتهم في التهوين مراقبة علاّم الغيوب فهؤلاء ما كانوا مع شهر رمضان حتى يودعوه عند الإنفصال ولا أحسنوا المجاورة له لما نزل بالقرب من دارهم وتكرهوا به واستقبلوه بسوء اختيارهم فلا معنى لوداعهم له عند انفصاله ولا يلتفت إلى ما تضمنه لفظ وداعهم وسوء مقالهم.

أقول: فلا تكن أيها الإنسان ممن نزل به ضيف غني عنه وما نزل به ضيف منذ سنة أشرف منه، وقد حضره للإنعام عليه وحمل إليه معه

تحف السعادات وشرف العنايات وما لا يبلغه وصف المقال من الآمال والإقبال، فأساء مجاورة هذا الضيف الكريم وجفاه وهوّن به وعامل معه معاملة المضيف اللئيم فانصرف الكريم ذاماً لضيافته وبقي الذي نزل به في فضيحة تقصيره وسوء مجاورته أو في عار تأسفه وندامته، فكن إما محسناً في الضيافة والمعرفة بحقوق ما وصل به هذا الضيف من السعادة والرحمة والرأفة والأمن من المخافة، أو كن لا له ولا عليه، فلا تصاحبه بالكراهة وسوء الأدب عليه، وإنما تهلك بأعمالك السخيفة نفسك الضعيفة وتشهرها بالفضائح والنقصان في ديوان الملوك والأعيان الذين ظفروا بالأمان والرضوان.

واعلم أن وقت الوداع لشهر الصيام رويناه عن أحد الأئمة عليهم السلام من كتاب فيه مسائل جماعة من أعيان الأصحاب وقد وقع عليه السلام بعد كل مسألة بالجواب، وهذا لفظ ما وجدناه من وداع شهر رمضان، متى يكون فقد اختلف أصحابنا فقال بعضهم هو في آخر ليلة منه، وبعضهم قال هو في آخر يوم منه إذا رأى هلال شوال؟

«**الجواب**: العمل في شهر رمضان في لياليه، والوداع يقع في آخر ليلة منه، فإن خاف أن ينقص الشهر جعله في ليلتين».

قلت: هذا لفظ ما رأيناه ورويناه فاجتهد في وقت الوداع على إصلاح السريرة فالإنسان على نفسه بصيرة، وتخير لوقت وداع الفضل الذي كان في شهر رمضان أصلح أوقاتك في حسن صحبته وجميل ضيافته ومعاملته من آخر ليلة منه كما رويناه، فإن فاتك الوداع في آخر ليلة ففي أواخر نهار المفارقة له والانفصال عنه، فمتى وجدت في تلك الليلة أو ذلك اليوم نفسك على حال صالحة في صحبة شهر

رمضان فودعه في ذلك الأوان وداع أهل الصفاء والوفاء الذين يعرفون حق الضيف العظيم الإحسان، واقض من حق التأسف على مفارقته وبعده بقدر ما فاتك من شرف ضيافته وفوائد رفده وأطلق من ذخائر دموع الوداع ما جرت به عوائد الأحبة إذا تفرقوا بعد الإجتماع[1].

* * *

واعلم أنك تدعي في بعض هذه الوداعات أن شهر رمضان أحزنك فراقه وفقده وأوجعك لما فات من فضله ورفده، فيراد منك تصديق هذه الدعوى بأن يكون على وجهك أثر الحزن والبلوى، ولا تختم آخر يوم منه بالكذب في المقال والخلل في الأفعال.

ومن وظائف الشيعة الإمامية بل من وظائف الأمة المحمدية أن يستوحشوا في هذه الأوقات ويتأسفوا عند أمثال هذه المقامات على ما فاتهم من أيام المهدي الذي بشَّرَهُم ووعَدَهُم به جده محمد ﷺ على ما قد لو كان حاضراً ظفروا به من السعادات ليراهم الله جل جلاله على قدم الصفاء والوفاء لملوكهم الذين كانوا سبب سعادتهم في الدنيا ويوم الوعيد وليقولوا ما معناه:

أُردِّدُهُ طرفي في الديارِ فلا أرَى

وجوه أحبائي الذين أُريدُ

فالمصيبة بفقده على أهل الأديان أعظم من المصيبة بفقد شهر رمضان، فلو كانوا قد فقدوا والداً شفيقاً أو أخاً معاضداً شقيقاً أو ولداً باراً رفيقاً أما كانوا يستوحشون لفقده ويتوجعون لبعده، وأين

(١) الاقبال ص ٥٤٠.

الانتفاع بهؤلاء من الانتفاع بالمهدي خليفة خاتم الأنبياء وإمام عيسى بن مريم في الصلاة والولاء ومُزيل أنواع البلاء ومصلح أمور جميع من تحت السماء؟![1]

* * *

ومنها اعتبار جريدة أعمالك من أول الشهر إلى آخر يوم منه وقبل انفصاله فيجلس بين يدي مالك يوم الحساب على التراب أو بحسب ما يتهيأ جلوسه عليه بلزوم الآداب ويحاسب نفسه محاسبة المملوك الضعيف الحقير مع مالكه المطلع على الكبير والصغير، فينظر ما كان عليه من حيث دخل دار ضيافة الله جل جلاله والحُضُور بين يديه ويعتبر معارفه بالله جل جلاله وبرسوله ﷺ وبخاصته وبما عرفه من الأمور التي هي من مهام تكليفه في دنياه وتشريفه في آخرته، وهل ازداد معرفة بها وحُباً لها وإقبالاً عليها ونشاطاً وميلاً إليها؟ أم حاله في التقصير على ما دخل عليه في أول الشهر من سوء التدبير.

وكذلك حال رضاه بتدبير الله جل جلاله هل هو قام في جميع أموره أو تارةً يرضى وتارةً يكره ما يختاره الله جل جلاله من تدبيره؟ وكيف توكله على الله جل جلاله؟ هل هو على غاية ما يراد منه من السكون إلى مولاه أو يحتاج إلى الثقة بالله جل جلاله إلى غير الله جل جلاله من علائق دنياه؟ وكيف تفويضه إلى مالك أمره؟ وكيف استحضاره لمراقبة اطلاع الله جل جلاله على سره وكيف أُنسه بالله في خلواته وجلواته؟ وكيف وثوقه بوُعود الله جل جلاله وتصديقه لإنجاز عداته؟ وكيف إيثاره لله جل جلاله على من سواه؟ وكيف حبه له

---

(١) الاقبال ص ٥٥٩.

وطلب قربه منه واهتمامه بتحصيل رضاه؟ وكيف شوقه إلى الخلاص من دار الإبتلاء والانتقال إلى منازل الأمان من الجفاء؟ وهل هو مستقيل من التكليف أو يعتقد أن ذلك من أفضل التشريف؟ وكيف كراهته لما كره الله جل جلاله من الغيبة والكذب والنميمة والحسد وحب الرياسة وكلما يشغله عن مالك دنياه ومعاده وغير ذلك من الأسقام للأديان التي تعرض لإنسان دون إنسان وفي زمان دون زمان بكل مرض كان قد زال حمد الله جل جلاله على زواله وقام بما يتهيأ له من قضاء حق إنعام الله جل جلاله وإفضاله، وليكن سروره بزوال أمراض الأديان أهم عنده من زوال أمراض الأبدان وأكمل من المسار بالظفر بالغنى بالدرهم والدينار، ليكون عليه شعار التصديق بمقدار التفاوت بين الانتفاع بالدنيا الفانية والآخرة الباقية.

فإن رأى شيئاً من أمراضه وسوء أعراضه قد تخلف وما نفع فيه علاج الشهر بعبادته فليعتقد أن الذنب له وإنما أتاه البلاء من جهته فيبكي بين يدي مالك رقبته ويستعين برحمته على إزالته[1].

---

(١) الاقبال ص ٥٦٧.

الاعتكاف

«واعلم أن كمال الاعتكاف هو إيقاف العقول والقلوب والجوارح على مجرد العمل الصالح، وحبسها على باب الله جل جلاله وتقدس وإرادته وتقييدها بقيود مراقباته، وصيانتها عما يصون الصائم كمال صومه عنه ويزيد على احتياط الصائم في صومه زيادة معنى المراد من الاعتكاف والتلزم بإقباله على الله وترك الإعراض عنه، فمتى أطلق المعتكف خاطراً لغير الله في طرق أنوار عقله وقلبه أو استعمل جارحة في غير الطاعة لربه فإنه يكون قد أفسد من حقيقة كمال الاعتكاف بقدر ما غفل أو هوّن به من كمال الأوصاف»[1].

(١) الاقبال ص ٤٨٣.

صلاة العيد

«أيها الأخ المقبل بإقبال مولاه عليه لتعلم كيف تحضر بين يدي،ه إرحم ضعف روحك وأقبل مشورة نصيحك، وأفكر في تعظيم من هو مقبل عليك، وطهّر قلبك من الشواغل التي تحول بينك وبين إحسانه إليك، ووفّ المجلس ما تقدر عليه من حقه العظيم وامض على ما تريد من الصراط المستقيم، ولتكن نيتك وقصدك طلب رضاه والدخول في حماه واعتقاد المنة لله جل جلاله فيما هداك إليه وأهلك أن تعمله لديه، وقم به إليه قيام التمام بالإقبال عليه واعلم أن المتوجهين إلى الله جل جلاله في اليوم الذي سماه جل جلاله عيداً لعبيده وإنجازاً لوعوده وأمرهم بالخروج إليه والوفادة عليه.

فإن الناس المتوجهين فيه على أصناف.

فصنف خرجوا وقد شغلتهم هيبة الله جل جلاله وعظمته وذهول العقول عن مقابلة رحمته وإجابة دعوته حتى صاروا كما يصير من لم يحضر أبداً عند خليفة، فاستدعاه للحضور بين يدي عظمته الشريفة فإنه يكون متردداً بين الحياء والخجالة للقاء تلك الجلالة، وبين خوف سوء الآداب وبين أمواج العجز عن الجرأة بالخطاب والتماس الجواب وبين الفكر في ماذا عساه يكون قد اطلع الخليفة عليه من

أحواله وسوء أعماله فتشغله هذه الشواغل عن بسط كف سؤاله وإطلاق لسان حاله.

وصنف توجهوا إلى الله جل جلاله وهم ذاكرون ما تولاه الله جل جلاله لهم من بناء السموات والأرضين، وما بينهما وفيهما من منافع الدنيا والدين وتسييرهم من لدن آدم عليه السلام في طرقات مخالفات الولادات والنجاة من آفات ألوف السنين إلى حين هذه الغايات وقيامه لهم خلفاً بعد سلفٍ بما احتاجوا إليه من الأقوات وجميع الحاجات فأخجلهم ما مضى من إنعامه وما حضر من إكرامه عن طلب شيء آخر من شريف مقامه.

وصنف رأوا أن بضائع ما مكنهم فيه من الاختيار قد عاملوه فيها بالخُسران وودائع ما سلم إليهم من الاقتدار على عمارة دار القرار قد خاموا فيها في السر والإعلان فكساهم ذل الخيانة في الأمانة عار الخجل والوجل حتى ما بقي عندهم فراغ لرجاء ولا أمل.

وصنف خرجوا يوم العيد على مراكب دالة أعمالهم والتبسط في سؤالهم لابسين ثوب الغفلة عن خالق مراكب إمكانهم وفاطر قالب أعمالهم مدة حياتهم وزمانهم، وعن المنّة عليهم في الإنشاء والبقاء وما اشتمل عليه وجودهم من النعماء والآلاء، فهؤلاء كالعميان المحتاجين إلى قائد، وكالمرضى الذين يحتاجون إلى طبيب يقبلون منه وإلى عائد.

وصنف خرجوا يطلبون أجرة ما عملوه في شهر رمضان وقد بسطوا على أنفسهم لسان حال المحاسبة لهم على ما عمل معهم مولاهم من الإحسان، وقال لسان حال عدله إذا كان كل منكم يطلب

أجرة فعله، فاذكروا أفعالنا لأجلكم قبل وجودكم ومدة حياتكم من لدن أبيكم آدم وعملنا مع آبائكم وأمهاتكم وجدودكم، وأفكروا في أجرة كل من استخدمناه في مصلحتكم من الملائكة والأنبياء والمرسلين والملوك والسلاطين وغيرهم من جميع عبيدنا من الماضين والحاضرين، فانظروا مقدار الفاضل عن أجرة أعمالنا فأدوه إلينا ثم تعرضوا لسؤالنا حيث عدلتم عن باب الإعتراف لنا بالفضل ووقفتم على باب طلب الأجرة بالعدل.

وصنف فكروا في ما عمل مولاهم من قبل إنشائهم بطول بقائهم ومن أول آبائهم إلى حين فنائهم، وما يحتاجون أن يعمل معهم في دار بقائهم فاستحقروا ما كانوا فيه من أعمالهم ولم يبق لها محل في حضرة ابتهالهم وما بقي لهم لسان حال ولا بيان مقال يذكرونها في حضرة آمالهم وسؤالهم، بل مدوا أكف لسان الحال قبل الوجود إلى كعبة الكرم والجود.

وصنف خرجوا إلى الله جل جلاله وقد لبسوا خلع المعرفة بقدر المنة عليهم وبإقباله جل جلاله عليهم وحضورهم للإحسان إليهم وليس لهم خاطر ولا ناظر يتردد منذ نشروا إلى حيث حضروا في غير طرق الاعتراف بالمنن للمالك الأرحم والاشتغال بحمد جلاله الأعظم، ويتمنى لسان حالهم أن لو كان لهم قدرة أن يكونوا موجودين في الأزل وما لا يزال مع وجوده، وكل منهم باذل غاية مجهوده في خدمة معبوده وشكر جوده لرأى ذلك قاصراً عن مقصوده، ولولا خوف المخالفة لما يراه لتمنى كل منهم أن لا يفارق باب الخدمة دنياه وآخرته، فما أسعد موقف هؤلاء العبيد في يوم العيد،

فاقتد أيها الأخ بأهل هذا الحظ السعيد وسر في آثارهم واهتد بأنوارهم».

بإسنادنا إلى محمد بن يعقوب وغيره بإسناده إلى عمرو بن شمر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «إذا كان أول يوم من شوال نادى منادٍ: أيها المؤمنون أغدُوا إلى جوائزكم» ثم قال: «يا جابر جوائز الله ليست كجوائز هؤلاء الملوك ثم قال هو يوم الجوائز».

أقول: وكنت أجد جماعة من أصحابنا يأخذون التربة الشريفة من ضريح مولانا الحسين عليه السلام ليلة ثلاثة وعشرين من شهر رمضان فقلت لمن قلت له منهم: هل وجدتم أثراً أو خبراً بأخذ هذه التربة في هذه الليلة؟ فقالوا: لا، لكن نرجو أن يكون ليلة القدر.

فقلت: فما أراكم تتركون بعد هذه الليلة الدعاء في كل يوم بالظفر بليلة القدر من تمام العشر الأخير ولأنها لو كانت ليلة القدر على التقدير من أين عرفتم أن ليلة القدر المنيفة محل لأخذ التربة الشريفة، ثم قلت: كان مقتضى المعقول وظواهر المنقول يقتضي أن يكون أخذ التربة للشفاء والدواء ودفع أنواع البلاء في وقت إطلاق الجوائز للأنام وهو يوم جوائز شهر الصيام فيسأل العبد يوم العيد أن يكون من جملة جوائزه التي ينعم الله جل جلاله بها عليه الإذن في أخذ تربة الحسين عليه السلام فيأتي أخذها في وقت إطلاق العطايا والمواهب الجزيلة مناسباً لإطلاق التربة المقدسة الجليلة[1].

* * *

(١) الاقبال ص ٥٨٧.

«واعلم أنني كنت يوماً من أيام الأعياد قد قمت من السجادة لأجلس على التراب وأُصلي صلاة العيد على المأمور به من الآداب، فأردت أن أجعل ذلك على سبيل العبادة لله جل جلاله لأنه أهل للعبادة، فورد على خاطري ما معناه، أُذكر كيف نقلناك من هذا التراب الذي تجلس عليه إلى ما قد بلغنا بك إليه من التكريم والتعظيم وتسخيرنا لك ما سخرناه من الأفلاك والدنيا والآخرة والملك العظيم، واشتغل بالشكر لنا واعتقاد المنة العظيمة عن تطلع خاطرك إلى الوسيلة إلينا بهذه الخدمة اليسيرة السقيمة، فإننا إذا رأيناك تقدم حقنا على ما يقع منك من الخدم كان أثبت لك في رُسُوخ القدم وسبوغ النعم ودفع النقم وأدب العبودية وبلوغ الأمنية، وقل بالرحمة والجود وجميع الوسائل التي نقلتني بها من ذلك المقام النازل إلى هذا الفضل الشامل الكامل: «صل على محمد وآل محمد وانقلني عما تكره وقوفه مني إلى ما يرضيك عني»[1].

* * *

فيما نذكره من كيفية الحضور بين يدي الله جل جلاله وقت صلاة العيد والدعاء عند ذلك المقام السعي.

إعلم أننا قدمنا في كتاب عمل اليوم والليلة من كيفية الحضور بين يدي الله جل جلاله للصلوات ما فيه فوائد لأهل العنايات بهذه العبادات ونقول ههنا زيادات.

وهو أن للحضور في خدمة مولى المماليك والعبيد لصلاة العبد زيادة استعداد لأهل الإخلاص والاجتهاد، وذلك أنه يوم ترجيح مقام

(١) الاقبال ص ٥٩٢.

جانب العفو والغفران والأمان والإحسان والرضوان على جانب المؤاخذة على الذنوب والعيوب والعصيان، وهو يوم الإذن في بسط أكف السؤال ومدها إلى محل القبول والإقبال ووقت الإطلاق لركائب الآمال في الورود على كعبة الكرم والإفضال، وزمان طي بساط الغضب والعقاب وغلق باب التعنيف والعتاب، وليكن العبد الحاضر لصلاة هذا اليوم المبشِّر لإعتاق أهل الاسترقاق بالعتاق والمهني لأهل حبوس النحوس بالإطلاق والمقوي أصحاب العجز في ميدان الإمكان حتى يشرفهم باللحاق لأهل السباق باذلاً للمجهود في شكر مالك الجود على تأهيله لذلك المقام المسعود وليكن على وجه قلبه ولسانه وجنانه أنوار الثقة بما بذله مولاه من غفرانه وأمانه ورضوانه، فإن الملك إذا وثق عبيده من جوده ورآهم غير قائمين بما يطيقون من شكره وتحميده ولا واثقين بإنجاز وعوده كانوا مخاطرين في الوقوف بين يديه أو مستهزئين بتهوينهم باطلاعه على سوء ظنهم بما دعاهم إليه، بل إذا آمنك الموثوق بأمانه فكن من الآمنين ولو كان لك عنده ذنوب العالمين، وإذا دعاك إلى حسن الظن بجوده والثقة بإنجاز وعوده فكن من أعظم الواثقين، فلو لم يكن في ذلك من الشرف والوسيلة إلى الإقبال وبلوغ الآمال إلا تجميل ذكر مولاك وتزكيته وتصديقه في الفعال والمقال فيوشك أن تثمر شجرة حسن ظنك واعتقادك في مآلك من أدل ثمار إسعادك وإنجادك في دنياك ومعادك[1].

* * *

(١) الاقبال ص ٥٩٥.

إعلم أن يوم إطلاق الخلع من الملوك على الأتباع والأولياء هو يوم اشتغال من رحموه وأكرمُوه بالحمد والشكر والثناء وحماية جنابهم الشريف وبابهم المقدس المنيف عن كل ما يكدر صفو إقبالهم أو يغير إحسانهم إليه، فكن رحمك الله ذلك اليوم على أتم مراقبة لهذا اليوم المحسن إليك المطلع عليك، فكذا عادة العبد الكريم الأوصاف يكون استرقاقه بالإنعام والإحسان أصفى سريرة وأكمل سيرة من يوم تستعبد فيه العبيد اللئام بالإستخفاف والهوان فلا تكن بالله مملوكاً لئيماً وقد مكنك أن تكون ملكاً كريماً، فلا أقل من حفظ إقباله عليك ومراعاة إحسانه إليك مقدار ذلك النهار.

واختمه بخاتمة الأبرار الأخيار ببسط أكف السؤال وإطلاق لسان الإبتهال في أن يلهمك أن تكون معه كما يريد منك ويرضى به عنك مدة مقامك في دار الزوال فليس ذلك بعزيز ولا غريب ممن أنهضك من ذلك التراب ونطف الأصلاب حتى عرض عليك أن تقوم له مقام جليس وحبيب وأهلك لارتقاء مدارج العبادات والأكرمية عنده جل جلاله بالتقوى الذي هو أُس العبادات وأساسها كما يقول عز من قائل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣].

فشمِّر في ذلك الأمر الجليل وانتهز الفرصة واغتنمها والهل هو الملهم للصواب وإليه المرجعُ والمآب[1].

* * *

أُذكر أيها الإنسان أن الله جل جلاله سبقك بالإحسان قبل أن تعرفه وقبل أن تتقرب إليه بشيءٍ من الطاعات، فهيّأ لك كل ما كنت

(١) الاقبال ص ٦٠٩.

محتاجاً إليه من المهمات حتى بعث لك رسولاً من أعز الخلائق عليه يزيل ملوك الكفار ويقطع دابر الأشرار الذين يحولون بينك وبين فوائد أسراره ويشغلونك عن الاهتداء بأنواره، فأطفأ نار الكافرين وأذل رقاب ملوك اليهود والنصارى والملحدين، ولم يكلفك أن تكون في تلك الأوقات من المجاهدين ولا تكلفت خطراً ولا تحملت ضرراً في استقامة هذا الدين، وجاءتك العبادات في عافية ونعمة صافية مما كان فيه سيد المرسلين وخواص عترته الطاهرين عليهم السلام ومما جاهد عليه ووصل إليه السلف من المسلمين، فلا تنس المنة عليك وسلامتك من تلك الأهوال وما ظفرت به من الآمال والإقبال، وجرِّ بلسان الحال بنظرك، واذكر بخاطرك القتلى الذين سفكت دماؤهم في مصلحتك وهدايتك من أهل الكفر وأهل الإسلام حتى ظفرت أنت بسعادتك وكم خرّب من بلاد عامرة وأهلك من أُمم غابرة، ثم اذكر إبراز الله جل جلاله أسراره بيوم العيد وأظهر لك أنواره بذلك الوقت السعيد من مخزون ما كان مستوراً عن الأمم الماضية والقرون الخالية وجعلك أهلاً أن تزور عظمته وحضرته فيه وتحدثه بغير واسطة وتناجيه، فهل كان هذا في حسنات نطفتك أو علقتك أو مضغتك أو لما كنت جنيناً ضعيفاً أو لما صرت رضيعاً لطيفاً أو لما كنت ناشئاً صغيراً أو هل وجدت لك في ذلك تدبيراً فكن رحمك الله عبداً مطيعاً ومملوكاً سميعاً لذلك المالك السالك بك في تلك المسالك، الواقي لك من المهالك، فوالله إنه لقبيح بك مع سلامة عقلك وما وهب لك من فضله الذي صرت تعتقده من فضلك أن تعمى أو تتعامى عن هذا الإحسان الخارق للألباب أو أن تشغل عنه أو تؤثر عليه شيئاً من الأسباب.

فاستقبل هداية الله جل جلاله إليك يوم عيده بتعظيمه وتمجيده والقيام بحق وعوده والخوف من وعيده فرحك وسرورك بما في ذلك من المسار والمبار على قدر الواهب جل جلاله وعلى قدر ما كنت عليه من ذلك التراب، وعقبات النشأة الأولى وما كان فيها من الأخطار، وترددك في الأصلاب والأرحام أُلوفاً كثيرة من الأعوام يُسارُ بك في تلك المضايق على مركب السلامة من العوائق حتى وصلت إلى هذا المسافة وأنت مشمول بالرحمة والرأفة وموصولٌ بموائد الضيافة آمناً من المخافة، فالعجب كل العجب لك إن جهلت قدر المنة عليك فيما تولاه الله جل جلاله من الإحسان إليك، فاشتغل بما يريد وقد كفاك كل هول شديد وهو جل جلاله كافيك ما قد بقي بذلك اللطف والعطف الذي أجراه على المماليك والعبيد[1].

(١) الاقبال ص ٧٣١.

يوم دحو الأرض

التنبيه على فضل الله بدحو الأرض

«إعلم أن كل حيوان فإنه مضطرٌّ إلى مسكن يسكن فيه ويتحصن به مما يؤذيه، فمن أعظم المنن الجسام إنشاء الأرض للأنام، ومن أسرار ما في ذلك من الأنام أن الله جل جلاله لم يجعل بناء الأرض وتدبير إنشائها إلى ملائكته ولا غيرهم من خاصته، وتولاها بيد قدرته ورحمته، وملأها من كنوز حلمه وعفوه ورأفته.

فاذكر أيها الإنسان المتشرف بنور الألباب المعترف بالإقرار برب الأرباب أنه لو كنت في دار الفناء فقيراً يتعذر عليك تحصيل مسكن للبقاء تتحصن فيه من حر الصيف وبرد الشتاء ولا معك ثمن ولا أجرة العمارة للبناء فرحمك سلطان ذلك الزمان وبنى لك مسكناً بيده وملأه مما يحتاج إليه من الإحسان وما أتعب لك فيه قلباً ولا جسداً ولا قدماً ولا يداً ولا أهلاً ولا ولداً بل عمره وأنت ما عرفت ذلك السُّلطان ولا خدمته، ثم دعاك لتسكن فيما عمره بيده لك فسكنته ووجدته قد ملأه من ذخائر العناية بك، فكيف كان يكون محبتك لذلك السلطان العظيم ومراقبتك لحقه الجسيم واعترافك بإحسانه

العميم، فليكن الله جل جلاله عندك على أقل المراتب مثل ذلك السلطان المملوك لربك جل جلاله الذي هو أصل المواهب.

وليكن كل يوم يأتي فيه وقت إنشاء المسكن الجديد كيوم العيد معترفاً لمولاك المجيد بحقه الشامل للعبيد، وكن مشغولاً رحمك الله ذلك اليوم وغيره بالشكر لله جل جلاله والتحميد والتمجيد، وإياك أن يمر عليك مثل هذا اليوم وأنت متهاون بقدره ومتغافل عن مولاك وعظيم شأنه ومتثاقل عن واجب شكره فتسقط من عين عنايته وتهون وتدخل تحت ذل ذمة جل جلاله لك في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

وتذكر رحمك الله أنك لو احتجت إلى فراش في دارك وبساط تجلس عليه لمسارك، ففرش لك ذلك الفراش وذلك البساط بيده كيف تكون في المراقبة والمحبة والخدمة له بنفسك ومالك ولسانك وأهلك وولدك، فلا يكن الله جل جلاله عندك دون هذه الحال وقد بسط لك الأرض فراشاً وجعل لك فيها معاشاً، وتذكر رحمك الله جل جلاله منته عليك وإحسانه إليك كيف أنزل الكعبة الشريفة وجعلها باباً إليه ومحلاً لفتح أبواب عفوه ورحمته عند الجرأة عليه، واسترضاك وأنت ملطخ بأنجاس الذنوب وأدناس العيوب أن تزوره إليها وأن تكون قبلة لك إذا أردت التوجه إليه توجهت إليها، وارحم ضعف قلبك وكبدك ورقة نفسك وجسدك، فلا تعرض لخطر أن يكون مولاك ومالك دنياك وأخراك مقبلاً عليك يدعوك إليه وأنت معرض عنه متمرد عليه، ويحك من أين يأتيك وجودك إذا ضيعته، ومن أين يأتيك بقاؤك إذا أهملته، ومن أين يأتيك حياتك إذا أعرضت عنه،

ومن أين يأتيك عافيتك إذا هربت منه، ومن يحميك من بأسه الشديد، ومن يدفع عنه ومن أين يأتيك عافيتك إذا هربت منه، ومن يحميك من بأسه الشديد ومن يدفع عنك غضبه إذا غضب من قريب أو بعيد ومن ترجوه لنوائبك ومصائبك وأسقامك وبلوغ مرامك إذا خرجت من حماه وهجرته وآثرت عليه ما لا رقاء له لولاه، عد ويحك إلى الطواف حول كعبة كرمه، وطُف بالذل على أبواب حلمه ورحمته وسالف نعمه، وأجر على الخدود دموع الخشوع، وجد بماء الجفون قبل نفاد ماء الدموع، وابك على قدرك لحبه وقربه، واندب على ما فرطت فيه ندب العارف بعظيم ذنبه العاجز عن تفريج كربه فإنك تجده جل جلاله بك رحيماً وعنك حليماً، وعليك عطوفاً وباحتمال سفهك رؤوفاً، فلمن تدخر الذل أحق به منه ولِمَن تصون الدمع إذا حبسته عنه، واذكرني بالله عند تلك الساعة فيما تناجيه جل جلاله من الدعاء والضراعة[1].

* * *

فيما نذكره مما ينبغي أن يكون المكلف عليه في اليوم المشار إليه. إعلم أن من مهمات أهل السعادات عند تجديد النعم الباهرات أن يكونوا مشغولين بالشكر لواهب تلك العنايات، وخاصة إن كان العبد ما هو في حالاته موافقاً لمولاه في إرادته وكراهاته، بل يكره سيده شيئاً فيخالفه في كراهته ويحب سيده شيئاً فيخالفه في محبته، ويعامل أصدقائه ومعارفه بالصفاء والوفاء أكثر مما يعامل بذلك مالك الأشياء ومن بيده تدبير دار الفناء ودار البقاء، وإليه ورود ركائب

(١) الاقبال ص ٦١٧.

الآمال والرجاء، فليكن متعجباً كيف علم الله جل جلاله أن هذا العبد يكون إذا خلقه على هذه الصفات من المخالفات له والمعارضات، ومع ذلك فبنى له المساكن وخلق له فيها ما يحتاج إليه إلى الممات ولم يؤاخذه ولم يعاجله بالجنايات وعامله معاملة أهل الطاعات ويحسن أن يكون على الإنسان إن كان مطيعاً لربه إثر ما وهبه من المسكن وأعطاه فيه من الإحسان كما لو اشترى داراً يحتاج إليه أو وهبه سلطان مساكن كان مضطراً إليها أو كما لو بنى هو داراً بالتعب والعناء ومقاساة الذرجارية والبناء أو يكون مسروراً على أقل الصفات كما لو حصل له دار عاريةً أو بإجارة هو محتاجٌ إليها في تلك الأوقات، فأما إن خلى قلبه بالكلية من معرفة هذه النعم الإلهية فكأنه كالميت الذي لا يحس بما فيه أو كالأعمى الذي لا ينظر إلى المواهب التي فضله ممن يراعيه أو كالأصم الذي لا يسمع من يناديه وليبك على فقدان فوائد قلبه وعقله ويتوب[1].

* * *

فيما نذكره مما يختم به ذلك اليوم. إعلم أن كل يوم سعيد وفصل جديد ينبغي أن يكون خاتمته على العبيد كما لو بسط ملِكٌ لعباده بساط ضيافة يليق بإرفاده، وقدّم إليهم موائد سعاده ثم جلسوا على فراش إكرامه فأكلوا ما احتاجوا إليه من طعامه وقاموا عن البساط ليطوى إلى سنة أُخرى فلا يليق بعبد يعرف قدر تلك النعمة الكبرى إلا أن يراه سلطانه لإنعامه شاكراً ولإكرامه ذاكراً ولفضائل مقامه، ناشراً على أفضل العبودية للجلالة الإلهية ويجعل آخر ذلك

---

(١) الاقبال ص ٦٢٠.

النهار كل الملاطفة للمطلع على الأسرار أن يقبل منه ما عمله ويبلغه من مراحمه ومكارم أمله ويطيع في طاعته أجله فإنه يوشك إذا اجتهد العبد في لزوم الأدب لكل يوم سعيد أن يؤهله الله تعالى للمزيد: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧][1].

(١) المصدر نفسه ص ٦٢١.

عيد الغدير

إعلم أن كل عيد جديد أطلق الله جل جلاله فيه شيئاً من الجود لعبد سعيد، فإنما يكون إطلاقه جل جلاله لذلك الإحسان لمن ظفر بمعرفة الله جل جلاله ومعرفة رسوله ﷺ وإمام الزمان وكان صحيح الإيمان، فإن النقل عن صاحب الشريعة النبوية ورد متظاهراً أنه «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»

وهذا عيد يوم الغدير الثامن عشر من ذي الحجة فيه كشف الله ورسوله عن واضح المحجة ونص بها على من اختاره للإمامة والحجة، وكل عيد علاقة عليه وكالعبد الذي يخدم بين يديه ويتقرّب إليه.

واعلم أن المنة بكشفه والمحنة بلطفه تكاد أن تزيد على الامتحان بصاحب النبوة العظيم الشأن لأن الرسول المبعوث ﷺ بُعث في أول أمره بمكة إلى قوم يعبدون أحجاراً وأخشاباً لا تدفع ولا تنفع ولا تسمع خطاباً ولا ترد جواباً قد شهدت عقول هل الوجود بجهل من اتخذها آلهة من دون الله المعبود، ولم يكن بين أهل مكة وبين رسول الله ﷺ عداوة قبل رسالته ولا بينهم وبينه قتل ولا دماء قد سفكها تمنع طبعاً وعقلاً من قبول نبوته، وأما مولانا أمير المؤمنين عليه السلام الذي نص الله جل جلاله عليه على لسان رسوله عليه أعظم الصلاة

والسلام في يوم الغدير فإن أهل الإسلام كانوا قد اتسعت عليهم شبهات العقول والأحلام وتأويل ما يقدرون فيه على التأويل وكان مولانا علي عليه السلام قد عادى كثيراً في الله جل جلاله وفي طاعة الرسول الجليل فسفك دماء عظيمة من أسلافهم وعظمائهم وأمثالهم وسار مع رسول الله صلى الله عليه وآله سيرة واحدة في معاداة من عاداه من أول أمره إلى آخره ومن غير مراعاة لحفظ قلوب من كان عاداه من رجالهم وظهرت له من العنايات والكرامات ما اقتضت حسد أهل المقامات فحصل لإمامته من المعاداة والحسد له على الحياة ونفور الطباع أنه ما يسير إلا سيرة واحدة من غير مداجاة زيادات على ما كان عند بعثة النبي صلى الله عليه وآله فبلغ الأمر إلى ما قدمناه قبل هذا الفصل من العداوات[1].

* * *

إعلم أن من التنبيه على أن فضل يوم الغدير ما عرف مثله بعده ولا قبله لأحد من الأوصياء والأعيان فيما مضى من الأزمان وجوه.

منها إن الله جل جلاله جعل نفس علي عليه السلام نفس النبي صلى الله عليه وآله في آية المباهلة فقال تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: ٦١].

وقد ذكرنا في الطرائف عن المخالف أن الأبناء الحسن والحسين، والنساء فاطمة، وأنفسنا علي بن أبي طالب عليهم السلام فمنهما جرى من التعظيم لنفس رسول الله صلى الله عليه وآله فمولانا علي عليه السلام داخل فيما يمكن دخوله فيه من ذلك المقام، ولو اقتصرنا على هذا الوجه الكبير لكفى في تعظيم يوم الغدير.

---

(١) الاقبال ص ٧٧١.

ومنها: إننا روينا في الطرائف أيضاً عن المخالف أن نور علي من نور النبي ﷺ في أصل خلقتهما، وإن ذلك ينبه على تعظيم منزلتهما.

ومنها: إن مولانا علياً عليه السلام في أمته، ومنها أن كلما عظمت حرمة المنصوص عليه بالخلاف كان ذلك تعظيماً لمن كان عنه ومولانا علي عليه السلام نائب عن الله ورسوله في كل رحمة ورأفة وأمان من مخافة.

ومنها: إن الله جل جلاله قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠] فيكون علي عليه السلام بمقتضى هذا الوصف الذي لا يُجحد ولا ينكر الرئيس من الله ورسوله ﷺ على هذه الأمة التي هي خير الأمم، أعظم من كل رئيس في شرف القدم وعلو الهمم وكمال القسم.

ومنها: إن الامتحان بنص الله جل جلاله ورسوله ﷺ وعلى مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام وجدناه أعظم من كل أمتحان عرفناه للأوصياء لأجل ما اتفق لمولانا علي عليه السلام من كثرة الحاسدين وأعداء الدين الذي عاداهم وجاهدهم في الله رب العالمين وفي نصرة سيد المرسلين وقد شهدت عدالة الألباب أن المنازل في الفضل تزيد بزيادة الامتحان الوارد من جانب مالك الأسباب.

ومنها: إن مولانا علياً عليه السلام وقى النبي ﷺ وحفظ الإسلام والمسلمين في عدة مقامات عجز عنها كثير من قوة العالمين، فجازاه جل جلاله ورسوله ﷺ شرف ذلك الفضل المبين بهذا المقام المكين مثل أنه بات على فراش النبي ﷺ بمكة وقد عجز عنها كل من قرب

منه وكانوا بين هارب أو عاجز عنه، فكلما جرى بالمهاجرة من الشهادة في الدنيا والآخرة، فمولانا حيث فداه بمهجته أصل الفوائد بنبوته.

ومنها: أداؤه سورة «براءة» ونبذ عهود المشركين لما نزل إلى خاتم النبيين أنه لا يؤديها إلا أنت أو رجل منك، فكان القائم مقام النبوة مولانا علي أمير المؤمنين عليه السلام.

ومنها: مقامات مولانا علي عليه السلام في بدر وخيبر وحنين وفي أُحد وفي كل موقف كان يمكن أن يخذل الوالد للولد.

ومنها: قتل مولانا علي عليه السلام لعمرو بن عبد ود العظيم الشأن، وقد روينا في الطرائف عن المخالف أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «لضربة علي لعمرو بن عبد ود أفضل من عمل أمتي إلى يوم القيامة».

وفي حديث آخر: «لضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين.» وكذلك قال النبي صلى الله عليه وآله لما برز مولانا علي إليه: «برز الإسلام كله إلى الكفر كله» فما ظنك برجل يرى النبي صلى الله عليه وآله أنه هو الإسلام كله وكيف يدرك بالبيان والتبيان فضله، ولله درّ القائل:

يفنى الكلام ولا يحيط بوصفه أيحيط ما يفنى بما لا ينفد

ومنها: إن الله جل جلاله جعل النص منه جل جلاله ومن رسوله صلى الله عليه وآله بالخلافة لعلي عليه السلام يقوم مقام جميع فضل الرسالة، وهذا مقام لا يبلغ وصفي حقيقته فقال جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد ذكرنا في الطرائف عن المخالف وفي هذا الكتاب أن المراد

بهذه الآية ولاية علي عليه السلام يوم الغدير من غير ارتياب.

ومنها: إن عناية الله جل جلاله بمولانا علي عليه السلام بلغت بتكرار الآيات والمعجزات والكرامات إلى أن ادّعى فيه خلق عظيم باقون إلى هذه الأوقات ما ادعى بعض النصارى في عيسى عليه السلام وأنه رب العالمين الذين يجب أن توجه العبادات إليه.

ومنها: إن مولانا علياً عليه السلام عذب الذين ادعوا فيه الإلهية كما أمره صاحب النبوة الربانية ولم يزدهم تعذيبه لهم إلا ملزماً بأنه رب العالمين وما عرفنا أن معبوداً عذب من يعبده بمثل ذلك العذاب وهو مقيم على عبادته بالجد والاجتهاد، فكان ذلك تنبيهاً على أن ظهور فضله خرق العقول والبصائر حتى بلغ إلى هذا الأمر الباهر وما يقدر على شرح فضل مولانا علي عليه السلام على التفصيل، وقد ذكرنا في الطرائف وجوهاً دالة على مقامه الجليل وقد نطق القرآن الشريف بنعم الله تعالى على عباده مطلقاً على التجميل فقال تعالى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨] فهذا يكون من تلك النعم التي لا تحصى لأنه عليه السلام رئيس القوم الذين ظفروا بها وحصلوها[1].

---

(١) الاقبال ص ٧٨١.

يوم المباهلة

«إعلم أن يوم المباهلة أعظم مما أشرنا إليه، وإنما ذكرنا من فضله بحسب ما دلنا الله جل جلاله عليه، وكن أنت مفكراً في أن الله جل جلاله اختار لنا في الأزل من غير وسيلة منا ولا فضيلة صدرت عنا أنواراً نباهل بها جاحدين كفاراً وشموساً تكشف بنورها دعوى اليهود والنصارى وتمحو آثار استمرار شرعهم وشموسِهم ويخسف ببدورها دعوى الجاهلية بعبادة أصنامهم وتخطيلهم بها من نحوسهم وتخلع بها خِلعَ التشريف بالتكليف للتراب ويحيي بهدايتها موات الألباب وتعمر لأجلها دوام نعيم دار الثواب ويأتي بها على نار قد علا لهبها وسعيرها وحروب قد اشتد كلبها وزفيرها فخفف بها عنّا وعن سائر البشر هول ذلك الخطر والضرر وأطفأ شررها بمباهلة ساعة بأهل الطاعة وقرب جموعها وهدم رُبُوعِها بثبوت أقدام أرباب المباهلة ورايات إخلاصهم وحمى حوزة الإسلام والمسلمين بتلك المباهلة الصادرة عن أمر رب العالمين.

فلهذا اليوم المباهلة من حق الشريف وتعظيم أهل المقام الشريف وتخفيف المالك اللطيف ما يقتضي أن يكون هذا اليوم من أعظم أيام البشارات وأكرم أيام السعادات مغمور المجالس والمحافل بالثناء على الله جل جلاله، وذكر ما فيه من الفضائل معروفاً به جل جلاله

حقوق مُلوك أهل المباهلة وما رفع الله جل جلاله بهم من الأمور الهائلة وما نفع بمباهلتهم في العاجلة والآجلة وأن يتوجه بهم فيه إلى كشاف الكربات وواهب ألطاف الكرامات فيما يكون العبد محتاجاً إليه وعلى قدر تعظيم اليوم المذكور وعزة أهله عليه[1].

(١) الاقبال ص ٨٤٣.

وصية السيد ابن طاووس لعائلته

قال رحمه الله: «إننا نحضر عيالنا، ونوصيهم بالمحافظة على ما يعملونه وقت حضورنا، من الصلوات في أوائل الأوقات، ومن دراسة القرآن، ومن صيانة أبوابهم وأسبابهم بغاية الإمكان، ونذكرهم أن الله جل جلاله خليفتنا عليهم، وأنه حاضر عندهم وناظر إليهم، وأن مراقبتهم لمقدس حضوره وحضورهم بين يديه أهم عليهم من حضورنا عندهم وحضورهم عندنا، وأوجب في حفظ ما يقرّبهم إليه»[1].

إعلم: أن «العيال في غالب الأحوال، لا يخلو بعضهم أو أكثرهم من حسد بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم لبعض، وأنّهم مع حضور صاحب المنزل ومشاهدتهم له يحتاج إلى تقويمهم وسياستهم، فكيف إذا بعد عنهم، وخلا منظره منهم، فيحتاج أن يكون آخر ما يلقاهم به، أن يعد أهل القبول لوصاياه، والحافظين له في غيبته بما يرضاه، أن يحسن إليهم بعد الوصول، ويعمل معهم ما يستحقونه على القبول، ويتوعد من يعرفه منهم بالفتن والمنافرة، والمحاسدة والمناقرة، أنه متى تجدد منهم في غيبته، ما يحتاج إلى مؤاخذته، فإنه يضاعف عليهم من العقاب والآداب، وينقصهم من عوائد المحابِّ والطلاب، ما يكون سبباً لاستقامتهم عند الأسفار، ومدة الأعمار»[2].

---

(١) الأمان ص ٤٠.

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٤.

وصيته لولده

قال لولده: «فوجدت في خاطري في شهر محرم، البالغة بعمري إلى إحدى وستين، باعثاً رجوت أن يكون من مراحم أرحم الراحمين، أنني أُصنف كتاباً على سبيل الرسالة مني إلى ولدي محمد وولدي علي ومن عساه ينتفع به من جماعتي وذوي مودتي، قبل أن يحول بيني وبين أُمنيتي ما لا بد من لقائه من انتقالي إلى آخرتي، واعتبرتُ هذا الخاطر بالاستخارة الصادرة عن الإشارة الإلهية، فرأيته موافقاً لما رجوته من المراحم الربانية.

وكنت قد رأيت ورويتُ في تواريخ الأنبياء والأوصياء وصايا لمن يعز عليهم صلوات الله عليهم، ووجدت سيدنا محمد الأعظم ورسوله الأكرم قد أوصى مولانا وأبانا علياً المعظم عليه السلام وأوصى كل منهما جماعة ممن يعز عليهما، ووجدت وصايا مشهورة لمولانا علي عليه السلام إلى ولده العزيز عليه السلام وإلى شيعته وخاصته.

ووجدت جماعة ممن تأخّر زمانهم عن لقائه قد أوصوا برسائل إلى أولادهم، دلوهم بها على مرادهم، منهم محمد بن أحمد الصفواني، ومنهم علي بن الحسين بن بابويه، ومنهم محمد بن محمد بن النعمان تغمدهم الله برحمته ورضوانه، ومنهم مصنف كتاب

الوسيل إلى نيل الفضيل، وهو كتاب جيد فيما أشار إليه رحمة الله عليه.

فرأيت ذلك سبيلاً مسلوكاً للأنبياء والأوصياء والأولياء والعلماء، فامتثلت أمر الله جل جلاله في المتابعة لهم والاقتداء بهم والاهتداء بنورهم.

إعلم أن جماعة ممن عرفته من المصنفين اقتصروا على المعروف والمألوف من آداب وأسباب في وصايا أولادهم تتعلق بالدنيا والدين، ورأيت أنا أن متابعتهم في تلك الأسباب تضيع لوقتي، إذ كان يكفي أن أدلهم على تلك الكتب وما فيها من الآداب، وما كنت أن أحتاج إلى أن أتكلف تصنيف كتاب، وإنما أذكر ما أعتقد أنه أو أكثره مما لا يوجد في رسائل من ذكرت من أصحابنا العلماء في تصانيفهم لأولادهم، مما أخاف أن أولادي لا يظفرون من غير كتابي هذا بمرادهم لدنياهم ومعادهم، إلا أن يتداركهم الله جل جلاله، الذي هو بهم أرحم وعليهم أكرم من خزانته ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] (١).

(١) كشف المحجة ص ٤٤.

الدعاء

«ومتى اشتبه عليك شيء من نتائج العقول فالزم الصوم والخلوة والتذلل للقادر جل جلاله على كل مأمول، فإنّك تجده جل جلاله كاشفاً لك ما أشتبه عليك، وباعثاً إلى عقلك وقلبك من أنوار هدايته ما يفتح أبواب الصواب لديك.

وإياك أن تستبطىء إجابته وأن تتهم رحمته، فإن العبد ما يخلو من تقصير في مراقبة مولاه، ويكفيه أنه يعظم ما صغر، ويصغّر ما عظم من دنياه وأُخراه، ويكفيه أنه يغضب لنفسه ولمن يعز عليه أكثر مما يغضب لله جل جلاله المحسن إليه، ويكفيه أنه ما هو راضٍ بتدبير مالكه جل جلاله بالكلية، وأنه يعارضه بخاطره وقلبه وعقله، معارضةً المماثل أو الشريك أو العبد السيء العبودية.

وإذا تأخرت عنك إجابة الدعاء وبلوغ الرجاء فابكِ على نفسك بكاء من يعرف أن الذنب له، وأنه يستحق لأكثر من ذلك الجفاء، فكم رأينا والله يا ولدي عند هذه المقامات من فتوح السعادات والعنايات ما أغنانا عن سؤال العباد، وعن كثير من الاجتهاد[1].

---

(١) المصدر نفسهص ٧٢.

الكمال

واعلم يا ولدي محمد حفظك الله جل جلاله عن الخذلان، وصانك بخلع الإحسان والأمان، أن أهل الكهف كانوا مماليك لا يفقهون، وسحرة فرعون كانوا سكارى بالكفر ما يعتقد ناظرهم أنهم يفيقون، فتداركهم الله جل جلاله برحمة من رحماته الجميلة، فأمسوا عارفين به مخلصين، من أهل المقامات الجليلة.

وقد عرف كل خبير أن امرأة فرعون ومريم بنت عمران وأم موسى عليهم السلام، نساء ذوات ضعف عن الكشف، تولاهنّ الله جل جلاله بيد اللطف والعطف، حتى فارقت زوجة فرعون ملك زوجها ودولته وحقرته وهونت عقوبته.

وبلغت مريم إلى كرامات وسعادات، حتى أن النبي المعظم في وقتها زكريا عليه السلام يدخل عليها في المحراب فيجد عندها طعاماً يأتيها من سلطان يوم الحساب بغير حساب، ويُفهم من صورة الحال أن زكريا ما كان يأتيه مثل ذلك الطعام؛ لأنه عليه السلام قال: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عِمرَان: ٣٧] على سبيل التعجب والاستفهام، وهو أقرب منها إلى صفات الكمال.

وهذه أم موسى يوحي الله تعالى إليها بغير واسطة من الرجال،

حتى يهون عليها رمي ولدها وواحدها ومهجة فؤادها في البحر والأهوال.

فلا تقصر همتك يا ولدي محمد عن غاية بلغ إليها حال النساء الضعيفات، واطلب ذلك ممن قال جل جلاله : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزّخرُف: ٣٢] (١).

(١) المصدر نفسه ص ٧٣.

يوم التكليف

وينبغي يا ولدي محمد أسعدك الله جل جلاله بإقباله ومكاشفة جلاله، أن تعتقد أن يوم تشريفك بالتكليف كان من أعظم أيام الأعياد، وأن وقت تعريفه لك بعظمته واستخدامك في طاعته كان من أشرف أوقات الاسعاد والأرفاد كما قدمناه. فإياك أن يخطر ببالك ثواب أو جزاء على طاعتك أو خدمتك.

فإنك ترى العقول قاضية بأن السلطان الكامل الذي يرجى إحسانه بالتقرب إليه، يرشى وتبذل النفوس والرؤوس في التقرب منه والانساق عليه، فتعلم أن كل من أحسن إحساناً كثيراً إلى عبد من العباد فإنه يجد من نفسه لزوم خدمته والوفاء له ومتابعة إرادته بغاية الاجتهاد، فلأي حال كان الحال مع الله جل جلاله في العقول دون هذه الحال، تعالى الله جل جلاله عن المقابلة بهذه الضلالة[1].

* * *

فإذا وصلت إلى الوقت الذي يشرفك الله جل جلاله يا ولدي محمد بكمال العقل، وهو جل جلاله أهل من استصلاحك لمجالسته ومشافهته ودخول مقدس حضرته لطاعته، فليكن ذلك الوقت عندك

(١) المصدر نفسه ص ٧٧.

مورّخاً محفوظاً من أفضل أوقات الأعياد، وكلما أوصلك عمرك المبارك إليه في سنة من السنين فجدد شكراً وصدقات وخدمات لواهب العقل الدال على شرف الدنيا والمعاد.

واعلم أني أحضرت أُختك شرف الأشراف قبل بلوغها بقليل، وشرحت لها ما احتمله من حالها من تشريف الله جل جلاله لها بالإذن لها في خدمته جل جلاله بالكثير والقليل، وقد ذكرت الحال في كتاب (البهجة لثمرة المهجة).

وإن بقيت حياً على ما عودني الله جل جلاله من رحمته وعنايته، فإنني أجعل يوم تشريفك بالتكليف عيداً أتصدق فيه بمائة وخمسين ديناراً، عن كل سنة بعشرة دنانير إن كان بلوغك بالسنين، واشتغل بذلك في خدمته. وإنما هو ماله جل جلاله وأنا مملوك وأنت عبده، فتحمل إليه من ماله ما يريد أن تحمله لجلاله، وهذا المقدار خطر على قلب تفويضي إليه وبحضوري بين يديه. وإن أراد جل جلاله مهما أراد ما أقدرني عليه، فيكون قبول ذلك مني رحمة وشرفاً لي ولك ولا يبلغ وصفي إليه.

وإن أنا انتقلت إليه قبل بلوغ الأمل من بقائي حتى تستغني عن الأوصياء، فقد أوصيت بك إليه جل جلاله وإلى غيره بأمره جل جلاله ، وهو أشفق عليك مني وابلغ في حفظك وبلوغ الرجاء، وأن يلهمك الله جل جلاله ذلك ولي بحمايتك ما يليق بكرمه وما عودني من الآلاء وزيادات السعادات والعنايات، وأن يعرفني ذلك وأنا في عداد الأموات.

وإذا حضرت عند قبري فحدّثني ما عمله معك سيدي وسيدك

ومالك أمرك وأمري، فإنني رويت عن السلف الصالحين أن الميت يسمع كلام الزائرين وخاصة من أهل اليقين.

فكن يا ولدي محمد حفظك الله جل جلاله بما حفظ من حفظه ممن يعز عليه وقت بلوغك لخلقه كمال العقل والتشريف بالتكليف في خلوه من الشواغل عن مولاك، وتذكر أنه يراك، وتطهّر قبل تلك الحال بغسل التوبة وما ذكرناه في كتاب (المهمات والتتمات) من آداب الأغسال، والبس أطهر الثياب الخالية من دنس الشبهات على ما أذكره لك من الآداب، وقف قائماً بين يدي رب العالمين ومالك الأولين والآخرين - ويحسن أن يكون على التراب - بخضوع وخشوع، وما ينبغي ويجب على المخلوق من تراب إذا قام للبس خلع رب الأرباب بحضوره وحضور من حضر من ملائكته.

فإذا حصل وقت ذلك كما عينه جدك محمد ﷺ في شريعته، فاستحضر قلبك وجوارحك بالأدب والذلة لله والبس ما ألبسك الله جل جلاله بالمعنى الذي يقتضي تعظيم الخلع الإلهية على يد صاحب الملة، فإن أحسست وجداناً أو عرفت ذلك بالنقل تصديقاً وإيماناً فاسجد لمولاك جل جلاله على الثرى، ومرّغ خديك بين يديه، وتذكر أن الله يرى.

وإن كان وقت فريضة أو نافلة من الصلوات أو غيرها من العبادات فتلقها بالحمد والثناء والبشرى والصفاء والوفاء كما ذكرناه في كتاب «التتمات والمهمات»، ثم سلّم اختيارك الذي أنعم به عليك إليه، وتضرّع بين يديه أن يكون هو المتولي لاختيارك بما يلهمك ويهديك إليه إن شاء الله تعالى.

فإن كان وقت بلوغك إلى خلع شرف الألباب وتحف الآداب ما هو زمان شاغل من الفرائض والنوافل الظاهرة، فابدأ بذكر ما عمل معك من النعم السالفة والحاضرة، فإني أذكر لك منها جملة عرفني بها جل جلاله بلسان حال عنايته الباهرة.

فتذكر يا ولدي جملك الله بتذكيره لك وعنايته بك، أنه جل جلاله في المعنى خدمك وله المثل الأعلى يشرفك بمعرفته، وقبل أن يتحفك بالسعادة بخدمته، بأن بنى لك السماوات والأرضين بيد قدرته، ولم يتكل إكرامه لك بذلك إلى ملائكته ولا بأحد من بريته، وأجرى لك البحار، وشق الأنهار، وغرس الأشجار، وأخرج الثمار، وعمّر الديار وجعل الشمس والقمر سراجاً لليل والنهار ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤][1].

(١) المصدر نفسه ص ١٤٢.

الموعظة بالموت

«واعلم يا ولدي محمد أن الله جل جلاله لو حملنا على عدله ساعة دون ساعة من ليل أو نهار، ما أبقانا أبداً، وكان أمرنا قد آل إلى الهلاك والدمار؛ لأننا لا نوفيه حقه أبداً في إطلاعه علينا وحضورنا بين يديه بمقدار التفاوت بين عظمته وجلالته، وبين ما نعمله من اطلاع غيره علينا أو حضورنا بين يدي غيره من مماليكه الفقراء إليه، ولا نبذل الجهد في زيادة تعظيمه عليهم. وربما اشتغلنا بهم عنه، وجعلنا ظهر لسان حالنا إليه ووجهنا إليهم.

فلو سلبنا نفوسنا وكل ما أحسن به إلينا، وقطع خبزنا وكسوتنا، وحبسنا في مطمورة الغضب علينا كنا والله لذلك مستحقين، فكيف حملنا قوتنا التي هي منه وعقولنا الموهوبة عنه، حتى صرنا نقدم أن نكون بحرمته مستخفين، ولموآخذته متعرضين، فإياك ثم إياك أن تهون بذلك كما يفعله الجاهلون به والغافلون، ولا تتأسى بهم، فإنه جل جلاله له يقول: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

وأحدّثك يا ولدي بجواب جرى لي مع من ينسب إلى العلم، فإنه حضر عندي يوماً وأنا جالس على تراب أرض بستان، فقال: كيف أنت؟

فقلت له: كيف يكون من على رأسه جنازة ميت، وعلى أكتافه جنازة ميت، وعلى سائر جسمه أموات محيطون به، وفي رجليه جسد ميت، وحوله أموات من سائر جهاته، وبعض جسده قد مات قبل ممات جسده.

فقال: كيف هذا، فما أرى عندك ميتاً؟

فقلت له: ألست تعلم أن عمامتي من كتان، وقد كان حياً لما كان أخضر نابتاً في الأرض فيبس ومات، وهذه صدرتي[1] من قطن حي أخضر فيبس أيضاً ومات، وهذه لا لجتي قد كانت من حيوان فمات، وهذا حولي نبات قد كان أخضر فيبس ومات، وهذا البياض في شعر رأسي وشعر وجهي قد كان حياً بسواده فلما صار أبيضاً فقد مات، وكل جارحة لا أستعملها فيما خلقت له من الطاعات فقد صارت في حكم الأموات.

فتعجب من هذه العظة وصحيح المقالات، فليكن على خاطرك يا ولدي أمثال هذه العظات»[2].

---

(١) الصدرة: ثوب رأسه كالمقنعة وأسفله يغشي الصدر. القاموس المحيط ٢: ٦٨.

(٢) المصدر نفسه.

الزوجة

وتذكر يا ولدي محمد ملأ الله جل جلاله قلبك من أذكاره ومناره، إذا احتجت إلى زوجة تعينك على تفرغ خاطرك من شغل الشهوات الزائلة، ويسلمك مولاك بها من سموم المعاصي واللذات القاتلة، وتكون عوناً لك على استخراج عبيد أو إماء من العدم إلى الوجود من صلبك وترائبك بسببكما جل جلاله في تحصيل ذلك المقصود، ليخدمونه ويسبحونه ويعظمونه جل جلاله ويحيون سنة نبيك جدك محمد ﷺ، ويكونون دعاة إليه، وليباهي بهم الأمم ولو بالسقط من الأولاد، وليكون من مات منهم صغيراً ذخيرة لكما يوم المعاد، ومن أطاع الله جل جلاله منهم وشرفه بخدمته مكتوباً ذلك لكما في صحائف طاعته، إذا كنتما قد قصدتما بالاجتماع والنكاح ما يقرّبكما إليه وإلى رضاه ومحبته.

وإياك ثم إياك أن تقرب من زوجتك أو جاريتك بمجرد الطبع الترابي على عادة الدواب والحمير، فإن ذلك من أقبح التدابير، وإنما تكون قاصداً امتثال أمر الله جل جلاله ، وامتثال أمر رسوله ﷺ، فيما أراد منك بذلك النكاح المشار إليه.

فإن خفت غلبة الشهوة عليك فتمنعك من هذه النية المرضية،

فاستعن بالاستخارة قبل الشروع في الخلوة بهذه المطالب الصادرة عن المواهب الإلهية، فإنني قد ذكرت في كتاب (فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين رب الأرباب) ما لم أعرف أحداً سبقني إلى مثله، وكان ذلك من كرم الله جل جلاله وفضله[1].

(١) المصدر نفسه ص ١٥٦.

المخالطة

وإياك يا ولدي محمد طهّر الله جل جلاله في تطهير سرائرك من دنس الاشتغال بغيره عنه وملأها بما يقرّبك منه إذا احتجت إلى مخالطة الناس لحاجتك إليهم ولحاجتهم إليك.

ثم إياك ثم إياك أن تفعل عن التذكر أن الله جل جلاله مطلع عليهم وعليك، وأنكم جميعاً تحت قبضته وساكنون في داره، ومتصرفون في نعمته وأنتم مضطرون إلى مراقبته، وأنه قد توعدكم بمحاسبته، وليكن حديثك لهم كأنه في المعنى له وبالإقبال عليه، كما لو كنت في مجلسه خليفة أو سلطان وعنده جماعة، فإنك كنت تقصده بحديثك والناس الحاضرون في ضيافة حديثك له وإقبالك عليه.

واعلم يا ولدي محمد، ومن بلغه كتابي هذا من ذريتي وغيرهم من الأهل والاخوان، علمك الله جل جلاله وإياهم ما يريد منكم من المراقبة في السر والإعلان، أن مخالطة الناس داء معضل، وشغل شاغل عن الله ﷻ مذهل، وقد بلغ الأمر في مخالطتهم إلى نحو ما جرى في الجاهلية من الاشتغال بالأصنام عن الجلالة الإلهية.

فأقلل يا ولدي من مخالطتك لهم ومخالطتهم لك بغاية الإمكان، فقد جربته ورأيته يورث مرضاً هائلاً في الأديان، فمن ذلك أنك تبتلي

بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات، فإن أقمت بذلك على الصدق وأداء الأمانات، صاروا أعداءك على اليقين، وشغلوك بالعداوة عن رب العالمين.

وإن نافقتهم وداريتهم، صاروا آلهة لك من دون مولاك، وافتضحت معه وهو يراك، ووجدك تستهزىء به في مقدس حضرته وتظهر خلاف ما تبطن بالاستخفاف بحرمته، وأن إطلاعهم عليك كان أهم لديك من إطلاعه عليك.

وإن غرك الشيطان وطبعك وهواك والحب لدنياك، وخيلوا إليك أنك ما تقدر على الإنكار والمجاهرة، فقل لهم: إنك تعلم خلاف ما يقولون من هذه المخادعة والمماكرة، بدليل أن الذين كسروا حرمة ربك، وحرمة رسوله جدك، وحرمة أئمتك المعظمين بالمنكر، الذي استخفوا بحرمة مالك الأولين والآخرين، وحرمة الأنبياء والمرسلين، وكل ولي لله جل جلاله من العارفين، وهتكوا به ناموس الدين، لو كانوا قد كسروا به حرمتك وحرمة من يعز عليك من الآدميين.

مثاله: أن يأخذوا عمامتك من رأسك بين الحاضرين، أو أن يسلبوك شيئاً قهراً من الذين بين يديك بالاستخفاف بك والتهوين، ما كنت تتغافل عنهم ولا تصبر عليهم، ولا تعتذر بأنك ما كنت تقدر أن تنكر عليهم، بل كنت تخاصمهم لعل بنفسك ومالك، وتبالغ بغاية اجتهاد مقالك وفعالك في الانتقام منهم والإعراض عنهم والإنكار عليهم والتوصل في الانتصار عليهم، فعلى مَ لا يكون كسر حرمة مولاك فاطر الخلائق ومالك المغارب والمشارق، مثل كسر حرمتك اليسيرة إلى حرمته العظيمة الكبيرة، وكيف رضيت أن تكون حرمتك

أهم من حرمته، وأنت غريق نعمته ومملوك ضعيف في قبضته، وما الذي هوّن بهذه الجرأة الهائلة في مقدس حضرته.

واعلم أنك تبتلي بمخالطتهم بأن يتفق لك أن تثق بعهودهم أكثر من وعود مولاك، وأنت تعلم أنهم يمكن أن يموتوا قبل إنجاز الوعود، ويمكن أن يخلفوا ولا يفوا بالعهد، ويمكن أن يحول بينك وبين الانتفاع بوعودهم لو أنجزوها حوائل ويشغلك عنها شواغل، فكيف رضى عقل العاقل وفضل الفاضل بترجيح وعد المملوك المعوّد بالجنايات والخيانات وتضييع العهود والأمانات، على وعد القادر بذاته، الكريم لذاته، الذي لا حائل بينه وبين سائر مقدوراته.

واعلم أنك يا ولدي تبتلي مع مخالطتهم بأن يكون وعيدهم وتهديدهم أرجح من وعيد الله جل جلاله وتهديده وفي ذلك مخاطرة مع الله جل جلاله ، واستخفاف لأهوال وعيده.

واعلم أنه يبتلي المخالط لهم بالأنس بهم أكثر من أُنسه بمولاه ومالك دنياه وأُخراه، وإنما حصل الأنس بمخالطتهم بوجود العبد وحياته وعافيته، وكل ذلك من رحمة مولاك ومن نعمته، فكيف جاز تقديم الأنس بسواه عليك، والعبد الذي بين يديه وسيده مطلع عليه.

واعلم أن الإنسان قد يبتلي أيضاً بالمخالطة للعباد بحب مدحهم وكراهة ذمهم، ويشتغل بذلك عن حب مولاه وذمه له، وعن حبه هو لمولاه، وعن الخوف من ذمه إذا عصاه.

ومما يبتلي به المخالط لهم أن الله ﷻ ورسوله ﷺ ونوابه الطاهرين يريدون منه العدل مع الذين هم له مخالطون أو معاشرون أو مصاحبون، وأن يكون تقربه لهم وإقباله عليهم في قوله وإحسانه إليهم

على ما يعرف ويظهر له من قربهم من الله ﷻ ورسوله ﷺ وخاصته، وعلى قدر رغبتهم في طاعة الله جل جلاله ومراقبته.

ومما يبتلي به المخالط لهم أنهم إذا كسروا حرمته بقول أو فعل من معاند، أو من يفعل ذلك به على جهل، أو يكون كما قدمناه غضبه بذلك لما جرى أكثر من مخالفة الله جل جلاله ورسوله ﷺ قبل غضبه لنفسه، ويعدل في غضبه ورضاه عدلاً يسلمه من خطر حسابه وسؤاله.

ومما يبتلي به في مخالطتهم أنه يراد منه ألا يشتغل بإقبالهم وثنائهم عليه عن إقباله على الله ﷻ وإقبال الله جل جلاله عليه، ولا يعطيهم من قلبه إذا أحسنوا إليه أكثر، ولا مثل إحسان الله جل جلاله إليه، بل يكون له شغل شاغل بإحسان الله جل جلاله في العاجل والآجل عن كل محسن مدة إحسانه، فإنه إن دام على ذلك فهو مقدار أوقات قلائل.

ومما يبتلي به في مخالطتهم ما قد صار عادة وسبيلاً من الغيبة والنميمة، والحسد والكبر والأخلاق الذميمة.

ولقد رأيت البلوى بمخالطتهم قد سرت إلى فساد العبادات، حتى صارت زيارة أكثر الإخوان متعلقة بنفع دنيوي، أو دفع خطر دنيوي، ويستبعد سلامتها من سقم النيات.

وصارت عيادة المرضى على سبيل التوجّع والتألم للمريض، كأن الله جل جلاله قد ظلمه بالمرض، وكان حق العائد لأهل الأمراض أن يهنئهم بتلك الأمراض؛ لأنهم: إما مسيئون ويريد الله جل جلاله بمرضهم تكفير السيئات، أو ما هم من أهل الجنايات فيريد الله جل

جلاله بامراضهم من ارتفاع الدرجات، ما لو طلعوا عليه وجدوه قد شرفهم بتلك الحادثات. وكان الحال عندهم مثل طبيب فصد إنساناً وقت عافيته ليأمن بذلك من سقم أو نقص يتجدد بمهجته، أو لحفظ ما هو أهم على المقتصد من سعادته.

أما يرضى ابن آدم أنه يوسّخ قلبه وعقله ولسان حاله بجنايات فعاله ومقاله، ويأتي الله جل جلاله على صفات غاسل من الأمراض لأقذاره ومطهّر الأرجاس بيد اقتداره؟

أقول: ولقد مرض يا ولدي بعض الولاة وضجر من المرض حتى كاد يعارض مولاه، فقلت له مكاتبة ما معناه: أنت تعلم أنك في صف عدو الله جل جلاله المسمى بالشيطان، ترمي جناب الله جل جلاله المقدس بأحجار المنجنيق بالمعاصي مجاهرة بالإعلان، فإذا سقط من مجنيقك عند ضربك لعظمة مخالفته حجر لطيف غير قاتل لك، فضربك به ليكفر عند ضربك لجلالته، فهل يكون إحساناً وإكراماً أو هواناً وانتقاماً؟

ولقد رأيت يا ولدي كثيراً من تشييع الجنائز والصلوات على الأموات، وهو أعظم مقامات العظات التي كان ينبغي أن يشتغل العبد بأهوالها عن الدنيا وأهلها أو عن الغفلات، قد صار على سبيل المكافآت والتقرب إلى قلوب أوليائهم. فلو مات صالح على اليقين، وليس له من الأحياء من يتقرب إليه بالصلاة عليه، لقل الراغبون في تشييع جنازته، وسقطت مراسم سلطان العالمين وأوامر سيد المرسلين.

وكذلك لو مات أحد ممن له أولياء يرجى نفعهم وكانوا حاضرين

وإن لم يقدروا على إيذاء المشيعين والمصلين، رأيت توفير الاجتماع لصلوة عليه حتى ممن هو مستغن عن نفع أولياء المشيع المسكين[١].

واعلم يا ولدي محمد بارك الله جل جلاله في حياتك، وشرف مقاماتك، أن أصعب المخالطات مخالطة العصاة، سواء كانوا ولاة أو غير ولاة، إذا لم تكن مخالطتهم للإنكار عليه وبأمر الله جل جلاله لإهداء النصيحة المجردة إليهم، فإن الله جل جلاله يريد من الإنسان إذا خالطهم لغير ما أمره به مولاه المطلع على سره ونجواه، أن يكون على أقل المراتب قلبه معرضاً عمن الله جل جلاله معرض عنه، ونافر ممن الله جل جلاله ماقت له أو ساخط عليه.

وهذا مقام صعب شديد، وإنه والله بعيد، وخاصة إن كان الذي يخالطه والياً وهو محتاج إليه، وقد قضى حاجته أو أحسن إليه، فكيف يبقى له قلب مع الله جل جلاله يوافقه في إعراضه وإقباله، هيهات هيهات، بل يفسد الوالي على الذي يقضي حاجته من دينه، ومفارقة مولاه أكثر مما يصلح بقضاء ما قضاه ويغير كثيراً من حاله في أخراه.

ولقد كتب يوماً إلي بعض الوزراء يطلب مني الزيارة والورود عليه، فكتبت إليه جوابه: كيف بقي لي قدرة على مكاتبك في حوائجي وحوائج الفقراء وأهل الضراء، وأنا مكلف من الله جل جلاله ورسوله ﷺ والأئمة عليهم السلام أن أكره بقاءك على ما أنت عليه حتى يصل كتابي إليك، ومكلف أن أريد عزلك عن مقامك قبل وصول كتابي وقدومه عليك.

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥٧.

ولقد قال لي قائل من الفقاء: فقد كانت الأئمة عليهم السلام يدخلون على الملوك والخلفاء.

فقلت له ما معناه: إنهم عليهم السلام كانوا يدخلون والقلوب معرضة عمن دخلوا عليه، ساخطة عليه بقدر ما أراد الله جل جلاله من سخطه وإعراضه عنهم.

قلت: فهل تجد من نفسك هكذا إذا قضوا لك حاجة أو قربوك، أو وقع إحسانك إليك منهم؟ قال: لا، واعترف بتفاوت الحال، وأن دخول الضعفاء ما هو مثل دخول أهل الكمال.

ولقد كرر مراسلتي ومكاتبتي بعض ملوك الدنيا الكبار في أن أزوره في دار يتنافس في دخولها كثير من أهل الاغترار، فقلت له مراسلة: انظر المسكن الذي أنت ساكنه الآن، فإن وجدت فيه حائطاً أو طابقة أو أرضاً أو فراشاً أو ستراً أو شيئاً من الآنية وضع لله جل جلاله وفي رضاه حتى أحضر، وأجلس عليه وأنظر إليه ويهون علي أن أراه.

وكتبت إليه غير مرة: إن الذي كان يحملني على لقاء الملوك في بداية الأعمار التعويل بالاستخارة، وقد رأيت الآن بما وهبني الله جل جلاله من الأنوار والاطلاع على الأسرار أن الاستخارة في مثل هذه الأسباب بعيدة عن الصواب وخاطرة مع رب الأرباب.

ومما يبتلى به الإنسان في مخالطة الناس يا ولدي محمد أغناك الله جل جلاله عن مخالطتهم بالقوة الإلهية والأنوار الربانية، تنظر بها خطر شواغلهم عن الله جل جلاله بمعاشرتهم، أنه يقتضي التصنع لهم في حركاته وسكناته وملبوسه، وقيامه وجلوسه، والاشتغال بإقامة

ناموسهم عن حرمة الله جل جلاله وعظيم ناموسه.

ولقد قال لي بعض العلماء المشكورين: لأي سبب تترك مجالستنا ومحادثتنا وأنت تدعونا وتقربنا إلى رب العالمين.

فقلت له ما معناه: لأنني لو رأيت نفسي قوية كل أوان وزمان على أن أجالسكم وأحدثكم، وأنا مشغول في حال مجالستكم ومحادثتكم بمجالسة الله جل جلاله ومحادثته بقلبي وسريرتي، وأنكم في ضيافة إقبالي على حرمته بكليتي، كنت جالستكم وحدثتكم في كل وقت ممكن من الأوقات. ولكن أخاف أن أحدثكم أو أجالسكم وقلبي تارة ملآن منكم، ومفرغ من تذكاري أنني بين يدي الله جل جلاله ، فأعتقد ذلك كالكفر إذا عزلته عن ربوبيته وولايته، ووليتكم وأنتم مماليكه عليه وعلى قلبي الذي هو موضع نظره ومسكن معرفته.

وإن جالستكم وحدثتكم وقلبي تارة معكم وتارة معه، اعتقدت ذلك شركاً وهلكاً، حيث جعلت موقعكم من قلبي موقعه.

واعلم يا ولدي محمد مكنك الله جل جلاله من مراده، وألهمك الانقياد إليه والمنافسة عليه، أني عزمت على الانقطاع من كل شيء يشغلني عن رب العالمين عن الخلائق أجمعين، وحضرت مشهد جدك أمير المؤمنين عليه السلام، واستخرت الله جل جلاله في ذلك استخارة على اليقين، فاقتضت الاستخارة أنني لا أترك مخالطتهم في مسكني بالكلية، فأنا أخالطهم إذا حضروا بالله عز وجل في أوقات أرجو فيها سلامتي مع الجلالة الربانية، وإذا رأيت روحي مشغولاً بهم أدنى اشتغال تركت محادثتهم في الحال[1].

---

(١) المصدر السابق ص ١٦١.

عدم الطاعة للشيطان

فإياك ثم إياك أن تشمت بي الشيطان بعد وفاتي، وأن تجعله يوافيني ويقول: قد ظفرت بولدك الذي هو قطعة من كبدك، وتأتينا يوم القيامة وعليك لباس الندامة، فأنت مفتضح مشهور بين أهل السلامة. فبأي وجه تلقي جدك محمداً ﷺ، وأباك علياً عليه السلام، وسلفك الأطهار وقد أعنت عليهم وقبحت ذكرهم، وكنت عدواً لهم؛ لأجل عار أيام قصار.

وبأي وجه تلقاني بعد هذه الوصية والرسالة، وقد قنعت بالرذالة عوضاً عما دعوتك إليه من الجلالة، لا بالله، لا تفارق هذا الباب الشريف الإلهي المقدس المهجور الآن، وألزمه وهوّن في لزومه بالنفس والأهل والمال وجميع الإمكان، ونافس فيه أيام الكساد لتأتينا وأنت ملك عظيم من ملوك الدنيا والمعاد، ومولاك راضٍ عنك هو ومن سلف لك من الملوك المسعودين من الآباء والأجداد[1].

---

(١) المصدر نفسه ص ١٧٠.

ذكر الله تعالى

واعلم يا ولدي محمد حفظ الله جل جلاله فيك عنايته بآبائك الطاهرين وسلفك الصالحين، وسلك بهم كامل سبيلهم القوي المكين، أن أصل ما أنت فيه أن تكون ذاكراً أنك بين يدي الله جل جلاله وأنه مطلع عليك، وأنك كلما تتقلب فيه من إحسانه إليك، وأنه صحبك من ابتداء إنشائك من التراب وتنقلك من الآباء والأمهات - كما شرحنا فيما فات - أحسن الصحبة بالعنايات، وصحبك في وقت وجودك بما نبهناك به عليه من السعادات، وأنت محتاج إلى جميل صحبته ورحمته مع دوام بقائه بعد الممات.

ومن ذا يحميك منه إن أعرض عنك أو أعرضت عنه؟ ومن الذي يحفظ عليك إذا ضيّعت نفسك وكلما في يديك؟ ومن الذي إذا أخرجته من قلبك تتعوض به عن ربك جل جلاله؟ فأريد من رحمته أن يملأ قلبك من معرفته وهيبته ورحمته، ويستعمل عقلك وجوارحك في خدمته وطاعته، حتى يكون إن جلست فتكون ذاكراً أنك بين يديه، وإن أقمت تكون ذاكراً أن قوة قدرتك على المشي منه، وتتأدب في المشي تأدب الماشي بحضرة ملك الملوك إليه الذي لا غناء عنه.

الامانة الالهية

واعلم أن جوارحك بضائع معك لله، وأمانات جعلك تاجراً فيها لنفسك ولآخرتك، فمتى صرفتها في غير ما خلقت له من الطاعات والمراقبات، أو أنفقت وقتاً من أوقاتك في الغفلات، كان ذلك الخسران عائداً إليك بالنقصان، ومثمراً أن يعاملك سيدك بالهجران واستخفاف الهوان.

ولا تقل أو تسمع من الجاهلين أو الغافلين إن هذا ما يقدر عليه، فإنهم قالوا لنا مثل ذلك، وعرفنا بالله جل جلاله أنهم غالطون فيما أشاروا عليه؛ لأننا ووجدنا من نفوسنا وعقولنا أنها تتأدب مع الملوك والعظماء في دار الفناء، ومع الأصدقاء والرفقاء، بل ومع الغلمان والجيران ومن لا ترجوه لنفع وإحسان، ولا لدفع أخطار الزمان، أدباً بقدر من يجالسه أو يشاهده منهم، فكيف جاز أن يكون الأدب مع علم الله جل جلاله بنا، وقدرته علينا، وإحسانه إلينا، دون هؤلاء الذين لا نبالي بالاعراض عنهم.

السفر

وإن احتجت إلى سفر يا ولدي كان الله جل جلاله لك حافظاً في سفرك وجميع ما أحسن به إليك، وخلفاً لك في كل ما تغيب عنه مما أنعم به عليك، فلا تسافر بالطبع والغفلة والأطماع الدنيوية، فتكون مخاطراً مع الله جل جلاله ومهوناً بجلالته الإلهية، ومضيعاً زمان أسفارك في غير ما ينفعك لدار قرارك، بل يكون قصدك أنك تتوجه من الله جل جلاله؛ لأنك حيث كنت فأنت بين يديه، وإلى الله جل جلاله بالتوكل عليه، وبالله بالتفويض إليه، وإليه بالإقبال عليه، فيكون سفرك خدمة له وبه وسفراً إليه، وتصير في حماية ورعاية وكفاية ذلك الإخلاص له والتقرّب إليه.

ومهما جرى في ذلك السفر كان بلسان الحال كان دركه عليه؛ لأن العقل قضى أن من سافر إلى سلطان عادل في شغله وتحت ظله ومتمسكاً في سفره بحبله وبالوثيق من فضله، فإن درك حركات هذا المسافر على ذلك السلطان بمقتضى عدله[1].

وإن توقفت نفسك عن السفر على هذه الصفات، وطلبت التأسي بأهل الغفلات وتضييع الأوقات، فاستعن بالله جل جلاله في قوتك

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٧.

على التوفيق، واستعمل ما ذكرناه في كتاب: «فتح الأبواب» من الاستخارات، فإذا عملت بمقتضى تلك الإشارات صار سفرك بأمره جل جلاله وتعظيم قدره، وسلمت من الندامات. ومتى سافر الإنسان بمجرد الطباع والشهوات، كان هو والدابة التي يركبها سواء في الحركات والسكنات.

الأدب عند النوم

وحيث قد ذكرت لك يا ولدي بعض ما أجراه الله جل جلاله على خواطري في أدب الحركات والتصرفات، فيحسن أن أذكر ما تحتاج إليه عند منامك، جعله الله جل جلاله كنوم ذوي المعارف والمراقبات، وقد شرحنا لك شرحاً شافياً في كتاب «المهمات والتتمات».

فاجلس في فراش منامك بالأدب بين يدي مالك وجودك وحياتك وعافيتك وجلوسك وقيامك، تذكر ما جرى منك قبل نومك من غفلة عن الله جل جلاله ، أو تفريط في طاعتك له وخدمتك. وما لم تتب عنه فتب في الحال عنه، فإنك بالنوم تصير أسيراً لا تقدر أن تنفع نفسك قليلاً ولا كثيراً ولا أن تدفع عنك في وقت منامك شيئاً من الآفات التي لا يمكن التحرز منها، وتترك روحك وكل ما أعطاك الله جل جلاله من نعمته مستمراً لا تقدر أن تدفع عنها.

فصالح مولاك صلح العبد الذليل الحقير الفقير للمولى الجليل العلي الكبير، واخشع بين يديه، وسلّم نفسك وكل ما وهبك الله واستودعه الجميع وقد سلمت من درك التضييع.

واعلم أنك على التحقيق ملكه، وما في يدك ملكه، وهو أحق

بحفظ ملكه منك، ولكنه شرّفك بأن جعلك أهلاً أن تودعه وتجعله كالوكيل لك والنائب عنك، وبلّغك بذلك مقاماً جليلاً، كما قال لجدك وسيدك رسول الله ﷺ: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المُزمّل: ٩].

وتذكر كيف أنت يا ولدي محمد معطل بالنوم عن خدمته، وهو جل جلاله بلسان الحال يخدمك بيد رحمته في إمساكك، وإمساك وجودك وحياتك وعافيتك، ولكما تحتاج إليه من حفظ العيال والأموال والأمان، وترويحك في الصيف بالهواء، وتمكينك في الشتاء من الدفاء. وكيف يتولى في جسدك تسيير الغذاء في الأعضاء، وكيف يحفظ سمعك وبصرك وجميع جوارحك، ويهيىء لك بعد النوم جميع مصالحك، ويعيد عليك كلما ذهب بالنوم من فوائدك وجميع موائدك. فلو فعل هذا معك أو بعضه بعض الآدميين، أما كنت تعرف له حق ذلك أحسن الاعتراف، فالله جل جلاله أحق أن نعامله بالانصاف.

ملك الله تعالى

واعلم يا ولدي أنني كنت أشتري هذه المليكات بالله ﷻ ولله جل جلاله ، بنية أن الأملاك وأنا والأثمان كلنا ملك لله جل جلاله ، هذا الذي اقتضاه العقل والنقل، أن العبد لا يملك مع مولاه وإنما كلما ملكه شيئاً فهو مجاز، وحقيقة التملك لمن أنشأه وأعطاه. وعلمت أنني إذا اشتريته بهذه النية فإن كلما ينفق أحد منه أو يخرج عنه فهو محسوب في ديوان معاملته جل جلاله ، المرضي في حياتي وبعد وفاتي، وذخيرة عند الله جل جلاله لي لأوقات ضروراتي.

ومما أرجو به حسن توفيق الله جل جلاله لك يا ولدي محمد وعنايته بك، أنني وجدته جل جلاله قد ألهمك الفطام من مرضعتك من غير أن نكلفك نحن ذلك أو نمنعك من دايتك، ووجدته قد ألهمك طلب طريق الاستاذ لتعليم الخط والكتابة، فرجوت من رحمته ورأفته أن يكمل لك شرف الاجابة والإنابة.

العلم النافع

فأوصيك بتعلم الخط على التمام، فإنه معونة لك على السلوك إلى الله جل جلاله ، ودخول غاية رضاه في دار المقام. ثم بتعلم العربية بمقدار ما يحتاج إليه مثلك من الطالبين للمراضي الإلهية وإحياء السنن النبوية، ثم تتعلم من القرآن الشريف ما تحتاج إليه لإقامة الصلوات، وما يتعلق بمراد الله جل جلاله من تفسير تلك الآيات بعاجل الحال، واحفظه جميعه بعد ذلك التعظيم والإجلال.

وأريد من الله جل جلاله أن يلهمك، ومنك أنتقبل من إلهامه، وأن تتعلم الفقه الذي فيه السبيل إلى معرفة الأحكام الشرعية وإحياء سنة جدك المحمدية، ويكون قصدك بذلك امتثال أمر الله جل جلاله في التعليم وسلوك الصراط المستقيم، ولا تكن مقلداً لغلمان جدك من العوام وذليلاً بين أيديهم لأجل الفتوى والاستفهام، فما يقنع بالدون إلا مغبون.

وصية الشيخ ورّام

واعلم أن جدك ورّاماً - قدس الله روحه - كان يقول لي وأنا صبي ما معناه: يا ولدي مهما دخلت فيه من الأعمال المتعلقة بمصلحتك، لا تقنع أن تكون فيه بالدون دون أحد من أهل ذلك الحال، سواء كان علماً أو عملاً، ولا تقنع بالدون. وذكر أن الحمصي حدثه أن لم يبق للإمامية مفتي على التحقيق، بل كلهم حاك، وكان ذلك الزمان فيه جماعة من أصناف العلماء وليس في وقتنا الآن من يقاربهم في تلك الأشياء، وأنا اعتذر لهم بطول الغيبة وتباعد الزمان عن الأدلاء الذين كانوا رحمة الله جل جلاله في حفظ واشتغال وإدراك. والآن فقد ظهر أن الذي يفتي به ويجاب عنه على سبيل ما حفظ من كلام العلماء المتقدمين، وهذا طريق سهل ما يعجز عنه إلا مسكين، ومن همته همة ضعيف مهين.

التاريخ للموعظة

واعلم يا ولدي محمد أنني كنت يوماً أنظر في كتاب من التواريخ المذكورة فقال لي قائل: في أي شيء تنظر؟

فقلت: أنا في حياة وبين قبور، أنظر إلى قوم بينا هم في سرور وغرور إذ هجم عليهم هادم اللذات، ومفرّق الجماعات، وصاحب الشتاتات، فنقلهم إلى محلة الأموات، وقطعهم عما كانوا فيه من اللذات، وصاروا في ذل الحسرات وأسر الندامات.

الطب

وهيأ الله جل جلاله عندي كتباً في الطب عن الأئمة الطاهرين وعن العلماء المتبحرين، فأعتمد في طب الأبدان على العالم بباطن ما يتجدد فيها من النقصان قبل أن تظهر أمراضها إلى الأطباء، وفوّض إليه وتوكل عليه وسلم ملكه إليه، تجده طبيباً للأدواء والأسقام، مغنياً لك عن طبيب الأنام.

واستعمل في زوال الأمراض ما رويناه عن التربة الشريفة، والدعوات المنيفة، والعوذ المعتبرة عن العترة المطهرة.

وإن احتجت إلى معالجة الأطباء فاعمل فيما يصفونه لك من أسباب الشفاء على الاستخارة والمشاورة لله جل جلاله ، كما شرحناه في كتاب «فتح الأبواب»، فإنه جل جلاله يعلم مقدار المرض، ومقدار ما يحتاج إليه من دواء مفترض وكم تكون مدة الدواء.

وأما الطبيب من البشر فإنه يعلم ما ظهر، ولا يعلم ما اختفى منه، ولا مقدار المرض، ومقدار ما يحتاج إليه على صفة لا يكون فيها زيادة ولا نقيصة عنه، ولا يعرف كم يبقى المرض من الزمان. وإنما يداوي بمقدار غلبة ظنه، وكم قتل بغلط ظنونه من إنسان، فقد

رأينا من سقاه من شربات، فكان الذي سقاه أكثر مما يحتاج إليه في العادات فمات، ومن اشتبه عليه وجه أسقامه فهلك بالمعاني وكانت سبب طول آلامه.

وقد عرفت أن هذا الجسد وما يحتاج إليه ملك الله جل جلاله ، وبقاؤه لأجله ولأجل التقرب بالخدمة إليه، وهو أمانة في يد عبده، ويحاسبه عليه إذا وقف بين يديه. فإذا استأذنه في وقت استعمال الدواء ومقداره وكيفية العلاج لتحصيل الشفاء، كنت قد أمنت من المخاطرة باتلاف مهجتك، فإنك إذا هوّنت بمشورته فيما تعمد إليه وجرى اتلاف لما ائتمنك عليه، تصير في المعنى كأنك قد قتلت قتيلاً عليه، وأتلفت ما كنت تخدم به من طاعتك بيد اضاعتك، فكيف الدرك عليك، ولا يبقى لك عذر صحيح بين يديه.

الحضور في المحضر

واعلم أنها تستدعي لك الحضور بين يدي مالك الاحياء والأموات، فبادر إليها بالتشريف والاستبشار بتلك العنايات، واترك كل شغل لا يعذرك الله جل جلاله في الاشتغال به عنها، فإنه يصير ذلك الشغل مخالفة على مولاك وتصغيراً لأمره، وتخاطر مخاطرة لا تأمن أنك لا تسلم منها. ولا تلتفت إلى قول من يسهل عليك تأخيرها عن أوائل الأوقات، وجرّب ذلك القائل لو كلفك حاجة وأخرتها عن أوائل قدرتك، أفما يكون يلومك ويشهد أنك مستحق للمعاتبات وما تعرف حق المودات، ولكنهم جاهلون بالله جل جلاله وعظمته ونعمته.

ويريدون منك أن تحترمهم أكثر من احترامك لجلالته، وأن تكون محبتك ومودتك لهم أكثر من محبته. فإياك أن تقتدي بهم في التهوين بمولاك، فقبيح وعظيم وفظيع أن يساوي العبد بالمولى وخاصة وهو يراك. هذا فعل من قد هوّن بالهلاك فأدخل فيها دخول المشتاق إليها، وذوي السباق المنافسين عليها.

وخاطب حياً موجوداً أنت أذل ذليل في حضرته، وعظم مدحه والثناء عليه فيها أعظم وأبلغ ما تعظم مدح ملك من ملوك الدنيا عند

مشافهته، وإذا ركعت وسجدت فكن ذاكراً أنك بين يديه، وأن ذلك الذل والخشوع خدمة له جل جلاله ومقرّب إليه، وأن له جل جلاله المنة كيف استخدمك كما قدمناه، وأنك لا تطلب منه جزاء عاجلاً وآجلاً كما نبهنا عليه فبما أسلفناه، بل لأنه يستحق الخدمة منك، فإنه أهل للعبادة الصادرة عنك.

وإذا خرجت من صلاتك فكن على قدم الخوف أن تكون فيها من التقصير ما اقتضى ردها عليك، فإنك تعلم أنك تعامل بعض بني آدم في حوائجهم بالنشاط والاقبال، أكثر ما تعامل به مالك دنياك وأُخراك المحسن إليك.

الزكاة

وأما حديث الزكاة يا ولدي محمد، زكاك الله جل جلاله بتطهيرك من الذنوب والعيوب، وتجميلك بأداء الواجب والمندوب، فإنك تعلم أنك وأباك، وكل من خرج إلى الدنيا من الخلائق كانوا فقراء، وجرى عليهم حكم الفقر المدقع على مقتضى الحقائق، وإنما تقدم غناء قوم منهم وتأخر الغناء عن الآخرين، كلهم في حال فقراء إلى الله جل جلاله ومساكين، ما شركه أحد منهم في خلق الأرض، ولا خلق المعادن التي فيها، ولا في الأموال، وتدبير حامليها وجالبيها.

فإذا بعث إليك جل جلاله جدك محمداً ﷺ بكتاب مقدس قد كتبه إليك على يديه، يطلب منك زكاة بعض ما له ليذخرها، ويجعلها عناية بك وحرزاً من الآفات، وسبباً إلى أن يخلف عليك في النفقات، فهل يجوز في عقل أو نقل أن تتوقف عن حمل بعض ما له إليه، وترد يد سؤاله عنك فيما يذخره لك؛ أو يد تقدمه الأشرف المشتمل على العناية بك فارغة عن حقير ماله في يديك، خائبة من مدها إليك!

لا بالله يا ولدي لا تفضحني، ولا تفضح نفسك مع الله جل جلاله المنعم علي وعليك، ولا تجعلنا معه ومع سلفك الطاهرين.

وأعتقد المنة لله رب العالمين، كيف أكرمك وسلم ما له إليك، وكيف رضيك مستودعاً وكيف جعلك أهلاً أن يبعث رسوله ﷺ إليك. فإن العقل قضى أنه إذا كان عندي وديعة لسيدي وأنا عبده وهو جل جلاله يقوم بكل ما أحتاج إليه وطلبها، أنني أُسلمها إليه، ولا أطلب جزاء منه، ولا أدل بذلك عليه، بل يكون قد خفف عني مؤنة حفظها ورعايتها، وشرّفني بجميل ذكري بتأدية أمانتها.

وإياك أن تخالف قولي لا تطلب ثواباً ألاً؛ لأن من ابتدأك بالإحسان قبل معرفتك به وخدمتك له وجعلك لذلك أهلاً، هل يقبل العقل أنه لا يعطيك بعد المعرفة والخدمة جزاء وكرماً وفضلاً؟ بلى والله ليعطين المخلصين له والمؤدين به عطاءً جزيلاً، حتى يروا أن أعمالهم لا تقوم ببعض عطائه، كلا والله كلا.

ولقد كان أبوك علي بن موسى بن جعفر يُخرج في أكثر الأوقات، التسعة أعشار التي تحصل له مما تجب فيه الزكاة، ويبقي له ولعياله نحو العشر. وكذا ينبغي للملوك إذا علم أنه يصير بعد قليل من الأموات، ويأخذ سيده ما في يديه ويسلمه إلى غيره، ويحاسبه الملكين له عليه.

وإن توقفت نفسك عن مقام الإخلاص في الإيثار، فاسمع ما يقول لك لسان حال الدرهم والدينار، من كونه قتل فريقاً من البخلاء الممتنعين من بذله، وخرج فريقاً، وحبس فريقاً، وبالغ في غروره وفعله، وقد جاءت نوبتك فلا تكن من جملة الهالكين بعد قتله وختله أو النادمين.

الصيام

وأما حديث الصيام فإنما صورته أنك تصوم بالليل في المنام، فقلب الله جل جلاله تدبير الحال وجعل لك شوقاً وذكراً جميلاً في الأعمال، وصرت تأكل بالليل وتصوم بالنهار، وهو رياضة الأبرار، وبما علمهم الله جل جلاله منه ومن غيره امتلأت قلوبهم من الأنوار واطلعوا على ما أراد الله جل جلاله اطلاعهم عليه من الأسرار.

فابدأ يا ولدي بصوم العقل والقلب، وعن كل ما يشتغل عن الرب، وعن الافطار بالذنب، وذكر نفسك أنه لو طلب سلطان مثل ذلك منك، وأن تتقرب إليه وأنت في حضرته وبين يديه بشعار المراقبة بخدمته والامساك عما يبعدك عن حضرته، أما كنت تفرح بهذا التكليف، وتعتقد أنه من التشريف.

فلا يكن الله جل جلاله عند عقلك دون هذه الحال، فيفتضح العبد بالاقدام على هذا الإهمال، وما يؤمن عليه الحصول في الأهوال.

فإذا صام عقلك وقلبك عن الشواغل، فكلف جوارحك جميعها أن تكون صائمة عما يشغل عن مولاك، على ما يليق بك من الصوم الكامل وسوف أشرح تفصيل هذه الأسرار في كتاب سميته كتاب «المضمار» إن شاء الله تعالى، فيكون عملك بالله جل جلاله على ما يفتحه جل جلاله من الأنوار.

الحج

وأما الحج إلى الله جل جلاله بقصد بيته الحرام، أكرمك الله جل جلاله يا ولدي بالحج على التمام إن شاء الله تعالى، فاعلم أن كل من قصد الحج لأجل سواه، فقد ضاع قصده وفسد مسراه، وإنما يقصد كل مقصود بالله جل جلاله ولأجل الله جل جلاله.

ولقد كنا مرة يا ولدي في طريق مشهد الحسين عليه السلام، وكنا متيممين فنحتاج أن نصلي بالنوافل والفرائض بحسب ما هدانا الله جل جلاله إليه، فصار الرفقاء يستعجلون، فقلت لهم: نحن نقصد الحسين عليه السلام لأجل الله جل جلاله، أو نقصد الله جل جلاله لأجل الحسين عليه السلام؟ فقالوا: بل نقصد الحسين لأجل الله تعالى.

فقلت لهم: فإذا ضيعنا في طريق الله جل جلاله الذي نقصد الحسين عليه السلام لأجله، فكيف يكون حالنا عند الحسين عليه السلام، وبأي وجه يلقانا هو، ويلقانا الله جل جلاله عند الحسين عليه السلام إذا تعرضنا لفضله؟ فعرفوا أنهم غالطون.

فكل من حج لأجرة، أو لنفع عاجل أو آجل، أو لطبع، أو صورة غافل أو متغافل، فحجه إما باطل أو غير كامل. وقد شرعت في تأليف كتاب سميته «مسالك المحتاج إلى مناسك الحج» وسوف

أذكر فيه بالله جل جلاله ، ومن الله جل جلاله ، ولله جل جلاله ، ما ينبغي إذا حججت إن شاء تعالى تعمل عليه.

وبالجملة فيكون حجك على صفة أنك حججت وحدك، ولا يعلم بك غير الله جل جلاله من البشر، فيعزك في نظر الخلائق إليك ونظرك إليهم. فمتى وجدت نفسك تطالبك بغير نظر مولاك وأطعتها في ذلك الخطر، فاعلم أن الحج فاسد أو ناقص بذلك النظر، فاطلب من الله جل جلاله قوة على أن يشغلك بجلاله وإقباله عن كل من عداه وما عداه، حتى تتوجه منه وبه وإليه وله جل جلاله على بساط الذل لعزته والخضوع لهيبته، وهناك تكون المسعود بالحج إليه، فاذكرني يا ولدي بين يديه، فقد ذكرتك والله جل جلاله عظيماً، وسلمتك من يدي إليه، ولا عرفت ولا سمعت أن والداً كرر وأكثر من التضرع إلى الله جل جلاله لأجل ولد يعز عليه، أبلغ مما خاطبت في طلبك قبل وجودك، وفي مهماتك للدنيا والآخرة بعد وجودك، ولما تحتاج إليه ولأجل إقباله عليك وإقبالك عليه وقدومك عليه.

الجهاد

وأما الجهاد يا ولدي شرّفك الله جل جلاله بمجاهدة نفسك، وكل من يشغلك عنه، بل قواك قوة تدفع عنك مشقة الاجتهاد حتى تتلذذ بكل مبذول في القرب منه، فاعلم أنك إن وجب عليك الجهاد بين يدي من تجب طاعتك عليك، فهو صلوات الله عليه يعرّفك وظائف الجهاد، ويكفيك ويكفيني أن أكتب ما عرّفني الله جل جلاله من ذلك إليك.

وإن ابتليت بجهاد مع غير من تجب طاعته: فإن كان فرضاً عاماً يخاف على الإسلام أن تذهب بيضته وتستأصل شأفته، فإنك تعلم أن النفوس والرؤوس، وكل ما يعز عليك من الله جل جلاله إليك، فأحق مما يذل كل عزيز والدنيا كلها لواهبها، وأجمل ما أنفقت ذخائر العقول في مراد جالبها، ومن أحق بالأجساد والأرواح والعقول بكلما في الوجود من الله جل جلاله ، الذي أنت وما في يدك صادر عن ذلك الجود. فمتى دعاك إليه فإياك أن تتوقف عن حمل نفسك ومالك إليه فإنك إن بخلت بها عليه في بذلها، سلبها عزرائيل عليه السلام أو غيره، وضاع منك شرف الخدمة بتسليمها إليه وبذلها في إعزاز دينه الذي يعز عليه.

وصايا خاصة

وأوصيك يا ولدي محمد أدام الله جل جلاله إقباله عليك، وكمال إحسانه إليك، بما أوصاك الله به جل جلاله في نفسك والوالدين وذوي الأرحام وسائر وصايا الإسلام، وبالتحنن على أُخوتك وأخواتك وخدمك وحشمك وأهل مودتك. وما أوضاك به جدك محمد ﷺ، ولسان حال آبائك وعترته الطاهرين. وبما أوصاك به من مواهبه عليك ولديك من المروة والصفاء والوفاء، وجميع صفات أهل الدين، وأن تشركني في خلواتك ودعواتك وصدقاتك، وتذكرني بين يدي الله جل جلاله بما يجري به جل جلاله على خاطرك عند مناجاتك، وتبعث إلي بالسلام أول كل ليلة وأول كل نهار، فإنه روي في الآثار أنه يبلغني ويكون من جملة المسار.

وجمل ذكرى لحفظك جانب الله جل جلاله، وسلوك سبيل سلفك الطاهرين، فإنه من صفات المسعودين إذا وجدوا آباءهم وقد بنوا لهم مجداً لا يسعوا في نقضه، بل تكون همتهم الاجتهاد في مراعاته وحفظه، وأن يزيدوا على ذلك المجد بغاية الجهد، كما قيل:

لَسْنَا وإنْ كَرُمَتْ أوائِلُنا ... يوماً على الأحسابِ نَتَّكِلُ
نَبْني كما كَانت أوائلُنا ... تَبْني وَنَفْعَل مثل ما فعلوا

وأنت يا ولدي وديعة الله جل جلاله ووديعة خاصته، وفي حمى حمايته ورعايته، وفي أمان حفظه وحياطته.

والسلام على من يجب تقدم السلام عليه وعليك في الحياة وبعد الممات، وأن أسأل الله أن تجتمع في دوام العز والاقبال والجاه وكمال النجاة[١].

(١) المصدر السابق ص ٢١٥.

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

المقدمة ٧
اسمه ونسبه ٨
والده ٨
والدته ٩
إخوته ٩
زوجته ٩
أولاده ١٠
ولادته ونشأته ١١
أساتذته وشيوخه ١٥
تلامذته والراوون عنه ١٦
إطراء العلماء له ١٧
مؤلفاته ١٨
وفاته ومدفنه ٢٢
السيد ابن طاووس ومنهجه في المعرفة والسلوك ٢٤
المدخل ٢٤

شخصية السيد ابن طاووس ٢٥
شكر نعمة الانتساب للصالحين ٢٧
علو الهمة والطموح المعنوي ٢٩
الكمالات العلمية والعملية ٣١
المنزلة العلمية ٣١
فقه السيد ٣٣
الفقيه الإمام والمقدم ٣٥
براعته في علوم الحديث ٣٩
الثروة التفسيرية ٤٢
علم الكلام وأصول العقائد ٤٤
شهادات العلماء بمقامه العلمي ٤٥
قيمة تراثه العلمي ٤٧
المقامات العملية ٤٩
شمولي آثار الإيمان ٥١
قوة الاقبال على العبودية ٥١
التفاني في طاعة الله تعالى ٥٢
أعبد الأصحاب ٥٢
الإخلاص التوحيدي ٥٣
الفناء التوحيدي عن النفس ٥٤
سيد أهل المراقبة ٥٥
حبه لله تعالى وانقطاعه إليه ٥٥
نقاوة زهده ٥٧

إنفاقاته في سبيل الله تعالى ٥٨
شجاعته وانتصاره للحق ٥٨
ورع السيد ٥٩
غيرته الدينية ٦٠
دفاعه عن المسلمين ٦١
كرامات السيد ٦٢
المعارف الإلهامية ٦٢
استجابة دعائه ٦٣
إحاطته بالرعاية الإلهية الخاصة ٦٥
علاقته بإمام العصر (عج) ٦٧
إجماع العلماء على سمو مقام السيد وصواب منهجه ٧٠
الإلتزام بعرى الثقلين ٧١
تأثير السيد في المدارس السلوكية ٧٢
حفظه التراث التربوي الإمامي ٧٤
تخصصه في الباب التربوي ٧٥
منهج الدراسة ٧٦
الهدفية في طلب العلوم ٧٧
الجدية في اكتساب العلم ٨٠
النزعة التحقيقية الاجتهادية ٨١
الاهتمام الموجه بالتعلم ٨١
ملء الفراغات العلمية ٨٢
التعلم مقدمة للعمل ٨٣

العمل معيار لتقويم العلوم ٨٤
تدوين العلوم للعمل بها ٨٤
التلقي الوجداني للمعارف ٨٥
موقفه من العلوم العقلية المجردة ٨٦
تفجير المعارف الفطرية ٨٧
فهم الدين بالثقلين ٩٠
الانفتاح على روايات الجمهور ٩١
أخذ كل المعارف من ينابيع الوحي ٩٢
تأكيد دور التفقّه في الدين ٩٣
اكتساب قدرة الاستنباط ٩٣
رفض التقليد ٩٥
التقليد يؤدي إلى الحرمان ٩٦
تبني أحسن الأقوال ٩٧
الاهتمام بدور العقل ٩٨
احترام نتاجات العقل السليم ٩٩
توجيه النشاط العقلي ٩٩
نفي استغناء العقل عن النقل ١٠٠
الإلهام طريق المعرفة ١٠٢
الحاجة للمعارف الإلهامية ١٠٣
الإلهام غير الوحي ١٠٣
المعارف الإلهامية أشد تأثيراً ١٠٤
المعرفة الإلهامية لا شك فيها ١٠٥

الإلهام مقدّم على نتائج العقل ١٠٦
التزكية لتلقي المعارف الإلهامية ١٠٧
التفويض طريق للإستلهام ١٠٨
الاستخارة طريق للمعرفة ١٠٩
غاية السلوك ١١١
التحلي بالهمة العالية ١١٢
شمولية التعبد لله واستمراره ١١٨
التحرر من الحياة البهيمية ١١٩
رفض مقولة وجود المباح الصرف ١٢٠
الطريق لشمولية التعبد ١٢٢
تفويض الأمر لله ١٢٤
الثقة بتدبير الله ١٢٧
ترسيخ معرفة الله ومحبته ١٣١
عبادة الأحرار ١٣٢
التخلص من عبودية النفس ١٣٥
عبادة أهل التصديق ١٣٧
شرط تحقيق الإخلاص في العبادة ١٣٨
ترسيخ التوحيد الخالص ١٤١
المراقبة واستشعار الحضور الإلهي ١٤٤
المحاسبة والاستظهار بالاحتياط ١٤٥
الأعمال العبادية وسائل للقرب ١٤٦
الجمع في حفظ الظواهر والأسرار ١٤٨

الخلوة لتركيز التوجه لله ١٤٩
تحلية الكسب والتطهير بالإنفاق ١٥٠
الاقتداء بالمعصومين عليهم السلام ١٥٢
الإرتباط بإمام العصر ١٥٤

في رحاب الله تعالى

طلب الحوائج ١٥٩
معنى زيارة الله تعالى في عرشه ١٦٤
التكليف الشرعي ١٦٥
التـــوبة ١٦٧
التوكل على الله ١٦٩
شكر الله تعالى ١٧١
العبودية لله تعالى ١٧٥
حفظ الأمانة الإلهية ١٨١
الحضور في المحضر ١٨١
فضل الله ١٨٦
خدمة الخالق ١٨٨
كيف تقرأ القرآن الكريم ١٩٠
آداب الصلاة ١٩١
ذكر نية الصلاة ١٩٢
ذكر تكبيرة الإحرام ١٩٣
وجهت وجهي ١٩٤
ذكر أدبه عند قول «مالك يوم الدين» ١٩٧

ذكر أدب العبد في قوله «إياك نعبد وإياك نستعين» ١٩٧
أدب الخطاب لرب العالمين ١٩٩
أدب تلاوة القرآن الكريم ٢٠١
أدب الركوع ٢٠٢
أدب السجود ٢٠٤
حب الله تعالى ٢٠٦
أدب السجود ٢١٣
ذكر الشهادة لله جل جلاله بالوحدانية في الصلاة ٢١٣
أدب التشهد ٢١٥
الصلاة على محمد وآله ٢١٧
أدب التسليم ٢١٨
إجابة داعي الله تعالى للصلاة ٢٢٠
القيام للصلاة ٢٢٢
سجود الشكر ٢٢٦
الدعـــاء ٢٢٨
فيما نذكره من فضيلة الدعاء من صريح القرآن ٢٢٨
صفات الداعي ٢٣٠
أحوال الداعي ٢٣٣
لمن يدعو المؤمن ٢٣٨
المناجاة ٢٤٠
الإستخارة ٢٤٣
التدبير الإلهي والإستخارة ٢٤٤

تعظيم المقدسات الدينية ٢٥٦
الملائكة ٢٥٧

معرفة النبي وآله عليهم السلام

معرفة أهل البيت عليهم السلام وطاعتهم ٢٦١
الإمام الحسين عليه السلام ٢٦٣
وصف أهوال يوم عاشوراء ٢٦٣
مراقبات يوم عاشوراء ٢٦٦
زيارة الإمام الحسين ٢٧٦
العلاقة بالإمام المهدي عليه السلام ٢٧٨
أسرار المولد النبوي المبارك ٢٨٩
أسرار الهجرة النبوية الشريفة ٢٩٥
أسرار المبعث النبوي الشريف ٣٠١
أسرار ولادة الزهراء ودفنها عليها السلام ٣٠٦
زيارة أمير المؤمنين عليه السلام ٣٠٨
أسرار ولادة الإمام المهدي عليه السلام ٣١٠
هدايا الأعمال للمعصومين عليهم السلام ٣١٣

الموت والآخرة

منازل العمر ٣١٧
السفر إلى الاخرة ٣٢١
الوصية ٣٢٢
الموت ٣٢٣
اعداد الكفن ٣٢٨

اعداد القبر ٣٣١
العـــزاء ٣٣٤
بين النوم والموت ٣٣٦
أدب النوم ٣٤٠
مواعظه ٣٤١
المراقبة ٣٤٦
المحاسبة ٣٥١
الثواب الجزيل للعمل القليل ٣٥٦
عرض الأعمال ٣٥٨
النية في الأعمال ٣٦٨
الصدقة ٣٧٧
إطعام الطعام ٣٧٨
آداب الطعام والشراب ٣٧٩
الطعام والمال الحلال ٣٨٠
شهر رمضان ٣٨٤
في ذكر النية في أول ليلة من شهر رمضان وأصناف الصائمين ٣٨٥
الافطار ٣٨٩
وداع شهر رمضان ٣٩٠
الاعتكاف ٣٩٦
صلاة العيد ٣٩٧
يوم دحو الأرض ٤٠٦
التنبيه على فضل الله بدحو الأرض ٤٠٦

عيد الغدير ٤١١
يوم المباهلة ٤١٦
وصيته لولده ٤١٩
الدعـاء ٤٢١
الكمـال ٤٢٢
يوم التكليف ٤٢٤
الموعظة بالموت ٤٢٨
الزوجـة ٤٣٠
المخالطة ٤٣٢
عدم الطاعة للشيطان ٤٤٠
ذكر الله تعالى ٤٤١
الامانة الالهية ٤٤٢
السفـر ٤٤٣
الأدب عند النوم ٤٤٥
ملك الله تعالى ٤٤٧
العلم النافع ٤٤٨
وصية الشيخ ورّام ٤٤٩
التاريخ للموعظة ٤٥٠
الطـب ٤٥١
الحضور في المحضر ٤٥٣
الزكـاة ٤٥٥
الصيـام ٤٥٧

الفهرس ٤٧٣

الحـــج ٤٥٨
الجهـاد ٤٦٠
وصايا خاصة ٤٦١
الفهـرس ٤٦٣
صدر للمؤلف ٤٧٥

صدر للمؤلف

١ - زيارة الإمام الحسين عليه السلام في رحاب الإمام المهدي عليه السلام .

٢ - كفاية الزائرين .

٣ - ضياء المؤمنين .

٤ - الروح بين العلم والعقيدة .

٥ - النور المبين في فضل الصلاة على محمد وآله الطاهرين .

٦ - خدمة الناس في سيرة أهل البيت عليهم السلام .

٧ - المنهج العبادي للأنبياء والأوصياء والعرفاء .

٨ - النظام الصحي بين الطب الإسلامي والطب الطبيعي .

٩ - حياة السيد المسيح عليه السلام .

١٠ - كيف تواجه الابتلاء .

١١ - بحوث في الإمامة والولاية

١٢ - جمال السالكين السيد عبد الأعلى السبزواري رحمه الله .

١٣ - كيف تقرأ القرآن الكريم .

١٤ - وصايا العلماء .

١٥ - غياث الملهوفين في التوسل بمحمّد وآله الطاهرين .

١٦ - الشفاء في الغذاء في طب النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام.

١٧ - الأحلام نافذة على عالم الغيب.

١٨ - يوم القيامة ونسبية الزمن بين العلم والقرآن الكريم.

١٩ - جواهر الأخبار في ما ورد عن النبي وآله الأطهار.

٢٠ - مواعظ وعبر من حياة الأنبياء والأوصياء والأولياء.

٢١ - تكريم الناس.

٢٢ - الفضائل العلوية.

٢٣ - الكمالات العلوية.

٢٤ - البيت السعيد.

٢٥ - أعمال الحج والعمرة.

٢٦ - قضاء الحوائج.

٢٧ - الصدقة نور في الدنيا والآخرة.

٢٨ - الدين المعاملة وفن العلاقات الاجتماعية.

٢٩ - الشفاء في الصيام مقارنة بين الصوم الديني والصوم الطبي.

٣٠ - كيف ننفع الأموات؟

٣١ - ادخال السرور على أهل القبور.

٣٢ - زجر النَّفس: المنسوب للنبي إدريس عليه السلام.

٣٣ - كيف تحاسب نفسك؟

٣٤ - كلمات سيد الأوصياء لمناسبات الموت والعزاء.

٣٥ - المحاضرات الأخلاقية.

٣٦ - البرنامج العبادي.

٣٧ - النذر.

٣٨ - أسرار جزاء الأعمال.

٣٩ - في رحاب الله.

٤٠ - الشفاء بالماء.

٤١ - المجالس البيتية.

٤٢ - صلاة الجماعة.

٤٣ - عشاق الولاية

٤٤ - صلاة الجماعة.

٤٥ - الطريق إلى عالم الملكوت

٤٦ - الطريق إلى النجاح.

٤٧ - كيف تغير حياتك؟

٤٨ - الارتقاء الروحي.

٤٩ - طاقة النور.

٥٠ - زاد المعاد.

٥١ - تعرف إلى العالم الآخر.

٥٢ - وصايا النبي محمد ﷺ لكل زوج وزوجة.

٥٤ - سراج القبور.

٥٥ - الأم والطفل.

٥٦ - الاحتياط سبيل النجاة.

٥٧ - اعرف أهمية حياتك.

٥٨ - سر الذبيحة والعقيقة.

٥٩ - يا أبناء الأربعين.

٦٠ - التسامح والغفران.

٦٠ - الاحتياط سبيل النجاة.

٦١ - الهدايا الإلهية.

٦٢ - الإمام علي عليه السلام حياة العارفين.

٦٣ - في رحاب الأسماء الحسنى.

٦٤ - الشفاء بالرقية الشرعيَّة.

٦٥ - خطايا اللسان.

٦٦ - الحصن الحصين.

٦٧ - كيف تكون روحانيًّاً خلال أربعين يوماً؟

٦٨ - وصيَّة المسلم.

تُطلب الكتب من المؤلف: جنوب لبنان - عديسة

تلفون: ٠٣/٦٤٩١٣٦ - ٠١/٢٧٩٥٨١